

كتاب الهلال

عبقريته خالد

تأليف
عباس محمود العقاد

العدد

١٥

سلسلة شهرية
تصدر عن دار الهلال



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيسا تحريرها : اميل زيدان وشكري زيدان
مدير التحرير : طاهر الطناحي

— — — — —

العدد ١٥ — رمضان ١٣٧١ — يونيو ١٩٥٢

No. 15 — June 1952

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب بك
(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتب

كتاب الهلال — بوسنة مصر العمومية — مصر
التليفون ٧٩٨١٠٠ (تسعة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢عدد) — مصر والسودان
٨٥ قرشا صاغا — سوريا ولبنان ١١ ليرة سورية
او لبنانية — الحجاز والعراق والاردن ١١٠ قروش
صاغ — فى الامريكيتين ٥ دولارات — فى سائر
انحاء العالم ١٥٠ قرشا صاغا أو ٣٠/٩ شلن

عمقريّة خالد

تأليف

عباس محمود العقاد

مفوق الطبع محفوظة لدار الهلال

البيادية والحرب

كان قتيبة بن مسلم قائدا من نوابغ القادة المعدادين
الذين أنجبتهم الأمة العربية في صدر الاسلام ..

وكان يلى خراسان ملوك الدولة الاموية ، فخرجت بها
خارجة أهمته ، فقليل له : « ما يهملك منهم ؟ وجه اليهم
وكيع بن أبى مسعود فانه يكفيكهم » فأبى ، وقال : « لا ..
ان وكيعا رجل به كبير يحتقر أعداءه . ومن كان هكذا قلت
مبالاته بعدوه فلم يحترس منه فيجد عدوه منه غرة ... »

وهذه كلمة من كلمات القائد العربى تنبىء عن كثير ..
تنبىء عن ملكة القيادة فيه ، وتنبىء عن ملكة السيادة في
الأمة التى نشأ منها واستطاعت بها أن تسوس الأمم في
الحرب والسلم ، سياسة للنجاح وللبقاء ..

فالحق أن شروط القيادة على وفرتها وعظم التبعة فيها
جميعا ، ليس يوجد بينها ما هو ألزم للقائد من القدرة على
سبر قوته وسبر قوة خصمه . وكل ما عدا ذلك فانما هو
ترتيب لما يصنعه بقوته وما يتوقع من القوة التى ينازلها
أن تصنعه ، أو هو تنظيم للأهبة والحيطة بين الفريقين في
المكان الذى يتلاقيان فيه

وقد كانت لهزيمة الدول أمام العرب أسباب كثيرة :
منها ضعف العقيدة ، واختلال النظام ، ونقص القيادة ،
وانحلال الترف وتفرق الآراء .. ولكن البلاء الأكبر انما
حاق بتلك الدول من آفة الغرور الباطل والاستخفاف
بالخصم المقاتل . فانتصر العرب لانهم ظنوه لا ينتصرون
ولا يعتزمون الانتصار ، وكان الاستخفاف والاهمال شرا
على تلك الدول المتصلفة من الاستهوال والفرع . بل كان

الاستخفاف والاهمال سببا لانقلابهم آخر الامر الى استهوال
يخذل المفاصل وفزع يفت في الاعضاء ، فاجتمعت عليهم
البليتان من سوء التقدير ، ولم تنفعهم قلة المبالة بالعدو
ولا فرط المبالة به بعد الاوان



كانت دولة الفرس لا تنظر الى البادية العربية الا نظرة
السيد المبجل الى الغوغاء المهازيل الذين يحتاجون اما الى
العتاء واما الى التأديب ، وبلغ من طغيان كسرى حين جاءته
الدعوة المحمدية أن بعث الى النبي العربي بشرزمة من الجند
تأتيه به في الاصفاد وبلغ من طغيان جنده عامة وخاصة
أنهم كانوا يأنفون أن يقرنهم أحد بالعرب في معرض من
المعارض أو غرض من الأغراض ولو للحيلة والمكيدة .
فاتفق في بعض وقعات العراق أن زعيما عربيا من جيرة
الفرس أقبل على القائد الفارسي مهران بن بهرام ، ليمنه
بأبناء قبيلته ويعينه على خالد بن الوليد وجنده . فقال له :
« ان العرب أعلم بقتال العرب ، فدعنا وخالدا » ، فجاراه
القائد الفارسي مجاملة وخدعة ليستخلص منه أقصى العون
والنجدة ، وقال له : « صدقت لعمري ! لأنتم أعلم بقتال
العرب وأنتم مثلنا في قتال العجم » . فغضب أتباعه
لمجاملته هؤلاء القوم الذين يعينونهم ويقاتلون في صفوفهم ،
وسأله : « كيف تقول ما قلت لهذا الكلب؟ » . فلم يهدأوا
عنه حتى اعتذر لهم بأنه يخدع القوم ويغرر بهم ، وقال لهم :
« دعوني فاني لم أرد الا ما هو خير لكم وشر لهم » . فان
كانت لهم على خالد فهي لكم . وان كانت الاخرى لم
يبلغوكم - أي المسلمين - حتى يهنوا فنقاتلهم ونحن اقوياء
وهم مضطربون .

وسخفوا في طلائع وقعة « أليس » فلم يحفلوا بجيش

خالد الزاحف اليهم وتنادوا الى طعامهم الذى هياؤه ، ولم يكلفوا أنفسهم قبل ذلك مشقة استطلاع الطريق ليأمنوا البغثة قبل تهيئة الطعام !

أما الروم فكان لهم غرور كهذا الغرور فى مواجهة البادية العربية ، وكان قصارى ما حذروه فى أول الأمر أن يغسر العرب على تخومهم لينهبوا ويسلبوا ثم يفرّوا بسلبهم الى الصحراء . فان أوغلوا فى بلاد الدولة الرومانية فهم مأخوذون بالهبات والوعود أو مأخوذون بالكثرة المستعدة لا يقوم لها جند قليل يوشك أن يتجرد من السلاح بالقياس اليهم . فلما جد الجد وعرفت الدولة الرومانية من تقاثل من أولئك الجند العزل على زعمها اذا هى تنقلب من الغفلة الشديدة الى الفزع الشديد



ويبدو لنا أن المؤرخين المحدثين لم يبرءوا كل البرء من هذا الخطأ القديم . . . فما يزال الاكثرون منهم يستعظمون على العرب أن يغلبوا الفرس والروم ، ويحسبون هذه الغلبة شيئا قد حصل وكان ينبغى أن لا يحصل ، لولا أنها فلتة لا يقاس عليها ومصادفة لا تقبل التكرار !

وبعضهم يلتمس العلة فيقول : « انما هى وهن الدولتين ومصابهما بالخور والانحلال » ، أو يلتمس العلة فيقول : « انها عقيدة المسلمين القوية وافتقار الفرس والروم الى مثل هذه العقيدة . »

وكل أولئك تعليل ناقص من بعض نواحيه فالمصادفة لا محل لها فى حوادث الوجود ، ولا تطرد فى قتال بعد قتال ، من جوف الصحراء الى عسيران العراق والشام ومصر ومشارق الارض ومغاربها بين أفريقية والصين

وانحلال دولة من الدول قد يفنيها ويعجزها عن النصر ولكنه لا يقيم دولة أخرى لم تتجمع لها أسباب النهوض والتمكين

والعقيدة قوة لا غناء عنها بقوة أخرى لمن يفقدها ، ولكنها هي وحدها لا تغنى عن الخبرة والاستعداد ، ولا تفسر لنا اختلاف النجاح باختلاف الخطط والقواد . وقد كان المسلمون فى عقيدتهم الراسخة يوم لقائهم هوازن وشيعةها بوادى حنين ، فأوشكوا أن ينهزموا لاعتدادهم بكثرتهم وقلة مبالاتهم بعدوهم ، وأوشكت عاقبة الاستخفاف هنا أن تصيب المسلمين كما أصابت الفرس والروم ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم : « ٠٠٠ ويوم حنين اذ أعجبكم كثرتم فلم تكن شيئا وضائق عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين »

فمهما يهرب هؤلاء المؤرخون من الحقيقة فلا محيص لهم من الرجوع إليها لفهم الغلبة الإسلامية أو فهم الهزيمة الفارسية والرومانية ، وهذه الحقيقة هى أن المسلمين كانوا أيضا أخبر بالفنون العسكرية من أهل فارس والروم وكانوا أقدر على تنفيذ الخطط العسكرية التى تنفعهم من قواد تينك الدولتين ، وإن البادية العربية سواء فى عصور الجاهلية أو صدر الاسلام لم تكن من الجهل بفن الحرب بتلك الحالة التى توهمها معظم المؤرخين الاوربيين ، بل معظم المؤرخين عامة ولا نحاشى منهم العرب والمسلمين

فالصورة الشائعة فى خيال أكثر القارئ عن البادية أن حروب الصحراء لم تكن الا مشاجرات بالسيف والرمح أو بالقسي والمقاليع ، لا ترجع الى نظام ولا تنهج على خطة ولا يخلص منها فمن يتعلمه المتعلم ويتلقاه اللاحق عن السابق ، وقوام أمرها شراذم من السطاة والمغيرين سرعان ما تقبل

حتى تدبر ، وقصارى ما تعرفه من أساليب القتال أن تفر
بعد الكر أو تكرر بعد الفرار

وهذه صورة مضللة لمن يسترشد بها فى اختبار قدرة
البادية على الحروب الكبيرة والمناوشات الصغيرة
فمن الخطأ « أولا » أن تستخف بالرياضة التى يراض
عليها الجيل بعد الجيل حيث تتعاقب الأجيال على أمثال هذه
المناوشات ، أو على ما نسميه اليوم حرب العصابات ، حتى
لو صح أنها كانت هى كل ما يعرفه أهل الصحراء من فنون
القتال

فالذى لا ريب فيه أن الصحراء قد تعاقبت فيها الأجيال
على حروب العصابات التى تشترك فيها القبائل أبدا بين
عادية ومعدو عليها ، وأن البدوى قد عاش زمنا كما جاء
فى التوراة « يده على كل انسان ويد كل انسان عليه » .
فحصل من ذلك على ملكة مطبوعة يصح أن تسمى « حاسة
الحرب » أو أهبة الميدان الخالد التى لا تفارقه فى ليل ولا
نهار . فلا يزال حياته فى حيلة المدافع واستعداد المهاجم
ويقظة القلب للنضال الذى يتعرض له بين مضطر مغتصب
أو طائع مختار

وهذه ملكة لا تحصل لأبناء المدن الذين يندبون للقتال
بين آونة وأخرى ، ويتدربون عليه كأنه عمل يؤدى فى
مكان العمل ثم يطرح عن العائق فى سائر الأوقات

ومن الرياضة التى يراض عليها الجيل بعد الجيل حيث
تتعاقب حروب العصابات أنهم يتعودون الصبر على الفرار
ويملكون الجأش عند الأدبار ، لأن الفرار عندهم حركة من
الحركات المألوفة فى كل وقعة يخوضون غمارها ، وليست
هزيمة تطيش باللب وتخلع الفؤاد وتوقع فى روع صاحبها
أنه ضيع الأمل ولم يبق له من أطوار القتال غير التسليم .
فهو فى حالة صالحة لاستئناف القتال ان أقبل وان أدبر ،

وسواء طمع في النصر أو لاذ بالنجاة ، وكأنه يتأخر ليتقدم في حينها أو بعد حين ، ويتحول الى الورا كما يتحول الى الشمال أو اليمين ، طوعا لأمر مقصود وجريا في عنان محدود ، ومن هنا تيسر لقواد العرب في الغزوات الكبيرة أن يلموا شمل الجيش المنهزم في سويحات معدودات وأن يتداركوا الخذلان من حيث يعسر على الجيوش المنظمة أن تتداركه قبل زمن طويل

ولن تخلو العصابات المغيرة - مع طول المراتة - من علم بأصول الاستطلاع والمباغثة والتبييت والمخاتلة وحسبان الحساب للرجعة والافلات، وهي على بساطتها أصول لا ندحة عنها في أكبر الميادين وأصغرها على السواء
هذا أن صح أن حرب العصابات هي كل ما حذقه عرب البادية من فنون القتال في تاريخهم القديم وذلك غير صحيح

فالعرب قد عرفوا في حروبهم التي وقعت بينهم تسيير الجيوش بعشرات الألوف على اختلاف الأسلحة والأقسام، وقيل أن جيش الغساسنة الذي حارب المنذر بن ماء السماء لم يكن يقل عن أربعين ألفا بين راجل وفارس ، وكان في الجيش معا راكبو الخيل وراكبو الابل وحاملو السيوف وحاملو الرماح والضاربون بالسهم والنبال والضاربون بالحراة والحجارة

ولقد كان الغساسنة والمناذرة أصحاب ملك قائم لا يعسر عليهم تسيير هذه الألوف المؤلفة الى الميادين القريبة ، ولكن القبائل التي لم تكن على شيء من هذا الملك كانت تسوق الألوف للقاء أمثالها وتستعد لها بالجيوش التي تساوى في عددها بعض جيوش القتال في عصرنا الحديث ، فاستعدت مذبح لقتال تميم يوم الكلاب الثاني بثمانية آلاف ، وجرى بين الفريقين من حيل الاستطلاع والمراوغة والهجوم والمطاردة

ما هو محتو لكل عناصر الكفاح الأولى في كل زمان
على أن البادية لم يفتها قط علم الحرب كما علمته دول
الحضارة في عصور الجاهلية العربية ، فكانت غسان على
مقربة من الروم تدخل معهم في الفرق المتطوعة على حالي
الدفاع والهجوم ، وكان ملوك الحيرة على مقربة من الفرس
يخدمهم أحيانا كتيبثان من الجيش الفارسي هما الشهباء
والدوسر أو « الدوشير » بمعنى الأسدین شعار الدولة
الفارسية ، وكان جند الشهباء من أبناء فارس وجند الدوسر
من أبناء القبائل العربية ، وليس يحتاج العربي الى أكثر
من هذه المقاربة وهذه القدوة لالتقاط الفنون التي يحتاج
اليها في تعبئة الجيوش وللطفنة الى المخاوف التي يتقيها في
مواجهة التعبئة النظامية من جانب دول الحضارة

وقد تبين هذا فعلا في وقعة ذي فار التي تغلب فيها
العرب على الدولة الفارسية . فان العرب كانوا في تلك
الوقعة أبرع قيادة وأخبر بفنون الزحف والتعبئة من قادة
الجيوش النظامية . فلم يغفلوا قط عن حيلة واجبة أو حيلة
نافعة قبل اشتباكهم بالجيوش الفارسية : بعثوا الطلائع
وبثوا العيون وقسموا جموعهم الى ميمنة تولاهما بنو عجل
وميسرة تولاهما بنو شيبان وقلب تولته بطون من بكر عليهم
رئيسهم القدير هانيء بن مسعود ، وأنفذوا الى قبائل
العرب الذين في جيش الفرس رسلا يثيرون نخوتهم
ويغرونهم بالتخلي عن أصحابهم حين يجد الجند ويلتحم
الجيشان . فوافقتهم أياد وبرت بوعدا فولت من الميدان
في أخرج الاوقات

ولما أصبح يوم الوقعة الحاسمة أقبل الفرس ومعهم
الافئال والفرق المدرعة فلم يبرح قادة العرب ما شاهدوا
من ذلك الجيش الزاخر وتلك العدة الوافية ، بل تشاوروا
في أمرهم وعقدوا بينهم ما يشبه « مجلس الحرب » في

اصطلاح هذه الأيام • فقال ربيعة بن غزالة السكوني :
 « لا تستهدفوا لهذه الأعاجم فتهلككم بنشابها ، ولكن
 تكردسوا كراديس ، فان أقبلوا على كردوس شد الآخر » •
 وقال حنظلة بن ثعلبة : « ان الشباب الذي مع الأعاجم
 يفرقكم ، فاذا أرسلوه لم يخطئكم ، فعاجلوهم اللقواء ،
 وابدأوهم بالشدة » • وقال يزيد بن حمار : « أكنوا لهم
 كميناً ، ففعلوا وأكمنوه في موضع يقال له الحبيء وأوصوه
 أن يظهر خين يستحر القتال بين العسكرين وتفسر قبيلة
 أياد من صفوف الأعاجم ، فيكون فرار أنصارهم وأقبال
 المدد الى خصومهم ، مع احتدام القتال ، ضربتين متداركتين
 لا يقوون بعدهما على الثبات

ولم يغفلوا عن حمية الجند والفرسان يلهونها للمجازفة
 بالحياة والألفة من طلب النجاة ، وهو ما نسميه اليوم
 بالروح المعنوية ، فعمد حنظلة بن ثعلبة الى وضين راحلة
 امرأته - أي حزامها - فقطعه ، وتبع رواحل النساء فقطع
 وضنها جميعاً فسقطت على الأرض ، وصاح بقومه : « ليقاتل
 كل رجل منكم عن حيلته ا » • • وراح السيفيون يقطعون
 أقبيتهم من مناكبها لتخف أيديهم لضرب السيوف ، وتسابق
 الخطباء والشعراء في التذمير والتحريض فذهبوا جميعاً
 يرددون قول قائلهم « المنية ولا الدنية واستقبال الموت خير
 من استنباره »

وتبارز بعض الفرسان من العسكرين ثم التخم الفريقان
 وحمل الوطيس وظهر الكمين في أوانه وولت أياد فتبعها
 فريق ممن كسرت قلوبهم هذه الصدمة التي فوجئوا بها
 على غير رقبة ، وأطبق الكمين على قلب الجيش ومعه كوكب
 الجيش العربي كله فحققت الهزيمة العاجلة على أقوى الجيشين ،
 وكتب النصر لأولى الفريقين به في ميزان الفن العسكري

الذى يشمل جميع المرجحات ، ما عدا المرجح المادى دون غيره ، وهو العدد والسلاح

اذ الحقيقة أن غلبة العرب فى يوم ذى فار انما كانت غلبة لليقظة على الغفلة ، ولكفاية على العجز ، وللخفة على الفخامة ، وللفن الحربى الصحيح على النظم التقليدية التى لا تصرف فيها ، وللعزة المشكورة على الكبرياء المذمومة ، وكان العرب خلقاء أن ينتصروا بكل وسيلة من وسائل النصر فى الحروب القديمة والحروب الحديثة ، الا تفوق الفرس فى بعض العدد التى لم ينفعهم تفوقهم فيها عند التحام الصفوف

وليس فى وسع عالم من علماء الحرب فى زماننا هذا أن يأخذ عليهم خلا فى خطتهم لم يلتفتوا اليه أو يحصى عليهم وجها من وجوه التدبير قصروا فيه ، لأن وجوه التدبير كلها فضول بعد أن تستقيم للمقاتل :

(١) أهبة الاستطلاع . و (٢) رسم الحطة . و (٣) تنظيم الجيش فى مواقفه . و (٤) تنظيم الجيش فى حركاته . و (٥) اذكاء العزيمة فى نفوسه و (٦) اضعاف العزيمة فى نفوس خصومه ، وهذه كلها هى صفوة لبسب الحرب فى العصر الحاضر وفى العصور الغابرة ، وفى جميع العصور الى آخر الزمان

ويبدو لنا أن مزية الفرس والروم فى أنواع الأسلحة والعدد كانت مزية مبالغا فيها على الأقل فى ميسادين الاشتباك والالتحام ، اذا صح أن لها الرجحان فى مواقف الحصار ومواقف الحرب من بعيد . لأننا عرفنا من أخبار الحروب الماضية أن بعض الفرسان البواسل كانوا يترجلون ليحكموا الضرب والحركة ، وكانوا يخلصون عنهم شكتهم تبرما بها وتخفقا من ثقلها ولا سيما فى أيام القيظ أو فى المواضع الوعرة التى تصعب فيها حركة المدرعين فى الشبكة السابغة ، وكان بعض الضباط من النبلاء يستصحبون

خدما لهم ليحملوا لهم شكتهم الى حين الحاجة اليها ، وجاء
في كتاب فيجتيوس Vegetius انجيل الحرب عند الرومان
الاقدمين ان الجنود كانوا يضيّقون ذوعا بالدروع المعدنية
ويستثقلونها ويودون لو يطرحونها ويتاح لهم العمل بغيرها ،
ولم تكن لهم حاجة بها الا حين يرادون على الاقتراب مع مواقع
السهام والنبال والحراب الطويلة ، لاداء عمل من الاعمال

وعندنا أن العرب قد كسبوا الطريقتين معا بنشاطهم في
البادية واقترابهم من دول الحضارة ، ونعنى بهما طريقة
العصابات وطريقة الجيوش في ادارة الحروب



فهم قد برعوا في حرب العصابات بالمرانة الطويلة ، ثم
اقتبسوا ما لزمهم أن يقتبسوه من فنون الحرب عند الدول
الكبرى على أيامهم ، فلم يخسروا بذلك احدى الطريقتين بل
جمعوا بينهما واستفادوا بما تفيد كل منهما في موضعها ،
فأضافوا سرعة العمل في طريقة العصابات الى أحكام التنظيم
في طريقة الجيوش ، وكانوا يقاتلون بفنن متساندين
ياخذون منهما ما يأخذون ويدعون منهما ما يدعون ، حيث
كان الفرس أو الروم يتقيدون بفن واحد على التراث المحفوظ
الذي لا يحسنون التجديد فيه

ومن المحقق أن قبائل العرب التي أقامت في الحواضر
كانت على الزمن تتلقى النصيب الأوفى من كلتا الطريقتين ،
أما بالقدوة والتلقين أو بالتعليم المقصود ، ولا سيما قبائل
قريش التي كانت تقيم في عاصمة العواصم العربية من
الوجهة الأدبية والثقافية ، وكانت تجمع كل ما تفرق بين
أبناء الجزيرة من المزايا والمعارف والصفات ، لأنها أخذت
نفسها بأداب الرئاسة المدنية والبدوية التي يدين بها
جميع هؤلاء

فالتاريخ الصادق يتقاضانا أن نعرف هذه الحقيقة لنعرف
موقع العدل والانصاف من حكم الزمن بين الأمم الكبيرة
التي تنازعت السيادة بعد ظهور النهضة العربية

فالنهضة العربية لم يكتب لها النصر لأن الفرس والروم
كانوا يستحقون الهزيمة وكفى ، بل هي قد انتصرت لأنها
كانت تستحق النصر بأسبابه التي لا مصادفة فيها ولا
محاباة ، ولا محل فيها للثلاثة نادرة لا تقبل التكرار
وإنما كانت أسباب النصر عند العرب ناقصة فتمت في
أوانها فغلبوا بوسائل الغلبة جميعها

كانوا متفرقين بغير باعث إلى الوحدة والنهوض ، فجاءتهم
الدعوة الإسلامية تجمع شتاتهم وتبعث كرامتهم وتنطلق بهم
في سبيلهم . فتم لهم ما نقص وتهيأت لهم ذرائع النصر في
شرعة الأرض والسماء ، وعلم النبي عليه السلام بيوم
« ذي قار » وهو يدعو العرب إلى دين التوحيد ، فرأى فيه
بؤادر نصر العرب على العجم ، وأيقن أنه يوم تتلوه أيام ،
وأنه مسمع بدعوته الأمم جميعا عما قريب

قريش وغزوم

كانت قريش موئل الثقافة العربية من أنحاء الجزيرة
كلها بين خاضرة وبادية ، ومن قديم عصورها إلى حديثها
لأنها كانت وسطا بين الحضارة والبداءة ، وكانت تقيم
في عاصمة الحجاز وإلى جوار الكعبة التي يحج إليها العرب ،
تبركا بحرمتها ولياذا بأصنامها ، ويحملون إلى أسواقها
أزواد الأدب والشعر والحكمة ، كما يحملون إليها أزواد
القوت وسلع التجارة

وكانت قريش تنقل إلى بلاد العرب كما يتنقل العرب
إليها من بلادهم ، فكان لها زحلتان في الشتاء والصيف :

أحدهما إلى اليمن والأخرى إلى الشام ، وكانت تصنيف إلى ما تعلمه بالسماع والرواية علم المشاهدة والمراس ، حيثما نزلت في طريقها من ديار العرب أو من ديار الروم والحبشة ، وسائر الأمم الأعجمية كما كانت تسميها

والعرب من دأبهم حفظ السير ورواية الأحاديث والتنقيب عن الأخبار والطوايا ، لأن الاستطلاع من طبيعة سكان الصحارى ، وتتوقف سلامتهم أحيانا على خبر يعلمونه في أوانه كما تستهدف أرواحهم أحيانا للخطر العظيم من جراء طارىء داهم تفوتهم الحيلة له في حينه ، ولم يزل أبناء القبائل على ولعهم الماثور بالسير والأخبار لغير هذه الضرورة التي يدعوهم إليها حب الأمن والسلامة . فهم غيـورون على تراث الآباء والأجداد تفاخروا بالنسب العريق وتصحيحا للعلاقات وتمييزا للأقربين والبعدها

ومع هذا الولع الأصيل في الطبيعة العربية باستقصاء الخبر ، يصعب على الذهن أن يتخيل أن قريشا تجهل شأنا من شؤون الثقافة العربية ، وهي تقيم في مشابة الجزيرة كلها وتسهر على عاصمة العرب ، وتجوب أنحاء هذا الوطن الكبير من شماله إلى جنوبه ومن جنوبه إلى شماله ، وتتابع العصور حقبة بعد حقبة وهي في مرقبها الذي تطل منه على كل ما يعينها

فقلما غاب عنها علم وصل إليه أبناء الحواضر والبوادي باجتهادهم واختبارهم ، أو وصلوا إليه بالقدوة والسماع عن الأمم الأجنبية

وقلما خفى عنها فن من فنون ثقافة العرب في مصالح السلم والحرب ، أو معارض السياسة والشؤون الاجتماعية ونظن أن خطأ المؤرخين في تقدير معارف العرب السياسية لا يقل عن خطاهم في تقدير معارفهم الحربية ، وقد كانت

كما رأينا كفوا لحضارة الدولة الفارسية وتجارب قوادها
وأساورتها

وكذلك كانت لهم فى السياسة والنظم الحكومية خبرة
لا يستخف بها من ينفذ الى بواطنها ، فهي لا تبلى أن تكون
فلسفة مشروحة ومذاهب مفصلة على مثال النظم العصرية ،
ولكنها كذلك لا تنزل الى الفوضى ولا الى الفريضة الهمجية
التي لا مساك لها ولا تدبير فيها

وأوجز ما يقال عن خبرتهم بالنظم الحكومية أن العالم
القديم لم يعرف قط. نظاما من أنظمة الحكم الا كان للعرب
نموذج منه يوافق مصالحهم وعقائدهم ويجرى على عاداتهم
وخلاتهم

عرفوا نظام الامارة التي ينفرد فيها الأمير براه ويستأثر
فيها بشريعته وقضائه

وعرفوا نظام الامارة التي يتولى فيها الحكم نائب عن الأمير
يفصل فى قضايا الرعية بمعونة ذوى الراى منها « الا أن
يكون غزو أو قتال » فهو باسم الملك دون غيره ، وهو النظام
الذى جرى عليه أهل الحيرة زمنا مع ملكهم المنذر ونائبه
زيد بن حماد من بنى أيوب

وعرفوا نظام الامارة التي يختار أميرها من أمة أخرى
كما تنتقل الأسر الأوربية اليوم من مواطنها الى الوطن
الذى تحكمه بالمصاهرة أو بالاتفاق بين الدولتين . وعلى
هذه السنة اجتمع البكريون حين غلبهم سفهاؤهم وأكل
قويهم ضعيفهم فقال شيوخهم : « لا نستطيع دفع ذلك الا
أن نملك علينا ملكا نعطيه الشاة والبعر ، فيأخذ للضعيف
من القوى ويرد على المظلوم من الظالم ، ولا يمكن أن يكون
من بعض قبائلنا فيأباه الآخرون ، ولكننا نأتى تبعا فيختار
لنا » فقصده فملك عليهم حجرا أميرا كندة ، وهو أبو امرئ
القيس . الشاعر المشهور

وعرفوا الحماية على أنواعها : حماية الإمارة التي تستعين بجيش أجنبي ، وحماية الإمارة التي تعتمد على جيشها ، وحماية الإمارة التي تدين لدولة واحدة أو تدين لدولتين . كما حدث ذلك في ملك اليمن بين الحبشة وفارس وسادات البلاد

وعرفوا رئاسة القبائل المنفردة ورئاسة القبائل المجتمعة الى نسب واحد ، ورئاسة الرحل الذين يرعون الابل والشاء ، ورئاسة أهل المدر الذين يفرسون المروج والبساتين ويزاولون التجارة من موسم الى موسم

وكانت قریش تسمع بهذه النظم وتشاهدها في مواضعها وتقتبس منها ما هي في حاجة اليه ، ولكنها لم تأخذ بنظام الإمارة لأن التنافس بين بطونها يمنعها أن تتفق على ملك من احداها ، ولم تتعرض لنظام الحماية لأنها كانت بنجوة من سلطان الدول الأجنبية ، ولم يوافقها نظام أهل الوبر ولا نظام أهل المدر لأنها كانت وسطا بين الحضارة والبداءة كما قدمنا ، وكانت ترعى مصالحها ومصالح الوفود التي تقبل اليها حاجة أو متجرة وليست هي من عشائرها التي تقبل منها حكم الشيخ في قبيلته على أية صفة من صفاتها

فاختارت لها نظاما فريدا يوفق بين هذه الأطوار الاجتماعية المختلفة فيها ، ولعله أشبه النظم بنظام المشيخة بين البرومان الاقدمين ، وانما يؤول الرأي الأخير فيه الى مجلس يجتمع من رؤساء كل بطن في القبيلة ، ويوشك أن يكون أمره شوري أو على صورة الشورى التي ترضى بالمجاملة وان لم يكن فيها رضى بالحقيقة . اذ الحقيقة أن المرجع الأخير الى أقوى الأقوياء من أولئك الرعاء ، كلما حزب الأمر وتشعبت الآراء

ومن زكاة الحكم عندهم أنهم فهموا مناط الرئاسة القرشية التي يدين بها حجاج البيت الحرام وقصاد مكة من

الحضر والبادية ، وهى الدين واللغة والتجارة المشتركة
فحفظوا مناسك الكعبة ، وجعلوا أسسواقهم معرضا
للبلاغة الشعرية والخطب المروية ، وتعاهدوا على ضمان
الثقة بالتجارة كلما غدر غادر بذمتها ، أو اعتدى معتد على
حقوقها .

واحتالوا على التوفيق بينهم بتقسيم المفاسخ والمراسم
على بطونهم وزعمائهم حسب أقدارهم ومزاياتهم ، فأنتهى
الشرف الى عشرة بطون هم : هاشم وأميمة ونوفل وعبد
الدار وأسد وتيم ومخزوم وعدى وجمع وسهم ، فكانت
لهاشم سقاية الحاج ، وكانت لاميمة راية الحرب يخرجها
عند القتال ليسلموها الى قائدهم المختار ، وكانت لنوفل
الرفادة وهى اعانة الحاج المنقطعين بالمال ، وكانت لعبد
الدار السدانة والحجابة واللواء ، وكانت لبنى أسد المشورة
أو رئاسة مجلس الشورى فى مهمات الأمور ، وكانت لبنى
تيم الديات والمغارم ، وكانت لبنى مخزوم القبة وهى مجتمع
الجيش والاعنة وهى قيادة الفرسان ، وكانت لبنى عدى
السفارة ، ولبنى جمع الأيسار أو الأزام ، ولبنى سهم
الحكومة والأموال المحجرة ، وظلوا يتداولونها جيلا بعد جيل
الى ظهور الاسلام

ولم يكن لهذه « الوظائف » الموزعة شأن واحد فى جميع
الأوقات والأحوال ، بل كانت تملو وتهبط على حسب
الزعيم الذى يتولاها وعلى حسب القوة التى يكون عليها
بيته عند ولايته اياها . ولكننا اذا نظرنا إليها نظرة مجملة
وجدنا منها ما كان يقصد به « جبر الحاضر » والارضاء وما
كان يشبه الوظائف الشورية أو الادارية الثانوية فى
حكوماتنا الحاضرة ، ولم نجد بينها « سلطات » فعالة خليقة
أن تتعاقب مع الزمن غير ثلاث متفرقات ، وهى السلطة

الروحية لهاشم وعبد الدار ، والسلطة السياسية لامية ،
والسلطة العسكرية لمخزوم

من بنى مخزوم هؤلاء نشأ خالد بن الوليد - بطل هذا
الكتاب - وكانت نشأته في أعرق بيوتها وأعلاها وأشرفها
وأغناها ، فلم يكن من أبوته أو عمومته الا رئيس ابن رئيس
لا تعلق مكانته مكانة أحد من رؤساء الجاهلية

كان جده المغيرة بن عبد الله ، الذي كان الرجل من بنى
مخزوم يؤثر أن ينسب اليه فيسمى المغيرة تشرفا بالانتساب
الى الفرع الذي أناف على الأصول

وكان أبوه الوليد بن المغيرة الملقب بالعدل وبالوحيد ،
لأنه كان يكسو الكعبة وحده سنة وتكسوها قريش كلها
كسوة مثلها سنة أخرى

وكان عمه هشام قائد بنى مخزوم في حرب الفجار ،
وبوفاته أرخت قريش كما تؤرخ بالأحداث العظام ، ولم
تقم سوقا بمكة ثلاثا لحزنها عليه

وكان عمه الفاكه بن المغيرة من أكرم العرب في زمانه ،
له بيت للضيافة يأوى اليه من شاء بغير استئذان

وكان عمه أبو حذيفة أحد الأربعة الذين أخذوا بأطراف
الرداء وحملوا فيه الحجر الأسود الى موضعه من الكعبة كما
أشار النبي عليه السلام قبل الدعوة الاسلامية

أما الذي فض النزاع بين القبائل على هذا الشرف حين
أذن التنافس بينها بالشر المستطير فهو عم آخر من أعمامه ،
وهو أبو أمية بن المغيرة الملقب بزاد الراكب كما جاء في
بعض الروايات . فقد أشار عليهم أن يكلوا الحكم الى أول
داخل من باب المسجد ليختار من بينهم من يرفع الحجر الى
مكانه ، فارتضوا مشورته وتم صواب المشورة بتوفيق
البشارة النبوية قبل اهلها على العالم بسنين . ولقب

أبو أمية زاد الراكب لأنه كان يكفى أصحابه في السفر
مؤنثهم فلا يتزودون بزاد

ويظهر أن بني مخزوم هؤلاء كانوا في ثروتهم وعدتهم
وبأسهم أقوى البطون القرشية حين ينفرد كل بطن منها
عن سائر بطونها . ولكنهم لم يستأثروا بالزعامة القرشية
لأنهم كانوا ينافسون بني هاشم وبني أمية وبني عبد الدار ،
وهم ثلاثة بطون قوية يلتقون في جد واحد أقرب من الجد
الذي يجمعهم ببني مخزوم ، وهو مرة بن كعب بن لؤى بن .
غالب بن فهر جد قريش أجمعين

وقد تبينت رجاحتهم هذه في مواقف كثيرة قبل الاسلام
وبعده . فاضطلعوا وحدهم ببناء ربع الكعبة بين الركنين
الأسود واليماني ، واشتركت قريش كلها في بناء بقية
الأركان

وكان لبني مخزوم وحدهم في وقعة بدر ثلاثون فرسا
من مائة فرس لقريش كلها ، ومائتا بعير وأربعة أو خمسة
آلاف مثقال من الذهب غير الأزواد والأمداد

فلا جرم يعظم على نفوسهم أن يغلبهم منافس على الشرف
والعزة ، وأن يحوزوا كل ما حازوه من الرجال والأموال
ثم تشيل كفتهم مرجوحة في ميزان الفخار

ولا جرم يأخذون الأمر مأخذ الأنفة والحنزوانة بينهم
وبين بني عبد مناف حين تظهر النبوة في هؤلاء ولا تظهر
فيهم

وقد أخذوها هذا المأخذ حين قال أبو جهل : « تنازعنا
نحن وبنو عبد مناف : أطعموا فاطمنا ، وحملوا فحملنا ،
وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحازينا على الركب وكنا كفرسى
رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء . . فمتى
ندرك هذه ؟ »

وانما قال أبو جهل « بنو عبد مناف » ذهابا الى الجسد الذى يجمع هاشما وأمىة وعبد الدار ، كانه يستعمل في كبريائه أن ينافس هاشما وحدها دون أن يصعد الى أبيها الذى يجمع بينها وبين غيرها

وكان الوليد بن المغيرة يزعم أنه هو أحق الناس بالدعوة والقرآن ، ويقول : « أينزل على محمد وأترك وأنا كبير قریش وسيدها ؟ » ٠٠ فلى ذلك يقول القرآن الكريم : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم »

ونحن نعلم الآن أى عقبة كانت هذه الخنزوانة المخزومية في طريق الاسلام اذ نرجع الى الآيات التى نزلت في رؤسائهم ووصفت ما كان من عنادهم وعتادهم ، وما كانوا يقابلون دعوة الدين الجديد بدعواهم فى آبائهم وأجدادهم ، فلم ينزل فى رؤساء قبيلة مثل ما نزل فى رؤساء هذه القبيلة ، ولم تتمثل منعة قوم كما تتمثل منعتهم فى ردود القرآن على أقوالهم ، وهى أقوى ردود عرفت فى السور الملكية الأولى ، على ما جاء فى الأيام الكثيرة من سورة ن وسورة المدثر وسورة الكافرون ، عدا اشارات أخرى فى سورة الحجر وعيس وتولى

وكل أولئك فحواه شيء واحد ، وهو أن بنى مخزوم باءوا بأسباب المحافظة على القديم جميعا حين تصدى الاسلام لتعديل ذلك القديم ، فهم أول من يصاب بهذه الدعوة الجديدة وآخر من يليها وله مندوحة عنها ، ومن ثم كانت المصاولة بين الاسلام والجاهلية فى وجه من وجوها مصاولة بين محمد عليه السلام وبين خالد بن الوليد الذى انتهى اليه شرف الرئاسة المخزومية فى ذلك الاوان

والناس يختلفون فى تمثيل بيئاتهم وطبقاتهم غاية الاختلاف ويصدقون فى تمثيلها غاية الصدق وهم يتفاوتون

بينهم تفاوت النقيض والنقيض • لأن البيئة مستودع شامل يوجد فيه الحسن والردى. ويأخذ كل منه على حسب مأثاه ومورده ، وحسب ما هو مستعد له وقادر عليه

فاذا قيل سيد من سادات قريش أو نموذج من نماذج القرشية الجاهلية جاز لنا أن نتمثله على ألوان كثيرة لا على لون واحد ، وجاز أن يكون هذا السيد خير السادات من طبقتة أو شرهم وشر أهل زمانه من جميع الطبقات

ولكننا مع هذا قد نحصر الحصال المشتركة والنعوت الوسطى التي تشيع في هؤلاء السادات غير من تجاوزوا الحد وبلغوا الندرة فى الشذوذ والاستثناء

فالعالب على هؤلاء السادة أنهم يتوارثون الثقافة العربية ويتدارسونها بالتعليم والتلقين والمعاشرة ، ويستوعبون أخبار الحكماء وذوى الأحلام فى علاج المشكلات وتدير الحيل ومصانعة الناس والأيام

ويكثر فيهم أن يجمعوا الثقافة السياسية والعسكرية كما وصلت اليهم من تراث الاقدمين من عرب وعجم ، وبخاصة من كان منهم منوطا بعدة الحرب وقيادة القبيلة فى غزواتها أو مواقف دفاعها ، كما كان خالد بن الوليد

ومن صفاتهم الشائعة فيهم حب السيطرة والصرامة وقلة الرحمة والاستزادة من المال ومتع الحياة والتفاخر بالوفر والثراء وجمع الخطام من حيثما اجتمع بأساليبهم التى كانوا يستجيزونها ولا يتحرجون منها ، وأشييعها الربا والمفسالة بالأسعار

وقد وجد فى أسرة خالد من يكثر من الاقراض بالربا ومن يرى فى أموال الربا شيئا من الدنس يقاربه فى أحوال ويستبعده فى أحوال أخرى

فمات أبوه وله على قبائل مكة وأرباضها ديون تحسب

بالألوف لم يزل خالد يتقاضاها حتى أسلم وأسلم المدينون، فترك الربا من بعدها واكتفى برأس المال عملاً بالقرآن الكريم : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وإن تبتم فلكم رموس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون »

وكذلك وجد في أسرته من نزه الكعبة عن أموال الربا وما شابهها . فقال لقومه : « يا معشر قريش ! لا تدخلوا في بناءها من كسبكم الا طيباً لا يدخل فيه مهر بغي ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد »

وكلمهم قرشى جاهل من طبقة السادة وأصحاب المال فحين نقول ان خالدا كان مثال طبقة وعنوان المحافظة على مزايا هذه الطبقة يحسن بنا أن نتجه الى تلك الحلائق الوسطى ونترقب منه نماذجها المشتركة التي لا غلو فيها من هنا أو هناك ، حتى نرى دلائل الزيادة في خليقة من تلك الحلائق ، فذاك اذن خاصته التي يتميز بها بين قرنائها ولا تخرجه من معهود الطبقة كلها على الاجمال

ولا يتم الكلام على تراث بنى مخزوم حتى نضيف الى مزاياهم المختلفة مزية ملحوظة لها شأنها في كل مجتمع انساني وليس شأنها بالقليل في حياة خالد على التخصيص فقد كانت هذه القبيلة على كثرة الاقطاب بين رجالها مشهورة بجمال النساء بين الحواضر العربية ، وبقيت لها هذه الشهرة الى ما بعد قيام الدولة العباسية ، اذ كان يقال لأبي العباس السفاح: ان المخزوميات رياحين العرب وعندك منهن يا أمير المؤمنين ريحانة الرياحين

ولا بدع يكون هذا شأن القبيلة التي نبغ منها خالد بن الوليد وعمر بن أبي ربيعة . فقيما كانت الفروسية

والغزل والمرأة بيئة واحدة تتعاون فيها البطولة والشاعرية
والجمال

وصفوة هذا جميعه أن خالد بن الوليد قد دخل الاسلام
بأوفى نصيب من حمية السيادة العربية في عهد الجاهلية،
فصنع للاسلام وصنع الاسلام له الاعاجيب ، وكان مقياس
العبقرية العربية في عهدين متقابلين



نشأة خالد وإسلامه

نشأة خالد

خالد بن الوليد بن المغيرة أحد سبعة أخوة من الذكور وقيل عشرة ، بل ثلاثة عشر بين ذكور وإناث ، ومنهم أختان وقد تقدم اجمال القول في شرف قومه ونصيب أعمامه خاصة من الرئاسة والزعامة . أما أبوه الوليد فقد كان الرأس بين الروس والزعماء ، وكانت له في بعض نواحي خلقه وعقله لمحات تلك المواهب التي تجلت بعد ذلك في عبقرية ولده العظيم .
كان أغنى أبناء زمانه في صنوف الثراء المعروفة بينهم كافة : الذهب والفضة والبساتين والكروم والتجارة والعروض ، والخدم والجواري والعبيد ، وسمى من أجل ذلك بالوحيد ، ولقب من أجل ذلك بريحانة قريش وهو الذي قال فيه القرآن الكريم من سورة المدثر :
« ذرني ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالا ممدودا وبنيン شهدا ومهدت له تمهيدا » .
ويروي سفيان الثوري أنه كان يملك ألف ألف دينار ، ويروي ابن عباس أنه كان يملك من الفضة تسعة آلاف مثقال

ولكبريائه في جوده أو جوده في كبريائه كان ينهى أن توقد نار غير ناره في منى لأطعام الحجيج وكان يأنف لنفسه في الجاهلية أن يرى سكران على اباحة الخمر وشيوعها في تلك الأيام ، فأنتهى عنها بغير ناه ، وقيل أنه قطع يد السارق على سبيل القصاص .

وقد كان من أصحاب الحيلة والحول والاقدام : ضربة من ضرباته في موقف اللبس والتردد تريينا فيه أبا خالد قبل أن يعرف العالم ضربات خالد ، وذلك يوم تداعت الكعبة وأوجس المشركون أن يهدموها ليعيدوا بناءها ، توقيرا لتلك الحرمة التي كانوا يقاربونها بالضراعة والخشوع ويدخلها بعضهم حفاة الاقدام ولم يقربوها قط بهدم أو عدوان . فلما رأى وسواسهم وفزعهم تناول المعول وضرب الضربة الاولى بيديه وهو يقول : « اللهم لم ترع . اللهم لا نريد الا الخير » ومضى في أثره الهادمون غير متهيئين

ويؤخذ من بعض احاديثه مع أبي جهل أنه كان من أفقه الناس لمعاني الكلام ومن أحفظهم للشعر والخطب في أيامه

« قام النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد يصلي والوليد ابن المغيرة قريب منه يسمع قراءته ، فلما فطن النبي صلى الله عليه وسلم لاستماعه أعاد قراءة الآية ، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بني مخزوم . فقال : والله لقد سمعت من محمد أنفا كلاما ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن . والله ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة ، وان أعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق ، وانه يعلو وما يعلى . . . ثم انصرف الى منزله »

فقال قريش : صبا والله الوليد ولتصبون قريش كلهم . فأوفدوا اليه أبا جهل يحتال لصرفه عن الاسلام ان كان قد نوى الدخول فيه ، وما زال به حتى قام معه الى مجلس قومه فقال لهم : تزعمون أن محمدا مجنون ، فهل رأيتموه يخفق قط ؟ تزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه قط تكهن ؟ تزعمون أنه شاعر وما فيكم أحد أعلم بالشعر مني فهل رأيتموه ينطق بشعر قط ؟ تزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئا من الكذب ؟

يسألهم ويجيبونه : كلا ، في كل سؤال

حتى اعياهم أن يردوا كلامه فسألوه رايه في تفسير
بلاغة القرآن ففكر ثم قال : « ما هو الا سحر يؤثر ! أما
رايتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؟ فهو ساحر
وهذا هو السحر المبين ٠٠٠ فذاك اذ يقول القرآن الكريم :
« انه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم
نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال ان هذا
الا سحر يؤثر »

واختلف المفسرون في تفسير المعنى المقصود بالعتل الزنيم
الذي قيل انه نزل فيه

فرأى بعضهم أن الزنيم هو الدعى وأن الوليد بن المغيرة
يوصف به لأن أباه ادعاه بعد ثمانى عشرة من مولده
ورأى بعضهم أن الزنيم وصف له من زئمة كان يعرف
بها في عنقه ، وهي اللحمة المدلاة ٠ ويخالفهم آخرون فيقولون
ان الرجل الذي كان يعرف بهذه الزئمة هو الأخنس بن
شريق ، وكان أصله من ثقيف وعداده في زهرة
وفى رواية أنه عليه السلام سئل عن العتل الزنيم فقال
انه هو الفاحش اللثيم ، وغير ذلك من الروايات والتأويلات
كثير .

الا أن الذي يعنينا فيما نحن بصدده أن الوليد لم ينسب
قط الى أحد غير أبيه المغيرة ، وأن المغيرة لم يكن بحاجة الى
استلحاق ولد غريب عنه لكثرة أولاده ونجابتهم بين فتيان
مخزوم وقريش عامة ، وأن شبه الوليد ببني المغيرة ظاهر
حتى في بعض الفروع البعيدة ٠ فان عمر بن الخطاب كانت
أمه قريبة خالد بن الوليد وكان يشبهه أقرب الشبه كما
يتفق في أيامنا هذه كثيرا بين أبناء العمات والأخوال ، وأن
غير الوليد لاولى بذلك الوصف لما تقدم من اعتزاز قريش
بنسبته فيهم حتى لقب بريحانة قريش وسمى بينهم بالوحيد
وعلى أية حال قد نشأ خالد في بيت الوليد بن المغيرة وهو

سيد بنى مخزوم ، وأحد السادات المعدودين فى قریش ،
وصاحب الكلمة التى يتعلق بها مصير قومه . فيما يجنح اليه
من شرعة أو دين

أما أمه فهى لبابة بنت الحارث الهلالية ، وهى أخت ميمونة
أم المؤمنين زوج النبى عليه السلام ، وأخت لبابة بنت الحارث
الكبرى زوج العباس عمه ، وأخت أسماء بنت عميس التى
تزوجها جعفر بن أبى طالب ثم أبو بكر الصديق ، ثم على
ابن أبى طالب ، ولها أخوات أخريات بنى بهن رجال من ذوى
الآخطار ومقادير العشائر النابيهين

وندر فى بيوت العرب النبيلة بيت لم يكن له صلة بخالد
وذويه بالنسب والمصاهرة ، من جانب أمه أو جانب أبيه

والأقوال فى سنن خالد وتاريخ مولده لا تنتهى الى قول
يمنتع فيه الخلاف . فمن المؤرخين من يقول انه مات وله من
العمر ستون سنة . فاذا كان قد مات فى السنة الحادية
والعشرين للهجرة فقد ولد اذن فى السنة الثامنة والثلاثين
أو السنة التاسعة والثلاثين قبل الهجرة

ولكنه قول يحول دون تصديقه والأخذ به أن خالد كان
صغير السن فى عام الفتح - فتح مكة - كما يفهم من تلقيب
أبى سفيان له بالغلام وشيوع هذا اللقب بين عارفيه

فقد كان أبو سفيان وأبن عباس يرقبان عبور الكتائب
والقبائل فى يوم الفتح فكان خالد بن الوليد أول من مر
فى بنى سليم . فسأل أبو سفيان : من هذا ؟ قال ابن
عباس : هذا خالد بن الوليد . فعاد أبو سفيان يسأل وهو
يخفى حنقه : الغلام ؟ قال ابن عباس : نعم ! كأنه لقب كان
معروفا بين شيوخ قریش

والرجل لا يقال له « غلام » وهو فى نحو السادسة
والاربعين . وقد يقال له ذلك وهو حول الأربعين اذا كان

القائلون من رؤساء الشيوخ وكان اللقب قد عرف قبل ذلك بسنوات وبقي بحكم العادة والتردد على الأفواه . فإذا كان خالد بن الوليد يومئذ في نحو السادسة والثلاثين أو السابعة والثلاثين فعولده على التقريب بين سنتي ثمانى وعشرين وثلاثين قبل الهجرة

وعندئذ تخطر لنا قصة أخرى لها صلة بهذا التقدير . وهى قصة المصارعة بينه وبين عمر بن الخطاب وهما غلامان وغلبته عمر وكسره ساقه فى هذه المصارعة . وانما يتصارع التندان أو المتقاربان . وعمر على تقدير مشهور قد ولد قبل الهجرة بأربعين سنة أو قرابة هذا التاريخ

فالتوفيق بين هذه الأقوال جميعا لما يستقيم لنا بتأخير مولد عمر قليلا عن سنة أربعين ، وتقديم مولد خالد قليلا عن سنة ثلاثين ، فيرجح اذن أن يكون مولده فى نحو سنة أربع وثلاثين قبل الهجرة . ولا مانع اذن أن يتصارع عمر ويغلبه كما يغلب الفتى فى الرابعة عشرة مثلا زميلا له فى السادسة أو السابعة عشرة ، اذا كان مولودا للدربة على الرياضة وألعاب الفروسية ، وكان خالد ولا شك كذاك ، لانه ورث قيادة الأعنة من باكر صباه

نعم يظهر أنه كانت عليه مخايل الفروسية منذ صباه الباكر ، اذ رشحه أبوه لقيادة الحيل ولم يكن أكبر أبنائه ، ورأيناه على قيادة الفرسان - فرسان قریش - فى وقعة أحد التى أحاط فيها برماة المسلمين من ورائهم . فحلت الهزيمة بجيش المسلمين بعد انتصاره

وقد أسلفنا أن بنى مخزوم كان لهم فى الجاهلية أمر القبة والأعنة ، فالقبة هى خيمة عظيمة يضربونها ليجمعوا فيها عدة القتال . والأعنة هى الحيل وفرسانها ، وولاية خالد هذه « الوظيفة » الموكولة الى قبيلته بين بطون قریش جميعا هى آية استعداده للرئاسة والقيادة منذ صباه

وفى أخبار خالد قصة واحدة تنفعنا فى تصور ملامحه
وسماته لقلّة أوصافه المحفوظة ، على خلاف ما تعودناه من
أحاديث العرب عن أبطالهم ، وهى فى الغالب مفيضة فى
وصف أولئك الأبطال

تلك القصة هى ما أشرنا اليه من المشابهة بينه وبين عمر
ابن الخطاب ، حتى كان أناس من ضعاف النظر يخلطون
بينهما من قريب ، ولا يميزونهما بالرؤية ولا بسماع الصوت
الخفيض

وخلاصتها أن علقمة بن علاثة لقي عمر بن الخطاب سمحاً
فقال له : مرحباً بك يا أبا سليمان ! ثم دنا منه فلم يميزه
مع دنوه وسماع صوته برد السلام عليه ، فقال : عزلك
ابن الخطاب ؟ فأجابه عمر : نعم . فمضى علقمة يقول :
ما يشبع ، لا أشبع الله بطنه !

وأصبح عمر فدعا بخالد وعلقمة وسأل خالداً : ماذا قال
لك علقمة ؟ فنفى أن يكون قد لقيه أو جرى بينهما كلام .
وكرر عمر السؤال ، فأقسم خالد بالله ما رآه ولا سمع منه
شيئاً . . . فقال علقمة كالموسع له من حرج : حلا أبا سليمان !
ولم يفتن لغلطه حتى تبسم عمر وأخبرهما بالحديث

ومن هنا تفهم أن خالداً كان طويلاً بائناً الطول ، وأنه
كان عظيم الجسم والهامة ، مهيب الطلعة يميل الى البياض
وغنى عن تواريخ المؤرخين ولا جدال أن خالداً قد تعلم
فى صباه كل ما يتعلمه الفتى المرشح للحرب والفروسية
وشمال الرئاسة ، ومن الصفات العارضة التى زعم أناس
أنها أصل الجفاء بينه وبين قريبه عمر بن الخطاب أنه صارعه
كما تقدم فغلبه وكسر ساقه ، وهى صغيرة تنبئ عن دراية
بأكرة بفنون الصراع والكفاح ، ولكنها لو لم تذكر فى
مصادرها لا غنانا عنها علم القائد الكبير بفنون الفروسية
على أنواعها وسرعته فى ما رزق النزال الى مصارعة أقرانه

ومبارزته واحتضانهم بعنف شديد حتى يعجزهم عن الحراك
وغير بعيد أنه تعود عيشة الشظف وراض نفسه على
الحشونة عمدا في البداية، ليصبر على مضائك الحرب وشدائد
الجوع والظما حيثما تُفرد عن موارد الزاد . فقد جاء في
بعض الاحاديث أن خالدا كان يأكل الضب ويشتهيهِ كما
يأكله الاعراب ويشتهونه ، وهو أغنى انسان في مكة أن
يسبخ هذه الأكلة الاعرابية ، مع يساره وافتنان أهله في
الاطعمة الحضرية

قال ابن عباس رواية عن خالد أنه دخل مع رسول الله
على خالته ميمونة بنت الحارث فقدمت الى رسول الله لحلم
ضب جاءها مع قريية لها من نجد ، وكان رسول الله لا يأكل
شيئا حتى يعلم ما هو ، فاتفق النسوة الا يخبرنه حتى يرين
كيف يتذوقه ويعرفه ان ذاقه . فلما سأل عنه وعلم به تركه
وعافه . فسأله خالد : احرام هو ؟ قال : لا . ولكنه طعام
ليس في قومي فأجذني أعافه . . . قال خالد : فاجترته
الى . فأكلته ورسول الله ينظر !

ومثل هذه التربية لقائد من قواد الحرب نموذج يحتذى
في كل مدرسة من مدارس الفنون العسكرية الحديثة ، وعلى
سنتها كتب نابليون تقريره وهو طالب في المدرسة الحربية^١
يعيب على النظام يومئذ أنه يسمح لـ"بناء الاعيان بمعيشة
الترف واستصحاب الخدم بين جدران المدرسة ، وهم أخرى
بخدمة أنفسهم في مدرسة يتعلمون فيها الصبر على شدائد
الحروب

وكان لخالد ولا ريب علم بالبادية العربية من غير هذا
الطريق طريق الرياضة المقصودة أن صبح ما رجحناه . فلعله
سافر كثيرا في الجزيرة قبل الاسلام ، ولعله عرف في تلك
الاسفار دروبها العصية التي كان يطرقها من العراق الى
الحجاز ومن الحجاز الى اليمن ، ومن نجد الى الشام ، وبعضها

كان يعتسفه على عجل بغير أدلاء

ولم تكن بخالد ولا بأخوته حاجة الى التجسار لكسب العيش وتحصيل المال ، اذ كان أبوه على تلك الثروة التي لا مزيد عليها في البلاد العربية ، وكانت ثروته أشبه شيء في عصرنا هذا بثروة المصارف التي تعمل في صفقات القروض والربا ومضاربات الاسعار . أما الثمرات والحضر في مزارعه فلم تكن مما يحمل الى البلاد القصية للبيع والشراء ، وإنما قصارها أن تباع في الحواضر الحجازية وما قاربها من البوادي القادرة على شيء من الترف والمتعة ، ولاسيما في أيام الاسواق والحجيج . ولهذا فسر بعضهم وصنف بنيه « بالشهود » فيما تقدم من الآيات بأنهم كانوا أبدا في صحبته وجواره مفاخرة بهم وتنزيها لهم عن الكدح والتصرف في شؤون المعاش . فان قضيت لأحدهم رحلة أو سياحة ففي غير هذه الاغراض أو في غير حاجة ملحة الى الاتجار ، وإنما هي الدربة والتمرس بالمصاعب والانتفاع بخبرة السياحة وآدابها ، وقد ينفقون في ذلك خير ما يكسبون ، كما كان يصنع عمه « زاد الراكب » وأعمامه الآخرون الذين اشتهروا بالأنفة من مجارة أحد لهم في الضيافة وبذل العطايا والهبات

وموضع الترجيع والاستنتاج هنا انما هو في ارسال خالد الى البادية قصدا لرياضة النفس والجسد على خشونة الاعراب وشدائد الميادين . فهذا ، وإن جرت به عادة بعض الاشراف في حواضر الحجاز ، لم يقطع به قول من الأقوال في سيرة الوليد بن المغيرة وبنيه « الشهود » على احتمال الشهادة للمعنى الذي قدمناه

ولكن الأمر الموثوق به كل الثقة ، والذي لا موضع فيه لترجيح ولا استنتاج - أن خالدا قد نشأ حيث نشأ في الحاضرة أو البادية مستعدا للخشونة مستطيعا لمعيشة

الاعراب ، مستجيب السليقة والبيئة لما يتكلفه المجاهد في
أوعر القفار وأعنف الحروب ، وكانت له ضلعة العصبين
الاقوياء المعهودين بين رجال السيف ، وهي ضلعة يوشك
أن تستمد من حماسة النفس وشهامة القلب أضعاف ما
تستمده من العضلات والأوصال

فلم تعفه العبقرية من ضريبتها التي لا مناص من أدائها ،
وأية ذلك أنه مات على فراشه في نحو الخامسة والخمسين ،
وليست هي بالسن الغالبة فيمن يموتون بداء الشيخوخة
من غير علة أخرى

وإذا تجاوزنا هذه المظنة ، وهي كافية ، ألفينا في تراجم
الأسيرة كلها ما ينبئ عن عوارض الأسر التي تهيتها الأقدار
لأنجاب العباقر في شتى المواهب والمزايا

فهذه الأسر الغريبة تكثر فيها عوارض الاختلاف عن جملة
الناس في تركيب الأعصاب خاصة ، ويشاهد فيها فرد أو
أفراد تتجمع فيهم عللها وتمعن بهم مخالقاتها وعناصر
شدوذها حتى تسلمهم إلى الاختلال والاضطراب ، كأنهم
ضحايا الأسيرة كلها في سبيل انجاب العبقرية منها

وكانت هذه العوارض مشاهدة في أسرة خالد وفي أخوته
على التخصيص . فذكر كتاب الاستيعاب في أسماء الأصحاب
أن الوليد بن الوليد كان يروع في منامه مثل حديث مالك
سواء في قصة خالد . وعن مسند ابن أبي شيبة أن خالد
ابن الوليد كان يفرع في نومه فشكا ذلك إلى النبي عليه
السلام فقال له : « ان عفريتاً من الجن يكيدك »

وبدلت هذه الأسرة الممتازة ضحيتها الكبرى في شخص
سليها عمارة بن الوليد أحد الأخوة المذكورين بأسمائهم
من ذرية الوليد بن المغيرة

وعمارة هذا هو صاحب عمرو بن العاص في رحلة الحبشة

رسولين الى النجاشي لتسليم المسلمين بها الى قريش
 وكان مولعا بالخمير والغزل وسيمما محببا الى النساء
 فلما كان بالسفينة مع عمرو وامراته شرب وانتشى ونظر الى
 امرأة عمرو نظرة اشتهاه ، ثم هم بتقبيلها بل اوما اليها ان
 تقبله في قول صريح . فقال لها عمرو متقيا ما يكون من فتى
 سكران عارم الاهواء بين الماء والسماء : قبلى ابن عمك ا
 فقبلته . فلم يزد ذلك عمارة الا اغراء بالمرادة وجراة على
 القحة ، ولمح عمرا على حافة السفينة وهو فى سكرة من
 سكراته فدفع به الى الماء يظنه غير قادر على السباحة كما
 يغلب على أبناء البادية ، وأدهى من ذلك أنه قال لعمرو وقد
 رآه يسبح الى السفينة وينجو من الفرق : أما والله لو علمت
 يا عمرو أنك تحسن السباحة ما فعلت ا فاذا هو قد جمع
 سوء النية بحياته الى سوء النية بعرضه ا وكظمها عمرو
 حتى تمكن من الكيد له عند النجاشي لاجترائه على حرمة
 ومعاشرته بعض زوجاته ، فأرسله النجاشي فى العراء مخبولا
 يعيش عيش الأوابد ، حتى مات

والقصاصون الذين سردوا لنا أبناء هذه المأساة يتهمون
 سواحر النجاشي بالكيد الذى أصاب عمارة بالخيال والهيام
 بين أوابد الآجام . ولكننا نحسب أن سواحر النجاشي براء
 من هذه التهمة الخرافية ، لأن عملهم فيها غير لازم وغير مفهوم
 إذ كانت عوارض الخيال ظاهرة من كل حركة وكل كلمة وكل
 نزوة سردها لنا أولئك القصاص ودلوا على سوابقها ونظائرها
 قبل رحلة الحبشة وقبل وقعة عمرو بن العاص . وأكبر
 الظن فيما نراه اليوم على ضوء المشاهدات الحديثة أن المسكين
 قد اشتدت به غوارض الأسرة بأسرها فكان ضحيته
 المضروبة عليها ، فى سبيل الشرف الذى غمته بعقرية
 خالد ، وهو شرف عظيم

وقد نلّج عوارض الأسرة هذه في أعظم أفراد الأسرة
 كما نلّجها في هذا المسكين الذي ابتلى بالثمن الفادح
 والضحية الكبرى . فخالد بن الوليد - شرف بني المغيرة -
 لم يفتنه الميل إلى المرأة كما فتن أخاه ، ولم يصرفه قط عن
 عبء من أعباء البطولة ولا عن فريضة من فرائض العظمة
 والعبقرية ، ولكنه على هذا قد تعرض للمواخلة من عمر بن
 الخطاب ومن أبى بكر الصديق في صدد الزواج المعجل في
 هير حينه ، فسبى امرأة مالك بن نويرة ، وتزوج خلال حرب
 اليمامة وهو بميدان القتال ، وسبى ابنة الجودي في دومة
 الجندل ، وقيل أنه فقد أربعين ولدا في طاعون الشام وهو
 بقيد الحياة لما يجاوز الحسين بكثير

وتلك في جملتها شواهد العوارض التي يقرر النفسانيون
 المحدثون أنها سمات العبقرية في منابتها ، ومنابتها هي
 الأسر التي تنجبها وتبذل أثمانها قبل أن تنعم بمجدها
 وفخارها

وكما ظهرت هذه العوارض في لون من ألوانها على أخيه
 عمارة ظهرت في بعض ألوانها الأخرى على أخيه الوليد الذي
 كان مثله يراع في رقاده

فهذا الأخ الكريم كان مع جيش المشركين في وقعة بدر
 فأسره المسلمون ، وطال الكلام في فدائه لغناه وعداوة أهله
 للإسلام ، فطلب أسره أربعة آلاف درهم ، وأوصى النبي ألا
 يقبلوا فدية له غير شكة أبيه الوليد وهي درع فضفاضة
 وسيف وبيضة . وكل هذه المطاولة والمساومة والوليد باق
 على دين الشرك في أسر المسلمين . فلما تم فداؤه وذهب إلى
 أهله أعلن إسلامه بينهم وهم كارهون ، وعجب المشركون
 لأمره فسألوه : هلا أسلمت قبل أن تفتدي ؟ فقال : كرهت
 أن يظن بي أنني جزعت من الأسار . . . وصبر على التعذيب

والنكاية والحبس بين أهله حتى أفلت بعد جهد وحيلة ولحق
بالنبي مشياً على قدميه !

هذه أيضاً نفحة خالدية من نفحات تلك الأسرة القوية
التي تأبى لخلائقها إلا أن تحير الناس وأن ترد عليهم من مورد
التفاوت والاغراب والمخالفة للمألوف

وهى فى أطوارها المتباينة منجم العبقريّة الذى لا وراء
فيه ، ومعدن البطولة التى تكتب لصاحبها وهو فى الاصلاّب
فها هنا نشأة بطل عبقرى مدخر للقيادة والرئاسة بمراث
حسبه وطبعه ، وملكات نفسه وجسده ، جاءته البطولة وهو
ينتظرها ولا يشك فيها ، وتهياً لها بالقدره على المشدّة
والرخاء والنعمة والبأساء ، ويكاد الصديق والاشاعة معا
يتوافيان الى دلالة واحدة فى تربية هذا البطل المنذور للبطولة
والعبقرية من قبل ميلاده ، فأكلة الضب التى سبق ذكرها
واحدة ١٠ وغيرها أكالات مسمومات يبدو لنا أنها مخترعة
أو محرفة ولكن اختراعها وتحريفها يدلان لا محالة على شيء :
وهو اشتهاار خالد بترويض بنيته على تجرع الغصص التى
يتقزز منها الناس ويخافون منها الهلاك ٠ ففى اليواقيت
للقطب الشمرالى أنه حاصر قوما من الكفار فى حصن لهم
فقالوا : نزعم أن دين الاسلام حق ؟ فارنا آية لنسلم ٠ فقال
احملوا الى السم القاتل ، فأتوه به فأخذه وقال : بسم الله ،
وشربه فلم يضره ، وتردد مثل ذلك فى كتاب الاصابة لروى
عن مصادر شتى أنه لما قدم الحيرة أتى بسم فوضعه فى راحته
ثم سقى وشربه ، ولم يؤثر فيه

وقد سمعنا نيتشه - بشير السوبرمان فى العصر الحديث
- يقول : ان السم الذى لا يميثنى يزيدينى قوة !
فهذه بنية بطل نشأت للمجد على هذا الفرار

إسلامه

كان اسلام خالد ضربا من التسليم
كان ضربا من التسليم بمعناه « العسكري » المصطلح عليه
في عرف القادة ورجال الكفاح
لأنه أسلم أو سلم تسليم القائد البصير بحركة القتال بين
المد والجزر والنصر والهزيمة ، الخبير بموضع الاقدام وموضع
الاحجام ، المقاتل والقتال شجاعة ، المسالم والسلم ضرورة
لا يحيص عنها

ولم يكن تسليمه تسليم العاجز الوكل ، ولا الجازع
المنخدل . بل لعله بلغ من نفسه غاية الثقة بالقدره وحمادى
اليقين بالخبرة ، يوم أسلم وسلم الى معسكر الدين الجديد .
كأنه آمن بالله لأنه علم من ذات نفسه أنه لن يغلبه الا الله ،
وكأنه كان يقول في قرارة ضميره : انهزمنى أحد وليس له
مدد من النبوة ؟ أيعلو سيف على سيفى وليس له سر من
السماء ؟

فبلغ نهاية الايمان بنفسه يوم بلغ بداية الايمان بالله



وقد كان على ذويه فى بنى مخزوم أن يحاربوا حربهم الى
نهايتها ، لأن الصراع بين الجاهلية والاسلام لم يكن الا صراعا
لهم قبل كل جاهلى وكل قرشى وكل عربى على التعميم
وكان معسكرهم أولى المعسكرات أن يصمد الى موقف
الحسم من النضال بين الفريقين ، لأن بلاءه بادبار الجاهلية
أكبر من كل بلاء ، وموقفه أمام الاسلام موقف من ينافح
عن عزته وعزة بيته وعزة آبائه وأجداده ، وعزة « النظام »
الاجتماعى كله كما قررته الجاهلية أحقابا بعد أحقاب ، لأنه
النظام الذى به يقومون وبهم يقوم

وقد أبلى أبوه في هذا الصراع قصارى ما في وسعه من
بلاء ، وهو شرح يطول ، وتفصيل تضيق به الفصول ،
ولكن إشارة واحدة فيه تغنى عن بيان طويل ، وصفحة
موجزة من صفحاته تغنى عن الاطناب في القال والقليل

وحسبنا من تفصيل مكائده وجهوده كلها في حرب
الاسلام أن نقول انه قد هان عليه في هذا السبيل أن يبذل
العريزين الولد والمال

ففى بداءة الدعوة المحمدية سعى وقومه الى عم النبي
أبى طالب ليسلمهم بحمدا أو يتخلى عنه ، وله بديلا منه —
عمارة بن الوليد... وقد وصفوه بأنه أنهد الفتيان وأشعرهم
وأجملهم في قريش

وبعد استفاضة الدعوة المحمدية يسعى الى النبي فيمن
سعى اليه من سراة قريش ليشاطروه أموالهم ويسكت عن
أربابهم وعبادتهم ، وفي ذلك يقول القرآن الكريم في سورة
الأحزاب « ولا تطع الكافرين والمنافقين »

وبمقياس هذا البذل السخى في سبيل الدين القديم
تقاس كراهة الرجل للدين الجديد ، وهى كراهة الهرم التى
تبقى الى الموت ، لأنه فوجيء بالاسلام وهو يقارب الثمانين
وظل على الكيد له حتى مات بعيد الهجرة وقد نيف على
الخامسة والتسعين



وكان خالد فتى ناشئا يوم ظهر النبي بالدعوة الجديدة ،
فنفّر منها كما نفّر قومه أجمعون ، وزاد على النفرة لها من
حمية صباه ، وتحفرا فتيا يسبق به أباه

فما هو الا أن بلغ مبلغ الزعامة في القتال حتى تجرد لها

بعزيمة الفتوة وشجاعة البطولة ، ولم تنقض سنتان على موت أبيه حتى كان قائد الأيمنة في وقعة أحد المشهورة ، وتولى الهجمة التي مالت بكفة النصر من جانب المسلمين الى جانب المشركين

وذلك أن النبي عليه السلام أقام الرماة من وراء جيشه وقال لهم : « قوموا على مصافكم هذه فاحموا ظهورنا ، فإن رأيتمونا قد انتصرنا فلا تشاركونا ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا » . فلما ولى المشركون منهزمين وتبعهم المسلمون مغتتمين ، خالفت كثرة الرماة وصاية النبي وتصلحوا بينهم « ما مقامنا هنا وقد انهزم المشركون ؟ » فكانت هي الغرة التي اهتبلها خالد ولم تذهله عنها الهزيمة المطبقة بقومه ، فكر بالخیل وتبعه عكرمة بن أبي جهل صاحب الميسرة وداروا من وراء جيش المسلمين ، فحملوا على من بقى من الرماة فقتلوهم وقتلوا أميرهم عبد الله بن جبير ، وآنقضت صفوف المسلمين واستدارت رحاهم واختلطوا فصاروا يقتتلون على غير شعار ويضرب بعضهم بعضا من العجلة والدهش ، وشاع أن عليه السلام قتل في المعركة ، وقتل فيها حمزة وسبعون من الأنصار ، وأرجف المرجفون بكبار الصحابة حتى ظن أبو سفيان أن أبا بكر وعمر من القتلى ، وصاح بين الصفوف : « يوم بيوم بدر والحرب سجال »

واشترك خالد في وقعة أخرى هي وقعة الأحزاب ، أو الخندق ، فكانت هي أيضا من أهول الغزوات على المسلمين وأوشكت أن تحيق بهم دوائرها لولا يقظة على بن أبي طالب ووقية بعض الدهاة بين أحزاب قريش وهبوب الريح التي عصفت ببيوتهم وقصورهم وزادتهم يأسا من اقتحام الخندق الذي حفره المسلمون حول المدينة ، وفي هذه الغزوة يقول القرآن الكريم : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم

اذ جاءكم جنود فارسنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها
وكان الله بما تعملون بصيرا . اذ جاءكم من فوقكم ومن
اسفل منكم واذا زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر
وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا
شديدا ... »

وقد كان خالد في هذه الغزوة يطوف بخيله حول الخندق
يلتمس مضيقا يقحم منه الخيل فأعياه وفشل عمرو بن ود
حين حاول العبور من احدى نواحيه . فلما حبطت حملة
عمرو وقتله على بن ابي طالب ، بات المشركون ليلتهم
يقسمون كتابهم لكل فريق من المسلمين كتيبة تدهمه مع
الصباح ، فكان خالد هو الموكل بالنبي عليه السلام في كتيبة
غليظة من خيل قريش والاحزاب ، فاندفع يقاتل سحابة
النهار وهويا من الليل ، الى أن تحاجر الفريقان ورجع
المشركون وانصرف المسلمون الى قبة النبي ، فارتد خالد
بعد هنيهة يطلب الغرة ، وكاد أن يظفر بها لولا حرس من
المسلمين بقيادة أسيد بن حضير تنبه له وفوت عليه
غرضه . ثم انقطع القتال وهو لا يزال على الطلب والطواف ،
وكان آخر من ترك الحومة بعد ياس الاحزاب من عبور
الخندق ودخول المدينة ، فلبث هو وعمرو بن العاص على
ساقة الجيش في مائتي فارس ردعا للجيش كله ، مخافة أن
يتعقبه المسلمون



وتصدى خالد مرة اخرى للنبي عليه السلام في سنة
الحديبية وهو في طريقه الى مكة . وكان النبي قد خرج
اليها معتمرا في نحو الف وخمسمائة من المسلمين لا يحملون
سلاحا غير السيوف في القرب . فاوجس المشركون خيفة

ان يكون قدومه الى البيت الحرام للقتال لا للعمرة ، وندبوا خالدا في مائتي فارس للقاءه قبل بلوغ مكة . فدنا خالد حتى نظر الى اصحاب رسول الله ، وأمر رسول الله عباد ابن بشر فتقدم في خيله وأقام بأزائه وصف من ورائهم رجاله ، ثم حانت صلاة الظهر فصلى رسول الله بأصحابه صلاة الخوف ، وهم خالد أن يغير عليه لولا نخوة من الفروسية أبت له العدوان على المسالم وقمعت فيه طمع الرئيس المغيظ على مكانته وعروض دنياه فعلت هنا كفة الفارس النبيل على كفة الرئيس الموتور ، وقال خالد يصف ذلك بعد اسلامه : « هممنا أن نغير عليه ثم لم يعزم لنا . وكان فيه خيرة . فاطلع على ما في أنفسنا من الهجوم به فصلى بأصحابه صلاة الخوف ، فوقع ذلك منى موقعا ، وقلت الرجل ممنوع »

الا أنه مع هذا بقى على لدده في خصومة الاسلام ومعاندة نبينه دون الاصغاء له والنظر اليه . فلما صالح النبي قريشا ودخل مكة في عمرة القضية كره خالد أن يشهد دخوله ، وتغيب من جوار البيت ريثما يعتمر المسلمون ويرجعون من حيث أتوا ، وهو معنى النظر من رؤية شيء لا يستحبه ولا يخلى بينه وبين حربه



كذلك كانت كراهة خالد للاسلام بعد كراهة أبيه

ومن وثباته هذه ، ولجأه ذاك ، يغلب على الظن أن كراهته كانت من نوع تلك الكراهة التي هي أقرب الى المبالغة والمناجرة منها الى المقت والضغينة ، لأنها لا تعنى صاحبها بالبعد من موضوعها كما تعنيه بالاشتغال به والعكوف

عليه ، كانه زميل المبارزة اللازم لاتمام الصراع واذكاء حرارته
وامتحان قدرة النفس عليه

وهذه الحرارة حركة جياشة في النفس وليست كذلك
الموات الذي تنقبض عليه النفس في الشيشوخة الفانية ،
ولا كذلك الضغن الذي يتغذى بقيحه المخزون في طبيعة
منفولة معدومة الخير والنجدة

مثل هذه الحركة الجياشة في النفس الحية الفتية كالسيل
المتدفق الاتى في واديه المحيط بجانيه ، يظل متدفعا اتيا
ما بقى في الوادى وما انهمر عليه الغيث من ضفتيه . ولكنه
الى امد لا محالة ، لانه سينتهى الى مفترق الوادى فلا يجيش
ولا يتدفع ، وسيقصر عنه الغيث فلا يربو ولا يترع .
وسيكون طريقه مع الوادى المفترق غير طريقه مع الوادى
المحصور

والوادى هنا قد افترق في مجراه شعبة بعد شعبة منذ
عهد غير قريب ، وان لم ينته بعد الى غاية المفترق في الارض
البراح

افترق الوادى قليلا حين انقسم بيت المغيرة بين معسكر
الجاهلية ومعسكر الاسلام ، واصبح في معسكر الاسلام
اخوان حبيبان الى خالد ، وهما الوليد وهشام

وافترق قليلا يوم اصفى ابوه الى القرآن فحدث آل بيته
عنه ذلك الحديث الذى اراهم واشجاهم ، فحسبوه قد صبا
عن دينه وسألوه من نبا محمد فاوشك أن يقع في قلبه انه
وحى السماء لو لم ينطق لسانه بأنه السحر الذى يفرق بين
الرجل وزوجه والوالد وبنيه والسيد ومولاه !

وافترق قليلا يوم شهد خالد سكيئة المسلمين في طريق
الحديبية وهم قائمون للصلاة ، وهجس في خاطره أن يغير
عليهم فصدته عنهم زهبة الصلاة ونخوة الفارس المحجم عن

القدر والغيلة ، ونرى في روعه أن لمحمد لسرا وأن الرجل
لمنوع

وكان لتلك الحركة الجياشة مدد من تحريك الكتاب
وتجريد الطلائع وإقامة الأرصاد والتقاء الجموع واتفاق
الكلمة بين المشركين على الحرب والعداء ، فإذا هم يتبلبلون
مختلفين بعد صلح الحديبية ، وإذا بصلح الحديبية يلقي
السلاح من الأيدي سنين طوالا لا لقاء فيها ولا نزال ، ولا
سورة من غضب ولا جدوة من غيظ مثار

ومات الشيوخ الذين كانوا يخيمون بوقارهم وجمودهم
على العقول

وتهميا الجو للسؤال : فيم هذا العداء والنضال ؟ أمن أجل
الكعبة ومحمد يرعاها ويحترم جوارها ويحج إليها ؟ أم من
أجل العصبة القومية وشرف محمد شرف العرب أجمعين ؟
أم من أجل الكرامة ومحمد يصون للعزیز كرامته ويعرف
للحسب قدره ؟

ومن أين لمحمد ذلك النصر المبين بعد النصر المبين ؟
ومن أين له تلك المهابة التي ترد عنه الأعداء والأعدى من
قريب ؟

ومن أين له ذلك العون الذي يدركه وقد أحاطت به
الهمزة من كل فج فإذا هوناصل منها وإذا هو الطارد الظافر
وقد خيل اليهم أنه الطريد المخدول ؟

ومن أين للمسلمين ذلك الأدب وذلك الخشوع ؟ ومن أين
للنبى بينهم ذلك السلطان الصاعد والصوت المسموع ؟

لقد رأهم ورآه سيد أهل الطائف عروة بن مسعود فعاد
إلى قومه يقول : « والله يا معشر قريش ! جئت كسرى في
ملكه وقيصر في عظمتهم فما رأيت ملكا في قومه مثل محمد بين

أصحابه ، وقد رأيت قوما لا يسلمونه بشيء أبدا فانظروا
رأيكم فإنه عرض عليكم رشدا ، فاقبلوا ما عرض عليكم فإني
لكم ناصح ، مع أنى أخاف ألا تنصروا عليه »

ولقد رأوه بعد ذلك في عمرة القضية لا يتوضأ وضوءا إلا
كاد المسلمون يقتتلون عليه ، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم
عنده ، ولا يحدون النظر إليه ، ورأوهم في نظامهم ومودتهم
وأصدق إيمانهم وخالص نياتهم ، فأكبروهم وعز عليهم أن
يصغروهم أو يتمادوا في الزرابة بهم والأمراض عنهم ،
وانقلبوا إلى أنفسهم فإذا هم مرتابون في الغد متدابرون في
المقصد ، منهزمون وهم الأكثرون ، محجمون وهم المتربصون .
فحانت الساعة لوزن الأمور ومراجعة الحاضر والمصير ،
وفرضت هذه المراجعة فرضا على كل ذي بصر بالقيادة في
معارك التضال أين تفشل وأين يتسع لها المجال ، فإذا
بالرجلين المفطورين على توجيه الوجه قد انتهيا إلى رأى
في مصير المعركة بين الجاهلية والإسلام في ساعة واحدة ،
وعلمتا أين يقف الدينان المتناجزان من حق النصر وعوارض
الهزيمة ، وهما عبقريا قريش في أصول القيادة على تباين
السن والمذهب والمزاج : خالد بن الوليد وعمرو بن العاص

وفي تلك الآونة التي يشتد فيها الجذب والدفع بين
الإنسان وقرارة ضميره وتجب فيها الموازنة وجوبا على كل
ضليع بها قادر عليها ، لم يترك خالد لنفسه ولم يلبث أن
جاءته الدعوة التي تنصره على عناده وتخرجه من تردده ،
وتستدعي منه ألبت العاجل بجوابه ، وتمسح القضاة
التي لعلها كانت تثنيه عن تلبية ضميره . . .

وتلك رسالة من أخيه يحملها له من كلام محمد ولا غنى
فيها عن جواب . . .

قال أخوه الوليد : « . . . أما بعد فإني لم أر أعجب من

ذهاب رأيك عن الاسلام ، وعقلك عقلك ، ومثل الاسلام
يجعله أحد ؟ »

ثم مضى يقول : سألني رسول الله صلى الله عليه وسلم
فقال : ابن خالد ! فقلت : يأتي الله به . فقال : ما مثل خالد
يجهل الاسلام ، ولو كان جعل نكاته وحده مع المسلمين
على المشركين لكان خيرا له ، ولقد مناه على غيره

فاستدرك يا أخى ما فاتك منه ، فقد فاتتك مواطن
صالحة »

تلك كانت هي الدعوة التي جاءت في أوانها

وكان اسلام خالد هو الجواب

فهي مراحلها الطبيعية التي لا بد له من عبورها بين
الجاهلية والاسلام : لم يكن طبيعيا ان يلبي اول دعوة وهو
هو في قريش صاحب معقلها المنيع

ولم يكن طبيعيا ان يلبي الدعوة في وطيس الحرب
ومحتمل العدا

ولم يكن طبيعيا ان يسكن هنيئة الى الموازنة وقد انقسم
بيته ثم انقسمت نفسه ثم جاءت الدعوة الكريمة في حينها
فلا يكون الاسلام جوابه المنظور

فهو قد انتقل من الاصرار ، الى القتال ، الى المواجهة ،
الى الموازنة ، الى التراجع ، الى الإجابة ، ولو عجل بواحدة
من هذه الخطوات لكانت هذه العجلة هي مكان العجب وهي
الامر المخالف لطبائع الأمور

وقد اسلفنا ان الاسلام كان في امر خالد ضربا من التسليم ،
فنعيد هنا انه تسليم القائد في معركة نفسية وليس بتسليم
القائد في معركة حسية وكفى ، ولهذا مناه ان يستغفر له
النبي ربه عن ماضيه ، ولم يكن قصاره ان يرحب به النبي

ويسلكه بين صحابته ومريديه . فقال : يا رسول الله !
قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معاندا من
الحق فادع الله أن يغفرها لي

فأجابه النبي عليه السلام : ان الاسلام يجب ما كان قبله
فعاد خالد يؤكد رجاءه ويقول : يا رسول الله ، وعلى
ذلك !

فدعا النبي ربه : اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع
فيه من صد عن سبيلك !

فرضى خالد واستراح

ولا يكون هذا الا تسليم القلب نفص عنه الكفر ، وليس
تسليم اليد رمت منها السلاح

وأحرى بنا أن نرجع الى كلام خالد لبيان تاريخ اسلامه
وسبب اهتدائه وتلخيص الاحاديث التي كاشف بها خلصاءه
قبل لحاقه بالنبي في المدينة ليسلم على يديه ، فانه أجمل
ذلك كله اجمالا يفصح عن تلك الاطوار النفسية التي
ساورتها وان لم يقصد الى الافصاح عنها ، ولعل صدورها
منه على البديهة أبين لها واقرب الى توكيدها من الشرح
المقصود

قال : « لما أراد الله بي من الخير ما أراد ، قذف في قلبي
حب الاسلام وحضرتي رشدي وقلبت : قد شهدت هذه
المواطن كلها على محمد فليس موطن اشهده الا وانصرف وانى
أرى في نفسي أنى موضع في غير شيء وأن محمدا سيظهر ،
فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الحديبية
خرجت في خيل المشركين فلقيت رسول الله صلى الله عليه
وسلم في أصحابه بعسفان ، فقممت وراءه وتعرضت له ،
فصلى بأصحابه الظهر اماما ، فهممنا أن نغير عليه . ثم لم

يعزم لنا . وكان فيه خيرة . فاطلع على ما في أنفسنا من الهجوم به فصلى بأصحابه العصر صلاة الخوف ، فوقع ذلك مني موقعا وقلت : الرجل ممنوع ! وافترقنا وعدل على سنن خليلنا ، فأخذ ذات اليمين ، فلما صالح قريشا بالحديبية ودافعته قريش بالراح قلت في نفسي : أى شيء بقى ؟ أين المذهب ؟ إلى النجاشي ؟ فقد اتبع محمدا وأصحابه آمنون عنده . فأخرج إلى هرقل ؟ فأخرج من ديني إلى نصرانية أو يهودية . أفاقيم في عجم أو أقيم في دارى فيمن بقى ؟

» وبينما أنا كذلك اذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم في عمرة القضية ، وتغيبت فلم أشهد دخوله ، وكان أخى الوليد قد دخل مع النبی صلى الله عليه وسلم في تلك العمرة ، فطلبنى فلم يجدنى . فكتب إلى كتابا فاذا فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فإني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الاسلام وعقلك عقلك ، ومثل الاسلام يجهله أحد ؟ وقد سألتني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أين خالد ؟ فقلت يأتى الله به . فقال : ما مثل خالد يجهل الاسلام ؟ ولو كان جعل نكايته وحده مع المسلمين على للمشركين لكان خيرا له ، ولقدمناه على غيره ، فاستدرك يا أخى ما فاتك منه ، فقد فاتتك مواطن صالحة »

فلما جاءنى كتابه نشطت للخروج وزادنى رغبة في الاسلام ، وسرتنى مقابلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأيت في النوم كأنى في بلاد ضيقة جذبة فخرجت إلى بلد أخضر واسع . فقلت : أن هذه الرؤيا حق ! فلما قدمت المدينة قلت لأذكرنها لأبى بكر ، فذكرتها فقال : هو مخرجك الذى هدأك للاسلام ، والضيق الذى كنت فيه الشرك . فلما اجتمعت الخروج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت : من أصحاب إلى محمد ؟ فلقيت صفوان بن أمية فقلت : أما

تري يا ابا وهب ؟ اما ترى ما نحن فيه ؟ انما نحن اكلة
 رأس ، وقد ظهر محمد على العرب والعجم . فلو قدمنا عليه
 فاتبعناه ؟ فان شرف محمد شرف لنا ، فأبى على أشد الاءاء ،
 وقال : لو لم يبق غيرى من قریش ما تبعته أبدا ، فافترقنا .
 وقلت : هذا رجل موتور يطلب وترا . قتل أبوه وأخوه
 بيدر . ولقيت عكرمة بن أبى جهل فقلت له مثل ما قلت
 لصفوان ، فقال لى مثل ما قال صفوان . . . فقلت له :
 فاطو ما ذكرت لك . . . وخرجت الى منزلى فأمرت بزاحلتى
 تخرج الى الى أنلقى عثمان بن أبى طلحة ، وهو صديق
 لى أذكر له ما أريد . ثم ذكرت من قتل من آباءه فكرهت
 أن أذكره ، ثم قلت : وما على وأنا راحل من ساعتى ؟
 فذكرت له ما صار الأمر اليه ، وقلت : انما نحن بمنزلة
 ثعلب فى جحر لو صب عليه ذنوب من ماء خرج ، وقلت له
 نحوا مما قتلته لصاحبيه ، فأسرع الاجابة . . . وادلجنا
 بسحرة فلم يطلع الفجر حتى التقينا بياجج - على ثمانية
 أميال من مكة - فغدونا حتى انتهينا الى الهدة ، فوجدنا
 عمرو بن العاص بها فقال : مرحبا بالقوم . قلنا : وبك .
 فقال : أين سيركم ؟ قلنا : ما أخرجك ؟ قال : فما الذى
 أخرجكم ؟ قلنا الدخول فى الاسلام واتباع محمد ، قال :
 وذلك الذى أقدمنى . فاصطحبنا جميعا حتى قدمنا المدينة ،
 فأنخنا بظاهر الحرة ركائبنا ، وأخبر بنا رسول الله صلى الله
 عليه وسلم فسر بنا . فلبست من صالح ثيابى ثم عمدت
 الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقينى أخى فقال :
 أسرع فان رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر بقدمك
 فسر بقدمك وهو ينتظركم ، فأسرعت المشى ، فطلعت
 فما زال يبتسم الى حتى وقفت عليه ، فسلمت عليه
 بالنبوة ، فرد على السلام بوجه طلق . فقلت : انى أشهد
 أن لا اله الا الله وأنت رسول الله . فقال : الحمد لله الذى

هذالك . قد كنت أرى لك عقلا ورجوت أن لا يسلمك الا
لغير »

الى أن قال : « وتقدم عمرو وعثمان فبايعا رسول الله
صلى الله عليه وسلم وكان قدومنا في صفر من سنة ثمان ،
فوالله ما كان رسول الله يوم أسلمت يعدل بى أحدا من
أصحابه فيما حزبه »



فهذا السرد البسيط قد يحوم بنا حول الحاجة الاولى
التي حركت قلب خالد الى الايمان بالدين الجديد ، ونحسب
انها قد خالجه يوم التقائه بالمسلمين في طريقهم الى مكة
قبيل صلح الحديبية . يوم رده سكينه الصلاة عن جموع
المسلمين وهم مسالون قانتون الى جوار البيت الحرام ، ويوم
بدا له أن هذا البيت العتيق غير خاسر شيئا بدموة محمد
وغلبة أصحابه على البلد الامين ، ويوم تراءى العنت من
قريش أن يدودوا ابن عبد المطلب عن كعبة آبائه واجداده
ويفسحوا طريقها للوافدين من حمير كما قال الحليس بن
علقمة الكناني سيد الاحابيش

فمنذ تلك الساعة تباعد ما بين خالد وبين الشرك وتقارب
ما بينه وبين الاسلام ، وطفق يتباعد من هناك ويتقارب
من هنا حتى كانت مبايعته النبي على ما تقدم قبل فتح
مكة بشهور

وفي تحقيق هذا التاريخ - تاريخ اسلامه - خلاف غير
قليل ، ولكن التاريخ الذي جاء في سرده المنسوب اليه
أرجح التواريخ جميعا لأسباب كثيرة ، ليس بأهونها ولا
أوهنها السبب النفساني الذي يقترن بغيره . فان الوقت
المشار اليه آنفا لهو أشبه الأوقات أن يتفق فيه قائد

الحرب وقائد السياسة على انتهاء الجولة بين قريش والاسلام . ولن نجد وقتا هو أولى باتفاق القائدين على اختياره للتسليم من ذلك الوقت الذي تواردت فيه الجواطر بين خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ... وبعده قضي الامر ولم يبق لمكة الا ان تفتح ابوابها طائفة لمن هجرته وهجرها تلك السنوات الثمان

وقد علم النبي عليه السلام جليلة الامر منذ قدم اليه الرفاق الثلاثة ، فقال لصحبه : رمتكم مكة بأفلاذ اكبادها ، وحق للمسلمين ان يحسبوا منذ تلك الساعة ان اولئك الرفاق الافلاذ قد جاءوهم بمقاليذ الكعبة ومسالك البلد الامين

فالواقع ان مكة قد اذنت بالفتح منذ فارقها خالد وعمرو وعثمان بن طلحة ، فاصبحت « المدينة المفتوحة » التي نعرفها في اصطلاح هذه الأيام ، واصبحت قضية مغليتها في وجه الدين الجديد قضية عبث وجبوت

ويخطيء الكاتبون الذين يزعمون انها فتحت بعد شهور لانها اخذت على غرة وزحف عليها جيش المسلمين في عشرة آلاف واهلها معجلون من الالهة والدفاع

فان النبي عليه السلام انما زحف عليها لان قريشا غدرت بعهدا وسطت على حلفائه من خزاعة . ثم اشفقت من القصاص فاوفدت ابا سفيان الى النبي يستأمنه ويسأله مد العهد الذي ابرم بينهم في صلح الحديبية ، فابى النبي ولم يجبه ، واحس المشركون منذ اللحظة الاولى ان المسلمين زاحفون عليهم لا محالة ، فلو ان قضية الشرك بقيت لها بقية من عزم لاستعدوا قبل السطو بخزاعة او بعده على الاثر واراخوا انفسهم من الوساطة في التأجيل والمراوغة ، ولكنه

التسليم الذي بدأ بإسلام خالد وصاحبيه قد تراخى به الوقت إلى أجله المعلوم



فلما جاءها المسلمون دخلوها آمنين على كثرة من بها من المشركين ، وتقدم النبي صلوات الله عليه في كتيبته الخضراء ، وتقدم سعد بن عباد والزبير بن العوام وخالد بن الوليد إلى أبوابها فدخلوها كل من الباب الذي وكل إليه ، ونهى النبي أصحابه عن القتال فيها فلم يحدث قط قتال إلا من صوب خالد بن الوليد ، لأن صفوان بن أمية وسهيل ابن عمر وعكرمة بن أبي جهل رصدوا للباب الذي وصل منه وجمعوا له جمعهم فمنعوه ورموه بالنبل وشهروا عليه السلاح ، فبطش بهم وقتل منهم قرابة ثلاثين أكثرهم من قریش وأقلهم من هذيل ، وولى السادة والأتباع بعد ذلك في هزيمة تكرأ

أهو تدبير أم مصادفة أحكم من التدبير ؟

خالد دون غيره تصادفه جنود رفقائه بالأمس في جيوش المشركين فيرمونه ويرميهم وقد كانوا معاً يرمون المسلمين عن قوس واحدة !

أنه حارب في صفوف الاسلام غرب الجزيرة وعرب العراق والشام ، وحارب في صفوف الاسلام جيوش الفرس والروم ، وحارب في صفوف الاسلام كل من برز لتلك الصفوف ، فما بال الجاهلية القرشية وحدها ينصرها على المسلمين ولا ينصر المسلمين عليها ؟ وأين يلتقى بها أن فاتة لقاءها في ذلك اليوم ؟ لقد لقيها أذن في ساعتها التي لا ساعة بعدها ، وقال النبي حين سمع بضربته : ألم أنه عن القتال ؟ قالوا : أنه

خالد قوتل فقاتل ! فقال : « قضاء الله خير » ... ثم قال :
« لا تغزى قریش بعد هذا اليوم الى يوم القيامة »
وغرائب الاتفاق هكذا تكون حيث تكون

مع النبي

أحاط بالنبي عليه السلام نخبة من كبار الرجال مختلفون
في الأعمار والأقدار ، مختلفون في البيئات والأحساب ،
مختلفون في الأمزجة والأخلاق ، مختلفون في ملكات العقول
وضروب الكفايات ، مختلفون في فهم الدين وبواعث الإسلام ،
فكان اختلافهم هذا آية من أصدق الآيات على رحابة الأفق
وتعدد الجوانب في نفس ذلك الإنسان العظيم ، وكان علمنا
بكل رجل من أولئك الرجال مزيداً من العلم بعظمة هاديهم
وسيدهم وموجه كل منهم في وجهته التي هو أصليها
وأقدر عليها ، وهم يلتقون أول الأمر وآخره في ذلك الينبوع
الفياض من تلك الفطرة العلوية التي فطرها الله لهداية الأمم
وقيادة الرجال ، بل لقيادة القواد الذين يروضون الأمم
والرجال

وما من عظيم من هؤلاء العظماء الا كان تقدير النبي إياه
بقدره الصحيح آية على عرفانه الشامل بخصائص النفوس
وسيره العميق لأغوار الطبائع والأفكار ، ولكن تقديره
لخالد بن الوليد على التخصيص كان آية الآيات في هذا
الباب ، لأنه عليه السلام لم يكبره أكابر السياسيين الذي
يستجمع القوة حواليه وينزل كل زعيم منزلة قومه
من الوفرة والعزة والجاه والعتاد ، وإنما أكبره لأنه عرف
أقصى مستطاعه قبل أن يظهر من مستطاعه كثير ، وسماه
« سيف الله » وبينه وبين الوقائع التي استحق بها ذلك
اللقب الجليل بضع سنوات ، بل سماه سيف الله وهو قافل
من معركة يتلقى المسلمون من عادوا منها بالنيك والتشهير ،

ويحثون في وجوههم التراب ويصيحون بهم أينما وجدوهم:
يا فرار يا فرار ٠٠٠ فررتم من سبيل الله !

لم يكبر النبي خالدا كما أكبر أبا سفيان تألفا له ورعيا
لمكانه في قومه ، ولكنه أكبره للصفة التي سيوصف بها في
تاريخ الاسلام بعد اعتدائه اليه ببضع سنوات

أكبره لأنه « سيف من سيوف الله » والناس لا يرون الا
الهيبة والارتداد ، ولم يكن النبي موليه القيادة في المعركة
التي ارتد منها بجيش المسلمين ، فيقول قائل انه ينصر
قائدا هو المستول عن اختياره ، وهو من ثم المستول عن
ارتداده أو فراره . ولكنه ولي آخرين وترك اختياره بعدهم
لمشيئة اخوانه في الجيش ، فاختاروه بعد ذلك مجمعين

كثير من رؤساء الاُمم يعرفون موضع الاكليل من رموس
القادة وهم منتصرون ظافرون ، ولكنه موضع يخفى جد
الحفاء على أنظار هؤلاء الكثيرين اذا لم يدلهم عليه ضياء النصر
والظفر ويبقى للعين الملهمة وحدها أن تراه في ظلام المحنة
والبلاء

وقد صاحب خالد النبي ثلاث سنوات ، وعهد اليه النبي
في كثير من الاعمال الصغيرة وأشركه في بعض الاعمال
الكبيرة : ومنها غزوة مؤتة وغزوة حنين وسرية بني جذيمة ،
فما من هذه الاعمال الكبيرة عمل واحد لم يتسع فيه المقال
للمشائىء والحاسد ولم ينظر اليه الناظر من وجهين متعادلين
تارة الى جانب العذر وتارة الى جانب الملام ، ولو أنه رضى الله
عنه قضى نحبه في السنة العاشرة للهجرة أو بعد ذلك بقليل
لعجب المؤرخون كيف سمي « سيف الله » وفيه استحق هذا
اللقب الذي لا يعلوه لقب في الاسلام ، ولكن النبي وحده
قد عرف قبل الحادية عشرة للهجرة أنه حقيق بذلك اللقب
على أولى مداه ، وسماه به قبل أن يهزم المرتدين وقبل أن

يهزم الفرس والروم وقبل أن يصون للإسلام جزيرة العرب
ويضم إليها العراق والشام ٠٠٠ وهى الاعمال الجسام التى
من أجلها يدعى اليوم سيف الاسلام

وانما هو البصر العلوى الذى يلمح هذه القدرة فى معدنها
حيث ينظر الناس فيرون خالدا مرتدا من غزوة مؤتة أو
مأخوذا مع الحيل وهى تولى فى أول المعركة من ميدان حنين،
أو صائعا فى سرية بنى جذيمة ما يبرا منه النبى عليه السلام
ولهذا ينبغي أن توزن هذه الاعمال بميزانها الصحيح
لإقامة خالد نفسه فى مقامه الصحيح ، فهى ولا ريب من
المعدن الذى نجمت منه حروب الردة وفتوح العراق والشام

١ - سرية مؤتة

وأول هذه الاعمال قد اشترك فيه متطوعا بعد اسلامه
بشهرين أو ثلاثة أشهر ، وهو سرية مؤتة التى سيرت الى
البلقاء

وكان سبب هذه الغزوة أن النبى عليه السلام أرسى
وفدا الى ذات الطلح بمقربة من الشام ليدعوهم الى الاسلام،
فقتلوا جميعا وعدتهم خمسة عشر الا رئيسهم نجى من القتل
وحده ولعلهم أبقوا عليه عمدا ليخبر بما رآه ، على دين
المتكئين فى ابلاغ مثلاتهم الى من يهدونه بالتمثيل والتكليل
وارسل عليه السلام الحارث بن عمير الازدى رسولا الى
هرقل فقتله شرحبيل بن عمرو الفسائى وهو فى الطريق

فأشفق عليه السلام من عقبي السكوت على كلتا الفلعتين
وهو غير مأمون ٠٠٠ وعلم أن قبائل الجزيرة العربية نفسها
قد أذعنّت للدعوة الجديدة ، ومنها المتربص للغدر متى قدر
عليه والموهون الايمان الذى لا يصبر على الاغراء والاستشارة،
فاذا استضعف الفسائيون وجيران الفسائيين شأن النبى

وافلتوا من جرائر فعلة كتلك الفعلة اللثيمة جراهم ذلك عاجلا على اقتحام الصحراء للنقمة من المسلمين ، فتهب القبائل لنصرتهم في طريقهم وتمدهم الدولة الرومانية بالمال والسلاح تقريرا لهيبتها في عيون أولئك البدو الذين جهلوا باسمها وهموا أنهم قادرون عليها ، اذ لا مطعم للدولة الرومانية في مقاتلة المسلمين واخضاع الجزيرة بغير هذه الوسيلة ، ولا سبيل الى تسير الجنود الرومانيين بنظامهم المعروف ومعداتهم الكثيرة المنازلة المسلمين في عقر دارهم من وراء المفاوز والتجود ، وتسيرهم بحرا الى شسواطىء الحجاز لا يغنيهم عن استعانة بأناس من العرب وأهل البادية ، وهم أولى أن يستعينوا على هذا المطلب باتباعهم الأقدمين فى تخوم الشام

فلم يجد عليه السلام مناصا من النار لاصحابه المقتولين ، وجرى لتأديب المعتدين جيشا صغيرا لا تتجاوز عدته ثلاثة آلاف ، وكان فى ذلك الجيش خالد بن الوليد ونخبة من أقدم الصحابة عهدا بالاسلام ، فلم يتول خالد قيادته لانه كان على الأرجح أحدثهم عهدا بالدخول فيه ، وتولاها زيد بن حارثة « فان أصيب فالرئيس جعفر بن أبى طالب ، فان أصيب فعبد الله بن رواحة ، فان أصيب فليترض المسلمون بينهم رجلا فليجعلوه عليهم »

وأمرهم عليه السلام أن يذهبوا الى حيث قتل الرسول فيدعوا القوم الى الاسلام ، فان أجابوا والا فالقتال ، وأوصاهم : « ألا تغدروا ولا تغفلوا ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة ولا كبيرا ولا فانيا ولا متعزلا بصومعة ، ولا تقربوا نخلا ولا تقطعوا شجرة ولا تهدموا بناء »

ولا شك أن هذا الجيش انما كان بالوصف العصرى « حملة تأديبية وبعثة استطلاع » يقاد على هذا الاعتبار ومن أجل

هذه الغاية، ولا يراد به بداهة أن يحطم قوة الدولة الرومانية
أو يفتح البلاد التي كانت يومئذ في يديها

فمضى لهذه الوجهة حتى نزل معانا وأقام بها ليلتين ،
وسمع المسلمون هناك أن هرقل قد عسكر بمآب في مائة
ألف من الروم ومائة ألف من قبائل لحم وجذام والقين وبهراء
وبلى على أهبة اللقاء

وقد يقع في الخاطر أن الروم علموا بمسير جيش المسلمين
فأعدوا هذه الجحافل الجرارة ثم سيروها الى تخوم الدولة في
مدى الايام التي مضت من خروج جيش المسلمين الى بلوغهم
أرض معان . وهو خاطر بعيد جد البعد لما هو معلوم من
صعوبة جمع الجيوش وتسييرها في مثل هذه السرعة ، ولما
يبدو من ضخامة هذه الجحافل بالقياس الى القوة الاسلامية
التي مهدوا للقاءها ، ولم يكن ليفوتهم أن يعلموا بحقيقتها
لو أنهم تلقوا الخبر بخروجها ممن رآها

والأرجح أن هرقل إنما كان في جموعه هناك في زيارة
الشكر التي نذر الله أن يؤديها اذا هو طفر بالفرس ورد منهم
صليب الكنيسة الكبرى الذي حملوه معهم يوم فتحوا بيت
المقدس ، وربما كان هرقل قد بارح بيت المقدس في ذلك
الحين وتخلفت جيوش ركابه لاداء هذه الفريضة معه أو
للقيام بمراسم الحفاوة في تلك الزيارة التاريخية

ورأى المسلمون أن مدد الروم حاضر على مقربة منهم ،
وأن الحرب بين عسكريين على هذا التفاوت البعيد عمل غير
مجد ولم يكن منظورا ولا مقصودا عند مسير الجيش من
المدينة ، فرجع بعضهم وتمهل الاكثرون منهم ليستأذنوا
النبي فيما يصنعون ، وغلبت حماسة الشاعر وحية الشهيد
على عبد الله بن رواحة فانتهر المترددين والمثبطين وقال لهم:
« يا قوم ! والله ان التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون :

الشهادة • وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ،
ما نقاتلهم الا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا فانما
هى إحدى الحسينين : اما ظهور واما شهادة ا »

فاستمعوا اليه ولم يشاموا بأية حال أن يرجعوا قبل
الإنهاء الى مقصدهم الذى خرجوا من أجله وهو ابلاغ الدعوة
الى قاتلى الرسول النبوى وإبراء الذمة اليهم قبل القصاص ،
ان وجب قصاص

فتقدموا من معان الى مؤتة على مسيرة نحو ليلتين ، وفيها
حصن للغسانيين يقيم به أمير منهم فى خدمة الرومان

واحتمى الأمير الغسانى منهم بحصنه ثلاثة أيام لعله كان
ينتظر فيها مددا أو أمرا من رؤسائه ، ثم التقى الفريقان على
مزرعة فى جوار البلدة ، فاستمات من بقى من جيش
المسلمين ، وحاربوا على ما يظهر وهم مفاجأون ، لأننا لم
نسمع فى أخبار الواقعة بتوجيه الدعوة أو الإجابة عليها ،
ولأن قائدا منهم أعجل عن طعامه ولم يذق القوت ساعات ،
فلما فوجئوا بالقتال لم تدع لهم المفاجأة من خطة غير خطة
الصمود للخطر والثبات فى وجهه مخافة المصاب الاكبر فى
هذه الحالة : وهو مصاب الذعر والدهشة والملاحقة بلا هوادة

وكأنما استحى القادة الثلاثة أن يرشحوا للموت ويرجعوا
دونه ابتغاء النجاة ، فقاتل زيد بن حارثة حتى قتل ، وأحاط
القوم بجعفر بن أبى طالب وهو يحمل اللواء ويثير من حوله
نخوة المسلمين ، فانحوا عليه بالضرب الدراك حتى قطعت
يمينه ثم قطعت شماله ثم ضم اللواء الى عضديه ولبت يناضل
عنه الى أن مات

ودعى ابن رواحة الى الرئاسة فجاءه ابن عم له بعرق من
لحم وقال له : « شد بهذا صلبك فانك قد لقيت فى أيامك
هذه ما لقيت » فأخذه من يده فانتهش منه نهشة ، ثم سمع

الحطمة فى ناحية المعترك فالقاء من يده وجرده سيفه وهو
يتشد :

يا نفس الا تقتلى تموتى هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت ان تفعل فعلهما هديت
فطلق يصول بين الصفوف ويهدر بالشعر حتى قتل
والمعركة فى أشدها

فما هى الا لحظة حتى دبر المسلمون أمر الرئاسة بوحى
البدية ونور العقيدة وهداية الفداء التى تهدي الى المصلحة
الكبرى وتغفل كل مصلحة دونها . واذا باللواء يأخذه فى
تلك اللحظة ثابت بن أقرم من بنى العجلان وينسأدى فى
أصحابه : « يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم » .
قالوا : « أنت » . قال : « لا » . ما أنا بفاعل » . فاتفقت
الكلمة على خالد بن الوليد فاذا هو يتولى القيادة فى حينها
ويصنع لساعته خير ما يصنع فى ذلك الحين

وخير ما يصنع فى ذلك الحين هو الارتداد المأمون
وهو أصعب من النصر فى بعض المآزق . لأن النصر
ميسور مع اجتماع العدة له واحتمال الشدة فيه . ولكن
الارتداد المأمون غير ميسور لكل من يريده وهو فى أضعف
الموقفين . الا أن تكون له خبرة بالقيادة تكافى الرجحان
فى قوة العدو الذى يرتد بين يديه

وأول شيء ينبغى أن يحتاط به لارتداده هو أن يوقع فى
روح عدوه أنه لا ينوى الارتداد بل ينوى الهجوم أو يقصد
الى الحيلة

فصمد فى الميدان حتى المساء

ثم بدل مواقف الجيش تحت الليل فنقل الميمنة الى اليسرة
ونقل اليسرة الى الميمنة وجعل الساقة فى موضع المقدمة

والمقدمة فى موضع الساقة ، ورصد من خلف الجيش طائفة يثيرون القبار ويكثرون الجلبة عند طلوع الصباح . فلما طلع الصباح على الفريقين اذا بكل طائفة من طوائف الفسانيين والروم ترى قبالتها وجوها غير الوجوه وأعلاما غير الاعلام ، واذا بالجلبة مع هذا الاختلاف فى الوجوه والأعلام توهم القوم أن مددا جديدا أقبل على جيش المسلمين ، وكانوا قد ذاقوا منهم أمر المذاق بغير مدد وهم مفاجأون ، فلما ذهب خالد يدافع القوم ويخاشى بجيشه لم يتبعوه حذرا من الكمين وتوقعا للإحاطة بهم من ورائهم ، وأبلى خالد فى هذه المدافعة والمخاشاة بلاء لم يبله قط فى غزواته الكبرى على كثرتها ، فاندقت فى يده تسعة سيوف ولم تصبر معه الا صفيحة يمانية ، وكان هذا التراجع المحمى بشجاعة المستميت غطاء صالحا للجيش الصغير فى مواجهة الجيش الكبير . فقفل الى المدينة بسلام ، وعرف خالد منذ ذلك اليوم بلقبه الذى أضفاه عليه النبى وهو سيف الله ، وعاد الناس يقولون مع النبى انهم الكرار باذن الله وليسوا بالفرار

وقد سمعنا فى عصورنا هذه بالالقباب الكبار تضفى على القادة لانهم نجحوا فى خطة ارتداد لا محيص منها . فتلك هى السنة النبوية تسبق النظم العصرية الى تقدير القائد البار بقيمة النجاح فى ارتداده كما تقدره بقيمة النجاح فى تقدمه وانتصاره . ولو أن خالدا ملكته فطرة المجازفة ولم تملكه فطرة القيادة البصيرة لساءت العقبى أيما سوء وتعرضت الدعوة الاسلامية لمحنة لا نعرف مداها الا الآن . ولربما تعرضت لهذه المحنة من جانب الجزيرة العربية قبل أن تتعرض لها من جانب الروم والفسانيين . لان الجيش قد خرج من المدينة تأديبا لانس متصلفين قتلوا رسولا واحدا أو قتلوا وفدا لا تجاوز عدته خمسة عشر . فاذا تورط هذا الجيش فى الزحف حتى اصطلم كله ولم يعد منه

أحد ، فكيف يكون وقع هذا المتأديب المعكوس في نفوس
البادية المتحفزة أو في نفوس أهل مكة ولما تسلم مفاتيحها
للمسلمين ؟ انه ليبعث السخرية والاستهانة من حيث أريدت
له الهيبة والمنعة ، وانه ليثير من الفتن ومساوى الظنون
ما يصعب استدراكه في سنين

ولكن الجيش قد عاد وأبلى في أعدائه وتسامعت الجزيرة
بعدد الجحافل الهرقلية التي حسبتها مرصدة له ولم تقدر
على تمزيقه ولا أصابت منه غير اثني عشر قتيلا منهم القادة
الثلاثة الذين ندبوا للشهادة قبل خروجه ، فالسرية أذن قد
نهضت بأمانتها ووقع في نفوس المسلمين من فرط الثقة
ببأسهم أنها كانت قادرة على جهاد أعظم من جهادها وثبات
أطول من ثباتها . وهي مغالاة في القوة والبأس خير من
المغالاة في الضعف والخور ، ولا ضرر منها ما شفعتها تلك
البصيرة العلوية التي تضع الأمور في نصابها ، وتصف
النجاح بصفاته ولو بدا للناس في ثياب الاخفاق

٢ - بنو جذيمة

وقد أثنى النبي على خالد في مهمة لم يندبه لها ولم
يرشحها لها مرشح غير كفاءته واتفاق رأى المسلمين فيها

ولكنه لامة وبريء من عمله حين أخطأ في مهمة ندبه لها
بعد فتح مكة وهي السرية التي قادها الى بنى جذيمة ليكشف
عن طويتهم ويدعوهم الى الاسلام

فبعد فتح مكة توجهت عنايته عليه السلام الى تطهير
البوادي المحيطة بها من عبادة الاصنام ، فأرسل سرايا
الى قبائلها لدعوتها والاستيثاق من نياتها . ومنها سرية
خالد الى بنى جذيمة في نحو ثلثمائة وخمسين من المهاجرين
والانصار وبنى سليم . أرسلهم دعاة ولم يأمرهم بقتال

وكان بنو جذيمة « شر حى فى الجاهلية يسمون لعنة الدم ، ومن قتلهم المفاكه بن المخيرة وأخوه عما خالد بن الوليد ، ووالد عبد الرحمن بن عوف ، ومالك بن الشريد وأخوته الثلاثة من بنى سليم فى موطن واحد » وغير هؤلاء من قبائل شتى

فلما أقبل عليهم خالد وعلموا أن بنى سليم معه لبسوا السلاح وركبوا للحرب وأبوا النزول . فسألهم أمسلمون أنتم ؟ فقبل أن بعضهم أجابه نعم ! وبعضهم أجابه : صيأنا صيأنا ! أى تركنا عبادة الأصنام ، ثم سألهم : فما بال السلاح عليكم ؟ قالوا : ان بيننا وبين قوم من العرب عداوة فخفنا أن تكونوهم فآخذنا السلاح ! فناداهم : ضعوا السلاح فان الناس قد أسلموا : فصاح بهم رجل منهم يقال له جحدم : ويلكم يا بنى جذيمة ! انه خالد ، والله ما بعد وضع السلاح الا الأسار وما بعد الأسار الا ضرب الاعناق ، والله لا أضع سلاحى أبدا . فما زالوا به حتى نزع سلاحه فيمن نزع وتفرق الآخرون . فأمر خالد بهم فكتفوا وعرضهم على السيف ، فأطاعه فى قتلهم بنو سليم ومن معه من الاعراب ، وأنكر عليه الانصار والمهاجرون أن يقتل أحدا غير مأمور من النبی علیه السلام بالقتال . ثم انتهى الخبر الى النبی فرفع يديه الى السماء وقال ثلاثا : « اللهم انى أبرأ اليك مما صنع خالد بن الوليد » وبعث بعلى بن أبى طالب الى بنى جذيمة فودى دماهم وما أصيب من أموالهم . . . قيل انه « كان يلى حتى ميلغة الكلب » ويسألهم : أبقي دم أو مال لم يود لكم ؟ فلما أكتفوا ورضوا فرق بينهم بقية المال « احتياطا لرسول الله »

وقد سأل رسول الله فتى من جذيمة انفلت اليه لينبئه نبأ خالد مع آل وذويه : هل أنكر عليه أحد ! قال نعم . قد أنكر عليه رجل أصفر ربعة ورجل طويل أحمر ، فاشتدت

مراجعتهما . وكان عمر بن الخطاب بمجلس رسول الله فقال :
أما الأول يا رسول الله فابنى عبد الله ، وأما الآخر فسالما
مولى بنى حذيفة

ويعزى الى خالد أنه استند فى قتالهم الى قول عبد الله بن
حذافة « ان رسول الله قد أمرك أن تقتلهم لامتناعهم عن
الاسلام »

وقد عم النكير على الحادث بين أجلاء الصحابة من حضر
منهم السرية ومن لم يحضرها ، واشتد عبد الرحمن بن عوف
حتى رمى خالدا بقتل القوم عمدا ليدرك ثار عميه اللذين
قتلها بنو جذيمة مع عوف أبى عبد الرحمن ورجل من بنى
أمية . وقصة مقتلهم أنهم كانوا قد خرجوا تجارا الى اليمن
ثم عادوا ومعهم مال رجل من بنى جذيمة قضى نحوه هناك
يحملونه الى ورثته وأهله . فاعترضهم جذمى فى رهط من
قبيلته يدعى خالد بن هشام وزعم أنه وارث المال وإحق به
من غيره . فمنعوه ينظرونه أن يصلوا بالمال الى أهل الميت .
فغضب وقتلهم بالرهط الذى معه فقتل عوفا والفاكه بن
المغيرة ثم عمد عبد الرحمن الى خالد بن هشام هذا فقتله
بثأر أبيه . وهمت قريش بغزو بنى جذيمة لولا أن مشى
بعض العقلاء بينهم بالصلح فتصالحوا على الدية والمال

ومن الاسراف أن يظن بخالد بن الوليد أنه تعمد قتل
أناس وهو يعلم أن دمهم حرام ويتخذ من مهمة النبى ذريعة
الى شفاء ترة قديمة . فادنى من ذلك الى القصص فى فهم
الحقيقة أن نبحث عن دواعى اللبس ودوافع الطبع التى تدفع
خالدا خاصة الى مثل هذا التصرف ، فإن كانت هذه الدواعى
وهذه الدوافع قائمة مفهومة فهى تفسير لما حدثت وفيها
الكفاية ، وإن لم تكن قائمة ولا مفهومة فهناك يتفسح مجال
الظنون والفروض لمن يشاء

وقد كانت دواعي اللبس ودوافع الطبع قائمة مفهومة في مقتلة بنى جذيمة . فان البوادي كلها حول مكة كانت تزخر بالشر وتتحفز للوقعة في تلك الاونة بعد تسليم مكة . فلم تمض ايام على سرية خالد حتى كانت بطون هوازن وثقيف وجشم وغيرها متجمعة في العدة الكاملة والعديد الوافر لمباغظة النبي وجمعه ، فاذا ارتاب خالد في نيات طائفة من اهل البادية مشهورين بالشراسة والغدر وهم يلقونه بالسلاح فله في ارتياحه وجه لا يخفى ، واذا اضيف الى ذلك تلجج القوم في اعلان اسلامهم والافضاء بنياتهم فليس اللبس هنا بعازب عن بال المتوجس في اشباه ذلك المقام

وقد يغنى الشعر والقصص في الكشف عن شعور القوم هنا ما ليس يغنيه التاريخ وتسلسل الرواية ، فمن كلام أحد الوهبيين في خطاب بنى جذيمة بن عامر يسوغ لنا ان نفهم انهم لم يكونوا متفقين على الاسلام والمسألة ، وذلك اذ يقول :

دعونا الى الاسلام والحق عامرا فما ذنبنا في عامر اذ تولت
وما ذنبنا في عامر لا ابا لهم لئن سفهت احلامهم ثم ضللت
وقال أحد الجذمين :

فلا قومنا ينهون عنا غواتهم ولا الداء من يوم الغميصاء ذاهب
وفي قصة رواها محمد بن اسحاق بن يسار - وهو من الثقات - شواهد على اصرار بنى جذيمة وعنادهم الى ما بعد الاسار والانذار ، وفحوى هذه القصة كما أثبتتها صاحب كتاب الاغانى حيث نقلت ببعض التصرف : « ان خالدا بن الوليد كان جالسا عند النبي صلى الله عليه وسلم فسئل عن غزوته بنى جذيمة فقال : ان اذن رسول الله صلى الله عليه وسلم تحدثت . فقال : تحدث . فقال : لقيناهم بالغميصاء عند وجه الصبح . فقاتلناهم حتى كاد وجه الشمس يغيب ، فمحننا الله اكثافهم فتبعناهم نطلبهم ، فاذا بغلام له ذوائب

على فرس ذنوب في أخريات القوم ، فبوات له الرمح فوضعت
 بين كتفيه ، فقال : لا اله • فقبضت عنه الرمح ، فقال : الا
 اللات أحسنت أو أسأت • فهمسته همسة أذريته وقيدا -
 أى مشرفا على الموت - ثم أخذته أسيرا فشددته وثاقا ، ثم
 كلمته فلم يكلمنى واستخبرته فلم يخبرنى ، فلما كان ببعض
 الطريق رأى نسوة من بنى جذيمة يسوق بهن المسلمون •
 فقال : أيا خالد أقلت : ما تشاء ؟ قال : هل أنت واقفى
 على هؤلاء النسوة ، فأتيت على أصحابى ففعلت وفيهن جارية
 تدعى حبشية ، فقال لها ناولينى يدك ، فساولته يدها فى
 ثوبها • فقال : أسلمى حبشش قبل نفاذ العيش ، فقالت :
 وأنت حييت عشرا أو تسعا وترا وثمانية تترى ،
 قال : « وتكاشدا الاشعار حتى قتل وأقبلت الجارية
 ووضعت رأسه فى حجرها وجعلت ترشفه وتبكي ... »
 الى آخر القصة فى الجزء السابع من الاغانى وهى على ظهور
 الاختراع فى بعضها لا تخلو من دلالة على موقف بنى جذيمة
 من سرية خالد

فإذا صح مع هذا أن خالدا تلقى من عبد الله بن حذافة
 السهمى أمرا بقتال بنى جذيمة نقلا عن النبى عليه السلام
 فهو خليف أن يعتمد على الفتوى من أمثاله لحداثة اسلامه
 وقلة علمه بفقهاء الدين وأحكامه ، وهى على أية حال رواية
 لا تفعل كل الاغفال فى صدد البحث عن أخبار هذه السرية
 والجوكله بعد هذا وذاك - سواء فى البادية أو فى مكة -
 هو جو الحرب والريبة وجو التربص والنفور ، فلا عجب أن
 تختلف فيه النوازع والآراء وأن تستطار فيه دواعى الشر
 والنقمة ، وأن يتطرق اليه اللبس وتتعذر فيه استبانة الوجه
 الصراح

وعند خالد دوافع الطبع الى جانب دواعى اللبس واختلاط
 الآراء ، وهى الدوافع التى قد نعد منها حداثة السن فى

ذلك الحين ، ومنها أنه تناول الموقف كما يتناوله القائد المطبوع على القتال في الصحراء ، ويحدث للقائد في هذا الموقف كثيراً أن يفرق بين ضربين من التسليم : هما تسليم المراوغة والختل وتسليم الاذعان والنصيحة ، ولا سيما تسليم العدو المتهم المتردد الذي يحيد عن الصراحة ويفند أناس منه مقال أناس آخرين .

ومن دوافع الطبع عند خالد تلك الصرامة التي ينشأ عليها كل من نشأ في مثل بيئته من الجاهلية ، وتلك الشدة التي تثيره اليها أعصابه ويوميء اليها تفزعه في نومه ومشاركة اخوته في عوارضها الموروثة على نحو من الانحاء ، وهي ولا ريب تلك الشدة التي عناها عمر بن الخطاب حين قال : « ان في سيف خالد لرهما » وهو من أعرف الناس به وأقربهم اليه ، وهي التي توقعها جحدم أخو بني جذيمة حين صاح بقومه محذراً إياهم من القاء السلاح : « ويلكم يا بني جذيمة . انه خالد . . . » كأنها خليقة معهوده منه لا تحتاج الى تأويل بعيد .

وندرت في تاريخ الحروب القديمة والحديثة حرب تدور على العقيدة الدينية أو الحمية الوطنية لا تحصى عليها فلتة من أشباه هذه الفلتات ، ولا يقع فيها نذير السيف حيث ينبغي أن يقع بشير السلام .

ولا يبعد أن يكون خالد قد ورث من عمومته جفوة لبني جذيمة فجنح به شعوره الى سوء الظن بهم وقلة الطمأنينة اليهم ، من حيث لا يقصد الترة ولا يعتمد الانتقام فكل هذا أقرب الى تعليل بطشته بالقوم من اتهامه بحمل أمانة النبي على دخل وسوء نية ، وهو الرجل الذي حارب أصدقاءه وأقرب الناس اليه على أبواب مكة ، وله ندحة عن حربهم لو تعدد اجتثاثها أو كان قصاراه أن يتعلل باللسان ولا يرجع الى صدق النية في اطاعة النبي عليه السلام

ومهما يلزم اللائمون أو يعذر العاذرون في هذه الزلة
فمقطع القول فيها بين المنصفين أنها خطأ وأن الإبقاء على
خالد بعدها صواب . لأن صواب الإبقاء على خدمته بعد
غزوة بنى جذيمة قد ظهر أيما ظهور في حروب الردة وحروب
الفرس والروم

وذلك مثل من تربية النبي عليه السلام لأفذاذ الرجال
ويتجلى تمام هذا المثال بإعطاء الرجال فرص المراجعة
والاصلاح في أمر يشبه الأمر الذي أخطأوا فيه ، وموقف
قريب من الموقف الذي عرضهم للملامة ، وهذا الذي توخاه
عليه السلام حين أرسل خالدًا دون غيره إلى بنى المصطلق -
وهم من بنى جذيمة - ليستخبر له خبرهم ويتبين الحق فيما
بلغه عن ارتدادهم ، وكان الوليد بن عقبة قد أخبره أنهم
ارتدوا عن الاسلام . فندب عليه السلام خالدًا « وأمره أن
يثبت ولا يعجل » فانطلق حتى أتاهم ليلا فبعث عيونه فلما
جاءوه أخبروه بأنهم متمسكون بالاسلام وسمعوا أذانهم
وصلاتهم ، فلما أصبحوا أتاهم خالد فرأى ما يعجبه فرجع
إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره ،

وهو مثل ينبيه عن كثير ، وقد ينبيه فيما ينبيه عنه أن
خالدًا لم يتعسف كل التعسف في شكه الأول ببنى جذيمة
على اختلاف بيوتهم ، لأن الشك فيهم ما زال يتكرر بعد ذلك
بشهور ، وما زال يدعو إلى تلقي الإشاعة عنهم وإيقاد الوفود
إليهم مرتين للتمحيص والاستخبار

٣ - غزوة حنين

ولم تمض أيام معدودات على مقتلة بنى جذيمة حتى لمس
خالد موضع الثقة من نفس النبي في حادث من أكبر حوادث
الاسلام وهو غزوة حنين
لمس هذه الثقة في غزوة حنين مرتين : مرة في اسناد قيادة

أخيل اليه على طليعة الجيش ، ومرة في سؤاله عنه وعنايته به بعد هزيمة أخيل مولية عند اشتباك الجمعين

وحق خالد في تلك الثقة انما يستبين من عرض الغزوة كلها لجلاء الاسباب التي أوقعت الهزيمة الاولى بجيش المسلمين ، ولا يد فيها لخالد من قريب أو بعيد . . . بل لعلها توحى اليها أن هزيمة خيله يومئذ انما كانت كصدد الأجسام للأجسام ضرورة مادية لا دخل فيها للعوامل النفسية ، أمام جارفة من الجوارف القوية ، تأخذ ما أمامها من انسان أو حيوان ومن شجاع أو جبان

فقد فتحت مكة والأعراب من حولها ثالرون محققون ، وعلموا يومئذ انها الواقعة لفاصلة وأنه لا مطمع بعدها في مكافحة النبي اذا تطاولت الايام على قيام دينه في البلد الحرام وموطن الكعبة والأصنام . فاجتمعت قبائل همدان من هوازن وثقيف وجشم ومشى بعضهم لبعض يقولون : « أن محمدا قد فرغ من قتال قومه ولا ناهية له عنا . فلنغزاه قبل أن يغزونا » واستنغفروا القبائل فلباهم من أقربائهم عدد كبير منهم بنو سعد بن بكر الذين تربى بينهم النبي وهو رضيع

وتولى قيادتهم مالك بن عوف النضري وهو فتى جرى في نحو الثلاثين يجمع الى غطرسة الامارة وحمية الفروسية حدة الشباب ولد للخصومة والعناد . . . فساق أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، وأمرهم اذا رأوا المسلمين « أن يكسروا جفون سيوفهم ثم يشدوا شدة رجل واحد » . فأما فوز وأما فناء . وصفت أخيل ثم الرجال المقاتلة ثم الإبل عليها النساء ثم صفت الغنم . ثم صفت النعم في حراسة ثلثا نفر والجيش مشتغل عنها

وسأله دريد بن الصمة حكيم القوم : ما لى أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير ؟ قال : أردت أن أجعل

خلف كل رجل أهله وماله ليقا تل عنهم ، فسخر دريد براه وقال له : رومي ضا ن والله ! وهل يرد المنهزم شيء ؟ انها - اى الحرب - ان كانت لك لم ينفعك الا رجل بسيفه ورمحه ، وان كانت عليك فضحت في اهلك ومالك ، فرماه مالك باخرف ولج في عناده ولمح في بنى هوازن ميلا الى كلام دريد فجمع به غضبه العارم وا قسم « لتطيعنى يا معشر هوازن او لا تكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري ! » فهي عزمة رجل مستميت لا يبالى ما يصنع بنفسه او بقومه في سبيل قهر المسلمين

ونمى الخبر الى النبى فخرج في الفين من اهل مكة حديثى العهد بالاسلام وعشرة آلا ف من اصحابه الذين قدموا معه من المدينة . وقيل انهم كانوا جميعا ثمانية آلا ف وأعوزه السلاح فاستعار من بعض المشركين دروعا فاعطوه ثلاثين او أربعين درعا - وقيل مائة درع - بما يكفيها من السلاح ، واستعار من ابن عمه نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ثلاثة آلا ف رمح ، فأعاره اياها وهو يقول : كانى انظر الى رماحك هذه تقصف ظهر المشركين وأخرج خالد على طليعة الجيش في مائة فارس من بنى سليم

قال الحارث بن مالك : خرجنا مع رسول الله ونحن حديثو عهد بالجاهلية فسرنا معه الى حنين ، وكانت لكفار قريش ومن سواهم من العرب شجرة عظيمة خضراء يقال لها ذات أنواط يأتونها كل سنة فيعلقون أسلحتهم عليها ويدبحون عندها ويعكفون عليها يوما . فرأينا ونحن نسير مع رسول الله سدره خضراء عظيمة ، فتنادينا من جنبات الطريق : يا رسول الله ! اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال رسول الله : (الله اكبر . قلتم - والذي نفسى بيده - كما قال قوم موسى لموسى : اجعل لنا الها كما لهم آلهة) !

وكان في الجيش كثير من أمثال هؤلاء المسلمين المحدثين ،
ومعهم في ساقية الجيش جمع من المشركين بين رجال ونساء
ينظرون ما يكون ، وكان فيهم أبو سفيان الذي قال حين
رأى بوادر الهزيمة : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر ! وفيهم
كندة بن الحنبل الذي صرخ شامتا متعجلا : ألا قد بطل
السحر اليوم ، وصرخ معه آخرون يقولون : اليوم ترجع
العرب إلى دين آبائهما

وكان الغالب على جيش المسلمين في خروجهم قلة
الاكتراث بعدوهم . فقال أبو بكر الصديق : لن تغلب اليوم
من قلة ! ونسبت هذه الكلمة إلى غيره ، ولكنها قيلت على
التحقيق لما جاء في القرآن الكريم : « اذ أمجبتكم كثرتكم فلم
تغن عنكم شيئا »

وتقدم الجيش حتى حضرت صلاة الظهر فجاء رجل فارس
فقال : يا رسول الله ! انى انطلقت بين أيديكم حتى طلعت
جبلًا فاذا أنا بهوازن عن بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم وشائهم
اجتمعوا إلى حنين . فتبسم رسول الله وقال : تلك غنيمة
المسلمين غدا إن شاء الله . ثم سال من يحرسنا الليلة ؟
قال أنس بن أبي مرثد : أنا يا رسول الله . فأمره عليه السلام
أن يستقبل الشعب حتى يكون في أعلاه ، وقال له : لا نفرن
من قبلك الليلة

فلما أصبحوا سال النبي : هل أحسستم فارسكم ؟ يعنى
ذلك الحارس المستطلع . قالوا : يا رسول الله ما أحسسنا .
فجعل عليه السلام يصلى ويلتفت إلى الشعب ، حتى اذا
قضى صلاته قال : أبشروا فقد جاء فارسكم ! فجعل ينظر
إلى خلال الشجر في الشعب واذا هو قد جاء حتى وقف
وقال : انى انطلقت حتى اذا كنت في أعلى هذا الشعب حيث
أمرنى رسول الله فلما أصبحت طلعت الشعبين كليهما

فنظرت فلم أر أحدا ، فسأله : هل نزلت الليلة ؟ قال لا .
إلا مصليا أو قاضيا حاجة

وروى مسلم من حديث عكرمة بن عمار عن أبياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه قال : « غرونا مع رسول الله حينئذ فلما واجهنا العدو تقدمت فاعلوا ثنية فاستقبلني رجل من المشركين فأرميه بسهم وتواري عنى فما دريت ما صنع ، ثم نظرت إلى القوم فإذا هم قد طلوعوا من ثنية أخرى ، فالتقوا هم وصحابة رسول الله فولى أصحاب رسول الله ، وأرجع منهزما »

وحدث أبو عبد الرحمن الفهرى قال : « كنا مع رسول الله في حنين فسرنا في يوم قانظ شديد الحر »

وروى محمد بن إسحاق بسنده : « خرج مالك بن عوف بمن معه إلى حنين فسبق رسول الله إليها فاعدوا وتهيأوا في مضائق الوادي وأحنائه وأقبل رسول الله وأصحابه حتى انحط بهم الوادي في عماية الصبح ، فلما انحط الناس ثارت في وجوههم الخيل فشدت عليهم وانكفأ الناس منهزمين لا يقبل أحد على أحد »

وفي روايات شتى أن كميناً من المشركين فاجأ المسلمين من شعبة في الوادي وقابلهم بنبل كأنه الجراد المنتشر ، « وكانوا رماة ... لا يكاد يسقط لهم سهم » فأدبرت الخيل وأدبر المقاتلة ورامها لا يلوون على شيء



وتلك جملة الأخبار عن بدء المعركة جمعناها من مصادر متعددة وأثبتنا بعضها بحروفها ، ويتبين من المعارضة بينها أن الهزيمة انكشفت من الهجمة الأولى لأن الخيل فوجئت في الطليعة بالنبل المنتشر من الكمين المستتر ، فولت منهزمة

في جفلة حيوانية معروفة في أشباه هذه المواقف ، وقديما ذكر الرواة عن حرب الاسكندر وأمراء الهند أن جفلة الفيلة من الحديد المحمي كانت هي سبب الهزيمة التي أصيب بها الهند فانقلبت الفيلة وبالا عليهم وقضت وهي مولية على الكثيرين من فرسانهم ومشاتهم ، تطا بعضهم وتوقع الآخرين وتدفع من حاول الثبات الى الفرار ، ولم تمض على حين يضع سنوات حتى لقي الفرس من فيلتهم في حرب المسلمين مثل هذا المصراع ومثل هذه الجفلة الحيوانية ، يوم تعمدها المسلمون بالضرب في الأعين والخياشيم

وقد حدث مثل هذا مرة أخرى في وقعة حنين هذه حين حاول المسلمون أن يكروا بعد الفرار « فصار الرجل يلوى بعيره فلا يقدر على ذلك لكثرة الأعراب المنهرمين ، فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه ويأخذ سيفه وترسه ويقتحم عن بعيره ويخلى سبيله ويؤم الصوت »

وهكذا بدأت الهزيمة بفرار الخيل ولحاق المشاة بهم واختلاط الخابل بالنابل بعد ذلك من الفريقين ، وتواتر القول أن الطلقاء الحديثين في الاسلام أدبروا منهزمين عمدا بعد الهزيمة الأولى . فأشاعوا الهزيمة فيمن معهم من المهاجرين والأنصار

ولقد أوشك أهل مكة أن يستقبلوا الأعراب المتقدمين على رضى من بعضهم لحنينهم الى الدين القديم ، وعلى كره من بعضهم لانفتهم من غلبة الأعراب على قريش ، لولا أن تغير مجرى القتال ودارت الدائرة على المشركين بعد لحظات ، وكان الفضل في ذلك لحركة جاءت من قبل المسلمين وحركة جاءت من معسكر الأعراب ، وكان مجيئهما في الموعد المقدور فاما الحركة التي جاءت من قبل المسلمين فهي بروز النبي عليه السلام بشخصه الكريم الى مقدمة الصفوف . فقد ثبت في ذلك الهول الجارف ثباتا يجل عن الوصف وأخذ

زمام المعركة كلها في يديه ليمضي وحده في القتال كيفما
تصير الأمور

وكان قد شهد المعركة على بغلته دلدل أو الشهباء ،
فانحاز الى اليمين سريعا ليستطيع التقدم بين تلك الصفوف
المتدفعة من مدبرين ومقبلين ، والتفت الى اليمين ونادى :
يا معشر الانصار ! ثم التفت الى اليسار ونادى كذلك يا معشر
الانصار ! فتسامعوا وتجاوبوا وعطفوا - كما وصفهم شاهدو
الموقف - عطفة الابل على اولادها ، واجتمع معهم حول
رسول الله مئات في لمحة عين

وتختلف الروايات في وصف هذه الحركة المجيدة من
مبداها ، فيقول بعضها أن الناس أدبروا يومئذ عن رسول
الله حتى بقى وحده ، ويقول بعضها : بل بقى معه نفر قليل
منهم أبو بكر وعمر وعلى والعباس والفضل ابنه وأبو سفيان
ابن الحارث وربيعه بن الحارث ومعتب بن أبي لهب وعبد الله
ابن مسعود وقليلون لا يتجاوزون الاثنى عشر . وجعل
رسول الله يقول :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

ثم أمر معه العباس أن يصرخ في الجيش : يا معشر
الانصار ! يا أهل السمرة ! يا أصحاب سورة البقرة ! يا بني
الخروج ! . وكان العباس رضي الله عنه جهر الصوت يسمع
صوته على مسافات بعيدة . . . وقيل أنه كان يقف على
سلع وينادى غلماناه بالغابة فيسمعونه وبينه وبينهم ثمانية
أميال

فلما جلجل صوته بهذا النداء اذا بالانصار والمهاجرين
يتجاوبون : يا لبيك يا لبيك ! ويسرعون الى ناحية الصوت
زرافات زرافات ، حتى تجمع منهم ثلاثمائة أو يزيد في
لحظات ، ثم شامت بين الألوف المؤلفة قدوة الكر والاقبال
بعد الفر والادبار ، فاذا الجيش بقضه وقضيضه يعدو الى

ساحة القتال ويرسل الخيل والمطايا ليملك كل منهم زمام يديه وقدميه . وهانت النفوس حتى استهدفت النساء للموت غير مباليات ، ومنهن من لم تكن على صحة في النظر كالعميصاء أم أنس بن مالك ، وكانت وهى حامل تحزم وبسطها ببرد لها وفى حزامها الخنجر لدفاع من يجترىء عليها وكان خالد بن الوليد قد ثنى عنان فرسه بعد التواءه فى الهجمة الأولى فلم يزل يقاتل حتى سقط مثقلا بالجراح لا يقوى على السير من مؤخرة رحله ، وهناك وجده النبی عليه السلام حين خرج يتفقد الجرحى بعد المعركة ، فبارك له وواساه

أما الحركة التى جاءت من قبل المشركين فاهانت على هزيمتهم فذلك أنهم قد غرتهم طلائع النصر فاقبلوا على الغنائم والأسلاب وشغل الكثيرون منهم بالتقاطها واستلابها عن مطاردة المدبرين . فاتفقت الحركتان فى وقت واحد لتحويل وجهة القتال

ويتبين من مقدمات المعركة كلها ومن بوادرها التى أجلناها أن الهزيمة فيها بعد الهجمة الأولى كانت ضرورة مادية لا محيد عنها ، وأنها ضرورة لم يكن لخالد يد فيها ولا طاقة بانقاذها ، لأن أسبابها كلها كانت من وراء تدبيره ومشيبته ، وهى كثيرة نجملها ما وسعنا الإجمال

فمنها أن الروح التى غلبت على جيش المسلمين فى أوائل المعركة كانت روح استهانة وقلة اكتراث وأن الروح التى غلبت على المشركين يومئذ كانت روح استمالة وعناد مع تقارب العدد بين الجيشين

وربما رجحت كفة المشركين فى الدروع والسلاح لما تقدم من حاجة النبی عليه السلام الى استعارة بعض الدروع والرماح

ومنها أن جيش المسلمين كان فيه كثير من الطلقاء ،
قد يبلغون الألفين وقد يزيدون ، وكانوا على دخل أو على
ضعف يبيتون. النية على خذلان النبی . فخذلوه وتبعهم
الناس

ومنها أن جيش المشركين سبق المسلمين الى مواقعه
فاختاروا حسن الاختيار وهجم في الوقت الذي ارتضاه

ومنها أن المسلمين كانوا يواجهون الشمس عند
الصباح واليوم قانظ لا تقوى فيه العيون على مواجهة
شعاعها ، فحبل بينهم وبين التثبيت والاحكام في مطلع
الصباح الى أن استوت الشمس في السماء

ومنها أن استطلاع المسلمين لم يكن على عادته من
البراعة والتيقن والاسراع . فقد أبطأ الفارس المستطلع حتى
التمسه النبی عليه السلام مرات . ثم جاء ولم يخبر بشيء ،
ثم ظهر الكمين المروء من حيث لا يروونه فأوقع بالخييل
وهي لا تحسب له أي حساب ، وهذا مع مهارة المشركين
في الرماية حتى قيل انهم لا يسقط لهم سهم

ومنها أن بنی سليم أصحاب الخييل التي تولاهما خالد
كانوا على قرابة من هوازن ، وعز عليهم أن يلاحقهم المسلمون
بعد استدارة المعركة فكانوا يقولون : ارفعوا القتل عن بنی
أمكم ! وكانوا مع هذا ضعاف الاسلام فسبقوا الى الردة بعد
موت النبی عليه السلام ، وما زالوا في موضع الظنة بعد
ذلك على عهد الخلفاء

فتقدير النبی عليه السلام خالد بن الوليد انما هو التقدير
الصحيح لأعمال السرايا والجيوش في مؤنة وبنی جديمة
وحنين ، وكانما هو تقويم الجوهری الخبير للجوهر النفيس
في معدنه الخفي غير مصنوع ولا مصقول ، وللتاريخ من بعده
تقويم الجوهر بما يضمن عليه من جمال الصوغ والضياء

ونعود هنا فنقول : ان تقدير النبي عليه السلام خالدا ابن الوليد لم يكن تقدير المجاملة لمكانه أو لما يرجى من قومه الأقوياء بنى مخزوم ، فانه عليه السلام لم يجامله في وصفه الذي طابقت حوادث الأيام ، ولم يجامله حين قدم عليه في القيادة لثلاثة من السابقين في الاسلام وترك اختياره بعدهم لاتفاق كلمة المسلمين ، بل لم يجامله حين خاصم عبد الرحمن بن عوف فغضب النبي عليه السلام وقال له معرضا : « يا خالد اذر اصحابي . لو كان لك احد ذهبا فأنفقته قيراطا قيراطا في سبيل الله لم تدرك غدوة أو روحة من غدوات أو روحات عبد الرحمن »

انما هو سيد السادة ومربي الرجال والابطال ، يقوم الاعمال بقيمتها وينزل العظماء في منازلهم ، ولا يمنعه أداء المجاملة ان يجامل بمقدار على حسب السوابق والاقدار



وقد تولى خالد للنبي أعمالا أخرى في سنوات حجه الثلاث ، ولكن الاعمال التي اخترناها هي اكبر أعماله في حياته عليه السلام ، وهي اقرب الاعمال الى وزن كفايته وتقويم معدنه وتمييز خلقه ، ولكنه اريد لكل عمل صغير كما اريد لكل عمل كبير ، وكانت للنبي عليه السلام نظرة في كل مهمة مقدورة ندبه اليها

فمن مهامه الصغيرة تسييره في ثلاثين فارسا لهدم « العزى » بعد فتح مكة ببضعة أيام ، وهي الصنم الذي كان ابوه يتمسح به وينحر له الابل والغنم ، وكان سدنته من بطون بني سليم الذين قاتلوا مع خالد في مقاوم شتى ، وقد كان معبود القبائل التي لقيها المسلمون في يوم حنين ، وأصله ثلاث شجرات بأرض نخلة يزعمون أن ربهم كان

يشتو بها لحر تهامة ويصيف باللات عند الطائف لبردها . . .
وظلت مخوفة الى ما بعد الاسلام . فيقول الكلبي « ان اللات
والعزى ومناة لكل منها شيطانة تكلمهم وتراءى للسدنة
من صنيع ابليس وامره » وهى التى ارجف من ارجف من
المشركين ان القرآن الكريم يرتضيها ويساومهم على عبادتها
ويجعلون منه قولهم « اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى .
تلك الغرائق العلا . وان شفاعتهن لترضى »

فهى مهمة مخوفة من وجهتها النفسية وان سهلت من
الوجهة الحربية ، فخرج خالد حتى انتهى اليها فهدمها ،
وجاء فى بعض الاقاويل انه « لما انتهى اليها جرد سيفه
فخرجت اليه امرأة سوداء مريانة ناشرة شعرها ، فجعل
السادن يصيح بها :

« امرى » اذا لم تقتلى المرء خالدا

فبئس ما عاجل او تنصرى
فاخذ خالدا « اقشعرار فى ظهره » وضربها بالسيف
فشقها . ثم لقي النبی فقال له : الحمد لله الذى اكرمنا بك
وانقذنا بك من الهلكة . لقد كنت ارى ابي ياتى العزى بخير
ماله من الابل والغنم فيذببحها للعزى ويقيم عندها ثلاثا ثم
ينصرف اليها مسرورا ، ونظرت الى ما مات عليه ابي والى
ذلك الراى الذى كان يعاش فى فضله وكيف خدع حتى صار
يذببح لما لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع . فقال عليه
السلام : « ان هذا الامر الى الله فمن يسره للهدى تيسر له
ومن يسره للضلالة كان فيها »

وكذلك بلغت العبرة الى خالد قبل ان تبلغ منه الى الناس



ومن المهام التى ندب لها فى حياة النبی مهمة يمتزج فيها

الشك بالامل والرفق بالشدة والترغيب بالترهيب ، لانها
بعثة الى اناس غلابين مجتمعى الراى اولى عصبية وبأس
وحنكة ولهم سمة يخالفون بها سمة العرب فى معظم أنحاء
الجزيرة وهم بنو الحارث بن كعب بنجران

أرسله اليهم وأمره ان يدعوهم الى الاسلام ثلاثة أيام ،
فان استجابوا قبل منهم وان لم يفعلوا فله ان يقاتلهم .
فخرج اليهم وبعث الركبان فيهم يبشرون بالدين الجديد
ويبصرونهم بفضائله وأحكامه ، فاستجابوا ودخلوا فيما
دعوا اليه

واقبل وفد من عظمائهم على النبى - بأمره عليه السلام
- فقال حين رآهم : من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال
الهند ؟ قيل : يا رسول الله ! هؤلاء رجال بنى الحارث بن
كعب . ثم سلموا ونطقوا بالشهادتين فقال لهم عليه السلام :
أنتم الذين اذا زجروا استقدموا ؟ واعادها ثلاثا وهم
لا يجيبون . فلما أعادها الرابعة قال زعيمهم يزيد بن
عبد المدان وفيه شوس وخيلاء : نعم يا رسول الله ! نحن
الذين اذا زجروا استقدموا ، وكررها أربعاً . فقال النبى :
لو أن خالداً لم يكتب لى أنكم أسلمتم ولم تقاتلوا لالقيت
رؤوسكم تحت أقدامكم . فانطلق ابن عبد المدان يقول :
أما والله ما حمدناك ولا حمدنا خالداً . قال : فمن حمدتم ؟
قالوا حمدنا الله عز وجل الذى هدانا بك يا رسول الله !

قال : صدقتم . ثم سألهم : بم كنتم تغلبون من قاتلكم
فى الجاهلية ؟ قالوا متغضبين : لم تكن نطلب أحداً . قال :
بلى ! كنتم تغلبون من قاتلكم . فعادوا يقولون : كنا نغلب
من قاتلنا يا رسول الله أنا كنا نجتمع ولا نتفرق ، ولا نبداً
أحداً بظلم »

قال صدقتم ، وقبلوا الى ديارهم فأرسل اليهم عمرو بن

حرم يفقههم في الدين ويعلمهم السنة ومعالم الاسلام ويأخذ
منهم الصدقات



وقد شهد خالد مع النبي عليه السلام غزوتين لم يجر
فيهما لقاء واشتباك ، وهما غزوة الطائف وغزوة تبوك
وكانت غزوة الطائف تنمة لوقعة حنين ، لاذت بها
القبائل بعد فرارها وامتنعت وراء أسوارها ، وجمعت من
الميرة ما يكفيها الى السنة القابلة ، فأحاط المسلمون بالأسوار
فرماهم المشركون بالنبل كأنه أسراب الطير ، وقتلوا وجرحوا
وهم متمكنون في أسوارهم ، فبرز خالد لهم يدعوهم الى
النزال ولا يجيبه أحد . ثم صاح به عبد ياليل عظيم ثقيف :
« لا ينزل منا أحد ولكن نقيم في حصننا فان فيه من الطعام
ما يكفينا سنين ، فان أقمت حتى يفنى هذا الطعام خرجنا
إليك بأسيافنا جميعا حتى نموت عن آخرنا »

فضربهم المسلمون بالمنجنيق وتقدم نفر من الصحابة
تحت دبابتين من جلود البقر يفتحون ثغرة في الحصن .
فأرسل عليهم المشركون سكك الحديد المحمأة فأحرقت
الدبابتين وصدتهم عن السور

وأمر عليه السلام بكرومهم ونخيلهم فقطعت وهم
يصيحون : دعها لله والرحم ! فقال عليه السلام : أدمها لله
والرحم ، واستشار نوفل بن معاوية الديلي في أمرهم
فأجابه : « يا رسول الله ! تلعب في جحر أن أقمت أخذته وان
تركته لم يضرك »

وفي الطريق قسم النبي غنائم حنين قسمة لم ترض
اناسا ، فغضب رجل من المنافقين وصاح في حضرته : هذه
قسمة بما أريد بها وجه الله ! فأحمر وجهه عليه السلام

غضبوا وقال له : ويحك من يعدل اذا لم اعدل ؟ . ووثب خالد وعمر يستأذناناه في ضرب عنقه فأبى وقال : « لا . لعله أن يكون يصلى . فقال خالد : وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه ؟ فعاد النبي يقول : انى لم أؤمر أن انقب عن قلوب الناس ولا أن أشق عن بطونهم . . . »

أما غزوة تبوك فقد خرج لها النبي عليه السلام الى حدود الروم سنة تسع للهجرة في أعظم جيش شهده المسلمون في حياته . ومن ثم أمر خالد أن يذهب الى دومة الجندل ليأتيه بالأكيدر أميرها ، لأنه كان في وسط الطريق بين الحجاز والعراق والشام عينا للروم وحربا للقوافل يدين للقسطنطينية بالعقيدة وبالطاعة . ومن خبرة النبي عليه السلام بالقبائل وأحوالها والأمراء وعاداتهم أنه قال لخالد : ستجده يصيد البقر ! فكان كما قال

وقد ذهب خالد الى الدومة في أربعمائة وعشرين فارسا فاقتحم الحصن واضطر من فيه الى التسليم ومنهم الأمير . وجاء به الى المدينة فصالحه النبي على الجزية وعاهده على الأمان



وثم بعثة من غير هذا الباب ندب لها خالد ولم يندب لمثلها قط في عهد النبي ولا عهد خلفائه ، وتلك بعثته الى بنى مراد وزبيد وملحج باليمن يدموهم الى الكتاب ويعلمهم شريعته وأحكامه

قيل انه مكث فيهم أشهرا يدموهم فلا يجيبونه ، وانه عليه السلام بعث بعده على بن أبي طالب وأمره أن يقفل خالدا ومن معه فان أراد أحد أن يعقب معه تركه ولا غرابة عندنا في هذا الذي حدث - ان كان قد حدث

على الوجه الذي ذكره الرواة — فان خالدا لم يسمع من القرآن ولا من فقه الدين كما سمع الصحابة ممن عاشروا النبي سنين بعد سنين ، وانما هي سنوات قلائل لم يفرغ فيها الا بضعة أشهر من الغزوات والبعوث . وقد أم الناس بالحيرة — في خلافة الصديق — فقرأ من سور شتى ، ثم سلم والتفت الى الناس معتذرا يقول : شغلنى الجهاد عن كثير من قراءة القرآن !

ويجوز أن النبي أرسله في هذه البعثة ليديره على الدعوة وليفرغ بعض وقته للمدارسة والمذاكرة بهداية من معه من فقهاء الصحابة ، ويجوز أنه عليه السلام تعمد أن يرصده للبطل المشهور عمرو بن معديكرب — فارس زبيد — ندا له يكف من غربه ويلزمه التدبر في عاقبة نكته وانتقاضه . وفي تواريخ البعثة اضطراب قد يشكك القارئ في بعض وقائعها وأغراضها فيجوز أيضا أن البعثة وفقت بعض التوفيق أو كل التوفيق ، وأن الرواة قد فاتهم في هذا الصدد شيء كثير أو قليل من التحقيق

لكنها كائنا ما كان مصيرها ومصير عشر من أمثالها لو ندب الى عشر من أمثالها — لتسقطن من سيرة خالد ويبقين له ما هو حسبه من البطولة وصدق البلاء . وليكونن بها أو بغيرها خطيبا يبين من منبر التاريخ ، وان لم يحمله قط منبر التعليم

عروب الرقة

لتفصيل الكلام في حروب الردة مكان غير هذا المكان
لأننا نتناول منها في هذا الكتاب ما يتصل بأعمال خالد
وتقديم خصائصه ومزاياه . وندع ما عدا ذلك لمكانه من
الشروح والمطولات

وقد رجعت حروب الردة - كجميع الثورات والأحداث
الاجتماعية - الى أسباب مختلفة ولم تنحصر في سبب واحد،
وربما كان من أسبابها ما خفى على المؤرخين ولا يزال خافيا
علينا حتى الآن ، ولكننا نعتقد أن الأسباب الآتية كافية
لتفسيرها وتفسير نصيب خالد منها، على القدر اللازم لفهمها
وتصحيح دلالتها

فمن أسباب حرب الردة تمرد القبائل القوية على قريش.
واقواها القبائل التي تنتمى الى ربيعة دون مضر. فانها كانت
تتعصب لنسبها وتأنف أن تملوها قريش بفضائل النبوة
والرئاسة ، وصرح بذلك طليحة النمرى حين لقي مسيلمة
زعيم بنى حنيفة ومدعى النبوة في اليمامة فقال : أشهد أنك
كذاب . . . لكن كذاب ربيعة أحب اليّنا من كذاب مضر .
وكان مسيلمة هذا يقول : انه أراد أن يأخذ نصف الأرض
ويترك نصفها لقريش « ولكن قريشا قوم لا يعدلون ! »

ولم تكن المنافسة بين قبائل مضر أخف ولا أضعف من
المنافسة بين مضر وربيعة ، فان المنافسة في الأقربين أشد
وأبظ من المنافسة بين الأبعدين كما هو المعهود في كل قبيل .
فكانت ذبيان وعيس وبنو أسد تكره من سيادة القرشيين
ما تكرهه القبائل البعيدة . وروى عن عيينة بن حصن مثملا
روى عن طليحة النمرى اذ قال يؤيد المتنبئ طليحة بن خويلد :

«نبي من الحليين أحب الينا من نبي من قریش» ويعنى بالحليين بنى أسد وبنى غطفان

وكانت قریش تقابل مثل هذه النفرة بمثلها في أيام خصومتها للنبي وثورتها عليه . فكان صفوان بن أمية مشركا في وقعة حنين ، ولكنه أنكر من أخيه أن يفرح بنصر هوازن وحلفائها ، وصاح به وهزيمة المسلمين على أشدها : «أسكت فض الله فاك ! أبشرني بظهور الأعراب ! والله لأن يربنى رجل من قریش أحب الى من أن يربنى رجل من هوازن »

ومن أسباب الردة ثورة البادية على الحاضرة . فما زال من داب البادية في كل زمان أن تنقم على الحاضرة سلطانها ونعمتها ، ولم يشد عن هذه السنة الا بضع قبائل فيما بين مكة والمدينة كانت تخشى من سطوة القبائل الكبرى ما ليست تخشاه من سطوة المدينتين ، وكانت تحتكم في خصوماتها الى وساطة أهل مكة تارة وأهل المدينة تارة أخرى ، فتؤثر مودة الجوار بعد طول الخبرة وطول العشرة على بلاء الفتنة فيما بينها اذا زال سلطان مكة والمدينة ، ولزم بعض هذه القبائل الحيدة يتربص ما يكون ، وأسرع بعضها الى تلبية الدعوة فحارب في صفوف المسلمين

ومن أسباب الردة نجاح الدعوة المحمدية بعد فتح مكة ، فان هذا النجاح أطمع بعض القادة من رؤساء العشائر في بلوغ مثل هذا المطلب الجليل

فما هو الا ان استقر الأمر لمحمد في الحجاز وما حوله حتى اشرابت الأعناق للاقتداء به وظن من ظن أنهم قادرون على ما قدر عليه وان المسألة كلها مسألة كهانة وأسجاع وقيادة واتباع ، وقصرت عقولهم عن ادراك سر القوة الاصيلية التي هيأت لمحمد كل ذلك التوفيق العظيم ، وهي أن دعوته مطلوبة لاصلاح الأخلاق والمعاملات ونظم الحكم والمعيشة في العالم كله وليست مجرد نهضة تنتهز لظهور رئيس مطاع وتحقيق

مجد موموق . فنجم الدعاة في حياة النبي باليمن ونجد
والبحرين لمجاراة الدعوة بالحجاز، وجاءت وفاته عليه السلام
إثر ذلك فجرأتهم على المجاهرة بالعصيان

ومن الأسباب التي أثارت القبائل فريضة الزكاة التي
فرضها الاسلام على كل مستطيع، فانها أثارتهم لضئفهم بالمال
وانفتهم من الاتاوة ، وخالفت ما ألفوه حتى من أكاسرة الفرس
وقياصرة الروم ، لانهم كانوا يأخذون من هؤلاء أكثر مما
يعطون ، وكانت الاتاوات التي يرضخون عنها أقل من المنح
التي توزع عليهم بين حين وحين ، باسم الخلع أو الهبات

بل كان منهم من ضاق ذرعا بالفرائض فأسقطها الدعاة
عنهم . جميعا وأغفوه من كل فريضة ، ومنهم من أنف من
السجود فقال لهم طليحة الأسدي : « ان الله لا يصنع بتعغير
وجوهكم ، فاذكروا الله قياما ، فان الرغبة فوق الصريح »

: ويلحق بهذا . وأشباهه أن الدين الجديد لم ترسخ جذوره
بعد في نفوس الأقصين من أعراب البادية ، ولم تهجر طباعهم
بعد عادات الجاهلية في العبادة والمعيشة ، وقد كان المسلمون
أعلم بهم من أن يدهمهم داهم بالمفاجأة من قبلهم ، لانهم
عرفوا طويتهم قبل ذلك من القرآن الكريم : « قالت الأعراب
آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في
قلوبكم »

وليس أقرب الى المألوف من تكوص هؤلاء على أعقابهم
بعد موت النبي وشيوع الفتنة والاضطراب عن إيمانهم
وشمالهم ، مع إفراء الدعاة وفرط الجنين الى القديم وهو
منهم جد قريب



ولمة سبب لا يغفل ولو لم تذكره التواريخ بالسند القاطع

والنص الصريح : وهو الدسيسة الماثوثة من الدول الأجنبية :
كل منها بما يوائمها وبما هي قادرة عليه

.. وهذا يفسر لنا أن النبوة ظهرت من العرب أولياء فارس
ولم تظهر من العرب أولياء الروم ، وهم الفساسنة ومن
جاورهم من قبائل التخوم السورية ، فهؤلاء يدينون
بالمسيحية فلم يظهر بينهم مدع أو مدعية للنبوة ، ولكنهم
ناوشوا المسلمين على التخوم مناوشة الحرب والوقعة .
أما التغلبون على مقربة من فارس فلم يكن عليهم حرج من
دولتهم التي تحميمهم أن يحاربوا دين العرب الجديد بدین
آخر ، ولم يجدوا حرجا من عقيدتهم أن يسمعوها إلى المنتبئين
والتنبئات ، لأن عقيدتهم هذه كانت مزيجا من المجوسية
والوثنية ومسحة من المسيحية لا يرضاها اتباع كتاب .
فلما ظهرت بينهم سجاج وسلكت في التبشير بدينها العجيب
مسلكا لا يستريح العقل إلى تفسيره بغير تفسير واحد ، وهو
أنها كانت تعمل لغرض سياسي وباغراء دولة أجنبية ، ولا
تعمل لغرض ديني ولا بدافع من عندها وعند ذويها

فسجاج هذه كانت من بنى يربوع أقرب بطون بنى تميم
إلى نفوذ فارس ، ثم تزوجت في أخوالها التغلبيين بالعراق ،
ثم انحدرت من ثم إلى أرض بنى تميم مبشرة بدین جديد
بعد موت النبي عليه السلام ، وانحدر معها جيش كثيف
لا يستهان بأمره ، فلما دعت قومها الأولين بنى يربوع إلى
هذا الدين طلبوا إليها - على ما يظهر - أن تؤلف بطون بنى
تميم جميعا إلى دينها قبل الزحف على الحجاز لمحاربة
المسلمين . فلم يتفق بنو تميم على رأى . وتركتهم إلى
الإمامة حيث كان مسيلمة الكذاب يتحفز كذلك للخروج على
الإسلام ، ولم يكن أوفق لهما بهذه المثابة من التعاهد على
غرض واحد وهو الزحف على الحجاز ، ولكنها رجعت إلى
قومها وهي تقول : « أنها وجدته على الحق فتزوجته » وأنه

سيؤدي لها نصف غلات اليمامة وقد استنجزته شطر هذا
النصف قبل مرجعها الى بلادها

فلماذا خالفها بنو تميم ؟ ولماذا خالفها مسيلمة ؟ ولماذا
انحدرت ثم عادت أن كان همها التبشير بدين جديد ؟ ولماذا
هابها مسيلمة وأعطاهما الجزية وهو يأنف أن يعطيها خليفة
المسلمين ويجرد لحربه جيشا قيل أن عدته أربعون ألفا وقيل
بل ستون وأن يقل عن عشرين ألفا في تقدير أحد من المؤرخين ؟
كل أولئك لغز سخيف لا يقبله العقل الا على وجه واحد ،
وهو أنها كانت داعية الفرس لتحريض العرب على الثورة ،
ومن ثم اصاب ما اصاب من الاخفاق أو النجاح

ويعزز ذلك أنها لقيت في رحلتها عملاء فارس جميعا من
أبناء البوادي العراقية والنجدية ، وأنها عملت حيث كان
الأكاسرة حريصين على تجديد نفوذهم القديم

قال ابن الكلبي : « كانت تهر كسرى بذرقة - أي تحرس -
من المدائن حتى تدفع الى النعمان بن المنذر بالحيرة ، والنعمان
يبدرقها بخفراء من بنى ربيعة حتى تدفع الى هوذة بن علي
الحنفي باليمامة ، فيبدرقها حتى يخرجها من أرض بنى
حنيفة ، وتجعل لهم جعالة ، فتسير بها الى أن تبلغ اليمن »

وعلى هذا تكون مهمة سجاح قد وضحت على هذه الصورة
التي لا لغز فيها ولا تناقض بين أجزائها

ويكون بنو تميم وبنو حنيفة وغيرهم قد هاملوها المعاملة
الواجبة لمن يعتز بصولة الأكاسرة ويخلف المناذرة في وقت
واحد

فقد هدمت وقعة ذي قار - التي مر ذكرها بأول هذا
الكتاب - هيبة الأكاسرة في الجزيرة العربية

وساء ظن الأكاسرة بالمناذرة - ملوك الحيرة - الذين كانوا
صنائع فارس وكانت فارس تعول عليهم في اخضاع البادية

القريبة والبعيدة ، فنكلوا بهم وعصفوا بدولتهم قبيل ذلك
بقليل . فارسل الأكاسرة أميرة تغلبية لتخلف المناذرة في هذه
المهمة القديمة

وكان اختيارها من بنى تغلب أدنى شيء الى المعقول
والمنظور ، لانهم أعداء بنى بكر الذين تصدوا لحرب الفرس
وهزموهم في وقعة ذي قار

ثم كان تردد بنى تميم وبنى حنيفة في معاملتها أدنى شيء
كذلك الى المعقول والمنظور ، لانهم أصدقاء المناذرة من زمن
قديم ، فلا هم راضون بهوانهم ولا هم قادرون على اغضاب
فارس . وغاية ما في وسعهم أن يصرفوا سجاج راضية
ويقنعوها بأن الثورة على الاسلام حاصلة ، ويكون عملهم
جميعا معقولا على هذا التفسير حيث يعوزه الفهم والوضوح
على كل تفسير سواه

بل نحن نخطر هذا في أخلاذنا فنفهم كيف اشتد التغلبيون
في حرب المسلمين وكيف اشتد المسلمون في حرب التغلبيين
يوم اشتبكت جيوش الاسلام وجيوش الأكاسرة على أثر
حروب الردة ، فهي شدة لها أوائلها ونهاية جاءت بعد
بداية . وكانت رحلة سجاج الى الجزيرة العربية هي أولى
الطلائع في حرب الأكاسرة والاسلام



من جملة هذه الأسباب يجوز لنا أن نقول : ان المدينة
ومكة وجيرتهما كانت تقف وحدها في وجه البادية العربية
بأسرها ، ومن وراء البادية دول كبيرة تنصرها ولا تنصر
المدينتين في هذه المعركة

وقد كانت حروب الردة طائفا من الشر لا شك فيه
ولكنها ولا ريب لم تكن شرا محضا خلوا من جانب المصلحة

والفائدة ، لان هذه الحرب وحدث عناصر المدينتين وهما وشيكتان ان تفترقا كل مفترق ، فاجتمعت منهن قوة تكافئ كل قوة في البادية على انفراد ، ويسر لهما من ثم ان تأخذا من البادية قوة تفل قوى الدول الواقعة لهما بمرصد قريب

ولولا حروب الردة لكان الخلاف بين المهاجرين والانصار خليقا ان يتشعب ويستفحل ، وكان الانصار فيما بينهم مختلفين شيعتين كبيرتين ثم شيعا صفارا في كل من الشيفتين ، وكذلك كان المهاجرون من هاشميين وأمويين ومن سائر بطون قريش ، فان بنى هاشم على انفرادهم لم يجتمعوا بينهم الى كلمة ، ولم يكن لهم مطمع في الوفاق بينهم وبين بطون قريش الاخرى ، ودع منك الوفاق بين طوائف المسلمين اجمعين

فلما توفرت البادية للوثوب على المدينة احس المسلمون جميعا انهم فريق واحد ، مهدد بخطر واحد ، فانفقوا بوحي البداة التي لا موضع فيها لتعمل التفكير وحيلة الحضر والتحريض ، ولبثوا متفقين ما كانوا بحاجة الى الوفاق وما كان الشقاق بينهم مرهوب العواقب محذور الأخطار

ومنى من القول أن خالد بن الوليد كان في وسط هذه الحومة بكل داع من دواعيه النفسية والعقلية . بداعي العقيدة الاسلامية ، وداعي العصبية القرشية ، وداعي النشأة الحضرية ، وداعي القيادة العسكرية ، التي قدمته الى طليعة المجاهدين في هذا الميدان

فشهد حروب الردة من أوائلها الى نهاياتها ، وقسمت له الحصاة الكبرى في أهم وقائعها وأعصب أوقاتها ، ومنها وقعة واحدة ترجع بها جميعا وتعد من حروب الاسلام الحاسمة في صدر تاريخه ، وهي وقعة اليمامة التي انتصر فيها بعد هزيمة قائدتين

وتنقسم أعمال خالد في حروب الردة الى قسمين : احدهما

الذى اشترك فيه مع كبار الصحابة بقيادة الخليفة فى المدينة وما جاورها ، والآخر الذى استقل به أو استقل على الأصح بناحيته العسكرية ، وهو أعظم عمليه فى هذه الحروب



توفى النبى عليه السلام وجيش أسامة بن زيد فى الجرف من أرباض المدينة ، والفتنة على مقربة منها تتطلع برؤوسها . فعاد فريق منه الى المدينة وأشار بعض الصحابة على الخليفة أن يرجى مسيرته ويستبقه عنده فترة من الزمن ريثما يطمئن فى عقر داره خلال تلك الغاشية . فأبى أشد الأباء أن يخلف وصية للنبى أوصى بها فى مرض وفاته ، وقال قولته المأثورة : « والله لا أحل عقدة عقدها رسول الله ، ولو أن الطير تخطفتنا والسباع من حول المدينة ، ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين لأجهز جيش أسامة » ونادى فى المسلمين : لیتم بعث أسامة ! الا لا يبقين بالمدينة أحد من جند أسامة الا خرج الى عسكره بالجرف وسار الجيش الى وجهته كما أراد

فخلت المدينة من الجند الا بضع مئات من رجال المهاجرين والأنصار . ودرى أقرب المرتدين اليها بحالها من العزلة وقلة الحامية فزحفوا عليها وظنوا أنهم اذا هددوها وهى عزلاء وتوسلوا بالمفاوضة والوساطة فى الوقت نفسه رجع الخليفة عن عناده وقبل منهم ما ساوموه عليه ، وهو إقامة الفرائض كلها والاعفاء من الزكاة . . . أو من الجزية كما سموها !

زحفت مئات من عبس وذبيان وفزارة على المدينة، وثرکوا شطرا من جموعهم فى الربرة حيث تلتقى طرق كثيرة على مسافة سبعين أو ثمانين ميلا من المدينة ، وساروا بالشرط الآخر الى ذى حسا وذى القصة وهى أقرب محلة اليها .

ثم أوفدوا سفراءهم ينزلون بالناس في بيوتهم ويتوسلون بهم إلى الخليفة أن يقبل منهم ما عرضوا عليه . فأبى إباءه الذي لا ينثنى وقال : لو منعوني عناقا لجاهدتهم عليه

فقلت الوفود إلى جماعاتها ، وعلم الخليفة بقولها ، وأخذ في التأهب للأمر بحزم العمل وحزم التدبير والحيلة بعد حزم الإيمان . فلم يدع شيئا قط يستعد به للخطر المنتظر إلا أعدّه في أوانه ، وعلى الوجه الأمثل في تلك الأحوال

فأقام كبار الصحابة على الأبواب ، وجمع في المسجد من استطاع جمعه من المجاهدين ، وأرسل العميون على الطرقات من كل سبيل ، فما هو إلا أن جاءوه بنبا القوم ومواضع جماعاتهم المختلفة حتى خرج مع الليل ليضربهم من حيث لا يتوقعون قدومه ، ودهم من كان منهم بدى القصة فدعزوا لهذه البقعة التي لم تكن لهم على بال ، ولاذوا بالفرار حتى لحقوا بأصحابهم في ذى حسا فصعدوا هناك للمقاومة ، وقيل أنهم تحيلوا على أبل المسلمين التي لم تروض للقتال فضربوها بالأنحاء المنفوخة في وجوهها فنفرت وولت مجفلة من حيث أنت . فاطمعهم ذلك في الهجوم على المدينة ، وظنوا أن أهلها لن يفارقوها يومهم على الأقل بعد هذه الهزيمة

الا أن الخليفة لم ينتظرهم معتصما بالمدينة كما انتظروا . بل خرج بمن معه في هزيع من الليل على تعبئة كاملة ، وهبط عليهم عند طلوع الصبح وهم على غير أهبة فلم يلبثوا قليلا حتى تفرقوا وأرعدوا ، ولم تقم لهم بعدها قائمة في هذه المحاولة الفاشلة . لأن جيش أسامة عاد من وجهته قبل أن يسعفهم مدد نافع ، فيئسوا أن يأخذوا المدينة عنوة أو على غرة بعد ما أعياهم أخذها وهي قليلة الحامية مفتوحة الطريق

تلك كانت هجمة المرتدين الأولى على معقل الاسلام . ظفر فيها المسلمون لأنهم اعتصموا بحزم الإيمان وحزم التدبير

وحزم الوفاق ، وانخلل فيها المرتدون لانهم كانوا على نصيب ضئيل من هذه العدد الثلاث ، فخانتهم عزيمة الدين وعزيمة الراى وعزيمة الكلمة الواحدة ، ولعلمهم لو شاءوا أن يتحدوا كلمة وفلا لفاتهم طلاب ذلك ، لقلة الكلا والماء الذى يكفيهم مجتمعين . فكان تفرقهم مما أعان المسلمين عليهم ، وعوضهم من قلة الجند رجحانا يقابلون به الكثرة وهى منحلة الوثاق

ومن عجائب الخليفة الصديق أنه كان يعتصم بالايمان حتى يقال لم يدع مزيدا للحيلة والتدبير، ويعتصم بالحيلة والتدبير حتى يقال لم يدع مزيدا للايمان

ففى هذه الفترة التى شغل فيها أولئك المرتدين بالهجوم والدفاع كانت رسله الى كل مكان تستنفر القبائل الموالية للنجدة ، وتمشى بالوقية والتفرقة بين القبائل المعادية او المتربصة للعداء ، وتأتيه بالأخبار من كل صوب فيعمل وهو بصير ، ويعملون وهم متخططون مضللون

فلم تنقض هجمة فزارة وعبس وذبيان حتى استتم له جيش كبير من أبناء القبائل الموالية فى جوار المدينة ومكة ، ومعهم جيش أسامة وعدته بضعة آلاف من المدرين على القتال

ومضى رسوله « عدى بن حاتم الطائى » الى قومه بنى طيء وهم يترددون : فريق يعصى الخليفة ويلحق بالتنبيء الأسدى طليحة بن خويلد ومعهم فلول المرتدين عن المدينة ، وفريق يحجم عن العصيان ويؤثر البقاء والانتظار. فأرهبهم من مغبة العصيان وساعده على أرهابهم مصير عبس وذبيان . وأنذرهم ليهيطن عليهم جيش لا قبل لهم بدفعه من تلك الامداد التى تندفق على المدينة أو يثوبوا الى الاسلام وإيتاء الزكاة . فأصغوا اليه ، وسألوه المهلة حتى يستخرجوا من لحق بطليحة من اخوانهم لثلا يقتلهم وهم بين يديه ، ووعدوه أن يدخلوا بهم جميعا فى زمرة جيش المسلمين

الى هنا انتهت المرحلة الاولى التى اشترك فيها المسلمون جميعا بقيادة الخليفة لمدافة المرتدين عن المدينة. وكان شأن خالد فيها شأن غيره من أبطال المجاهدين

وآن أن تبدأ المرحلة الثانية وهى المرحلة التى توزع فيها الاعمال بين القادة فى شتى الميادين ، بعد أن تمت العدة وتوافدت الامداد من مختلف القبائل ، واستراح جيش أسامة ، وهدأت سورة القبط وبدأ الحريف ، وأصبح من اليسور للخليفة أن يوجه البعوث الى المتنبيين فى مواطنهم، ليصبل كل منهم عن مراده قبل استفحال خطبه

ففى أول هذه المرحلة نرى خالدا « بدى القصة » حيث عقد له الخليفة لواء القيادة على جيش لا تتجاوز عدته أربعة آلاف مقاتل ، أكثرهم من أبناء القبائل الموالية وأقلهم من المهاجرين والانصار . ووجهته الى « براخة » من أرض بتي أسد حيث اجتمع بنو أسد وقيس وحلفاؤهم الى المتنبي القائم بأمر الردة هناك طليحة بن خويلد

وربما كان الصحيح أن خالدا انما استقل فى أول هذه المرحلة بعمل القائد العسكرى فى تنفيذ خطة مرسومة بتفصيلاتها . اذ كانت هذه الخطة متفقا عليها بينه وبين الخليفة ، وكان الخليفة اليقظان يأمره بما يصطنع خطوة بعد خطوة ، وينبئه الى مواقف القبائل ومواطن الخطر منها على درجاته ، ويصحبه الى بداية طريقه

قال الخليفة وهو يودع الجيش : «أيها الناس اسبروا على اسم الله وبركته ، فأمركم خالد بن الوليد الى أن ألقاكم . فانى خارج فيمن معى الى ناحية خيبر حتى ألقاكم »

ثم خلا بخالد وأسر اليه أمرا ثم قال : « ... عليك بتقوى الله وإشاره على سنواه ، والجهاد فى سبيله ، والرفق بمن معك من رعيتك ، فإن معك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل السابقة من المهاجرين والانصار فشاورهم

فيمّا نزل بك ثم لا تخالفهم . فاذا دخلت أرض العدو فكن بعيداً من الحملة فاني لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بالزاد وسر بالالدلاء ، وقدم أمامك الطلائع تترد لك المنازل ، وسر في أصحابك على تعبئة جيدة ، واحرص على الموت توهب لك الحياة ، ولا تقا تل بمجروح فان بعضه ليس منه ، واحترس من البيات فان في العرب غرة ، واقلل من الكلام واقبل من الناس علانيتهم وكلهم الى الله في سريرتهم ، واذا آتيت دارا فاقحم . فان سمعت أذا نا أو رأيت مصلياً أمسك حتى تسألهم عن الذين نقموا ومنعوا الصدقة ، فان لم تسمع أذا نا ولم تر مصلياً شن الغارة ، فاقتل وأحرق كل من ترك واحدة من الخمس واذا لقيت أسداً وغطفان فبعضهم لك وبعضهم عليك ، وبعضهم لا عليك ولا لك متربص السوء ينظر لمن تكون الدبرة فيميل مع من تكون له الغلبة ، ولكن الخوف عندي من أهل اليمامة ، فاستعن بالله على قتالهم ، فانه بلغني أنهم رجعوا بأسرهم ، فان كفاك الله الضاحية فامض الى أهل اليمامة . سر على بركة الله ا »

ولم يكن الخليفة على نية المسير الى خيبر كما أعلن أمام الناس . ولكنه لم يشأ أن يعلن سير الجيش الى بزاخة نصاً لمقاصد متعددة : منها أن يخيف بطون طيء حين يقصد اليهم جيش خالد بقضه وقضيضه فيجهز على بقية التردد التي تهجس في صدورهم ، ومنها أن يقنع طليحة بأرسال من عنده من طيء لنجدة اخوانهم والدفاع عن بلادهم ، ومنها أن يدهم طليحة على غرة وهو يظن أن الجيش متجه الى غير بزاخة ومنصرف عنها الى حين ، ومنها أن يلزم أهل خيبر أما كتبهم فلا يشتركوا في قتال

وقد عمل خالد بهذه الحطة فمضى في طريق بزاخة ثم عرج الى اليسار قبل منتصف الطريق كأنه يريد الحملة على ديار طيء ، وهناك وافاه فوق الألف من مقاتلة البطون

الطائية ممن تخلى عن طليحة أو كان على نية اللحاق به بعد قليل

وقبل أن يستوى خالد فى طريقه الى بزاجة جاءه أناس من الطائيين فعرضوا عليه أن يكفوه حرب قيس ويعفيهم من حرب بنى أسد لأنهم حلفاؤهم منذ الجاهلية • ولم يكن عدى ابن حاتم على رأى قومه فقال لخالد : لو ترك هذا الدين أسرته الأدنى فالأدنى من قومي لجاهدتهم عليه ، أفأنا أمتنع عن جهاد بنى أسد لحلفهم ؟ فلم يشأ خالد أن يكره أناسا على حرب من يسالمونهم ولا يستحمسون فى قتالهم ، وقال لعدى : لا تخالف قومك ، وامض بهم الى القوم الذين هم لقتالهم أنشط ، والله ما قيس بأوهن البشوكتين • امضوا الى أى القبيلتين أحببتهم »

وأتم تعبثته للقتال وهو على الطريق ، فجعل القبائل على ميمنته والأنصار والمهاجرين على ميسرته ، وصمد هو فى القلب مع فئة من هؤلاء وهؤلاء

أما طليحة فالظاهر أنه كان أحذر من أن يؤخذ على غرة ، فانه قد رصد العيون على فجاج الصحراء فعلم بمقدم المسلمين قبل وصولهم الى بزاجة ، وأعد العدة لكلتا الحالتين من غلبة وفرار ، فعزل أكثر النساء فى مكان أمين لئلا يقعن فى السبى اذا دارت الدائرة عليه ، وأقام حوله أربعين فارسا من أشد فتيان بنى أسد ليدرأوا الهجمة عنه ، كانه كان يعلم أسلوب خالد فى قتاله ••• أذ كان وكده قبل كل وكد أن ينحى بالضربة المصمية على رئيس القوم فيفت فى أعضاد القوم جميعا بقتله أو اكراهه على الفرار • ولم يكن طليحة جبانا يتنحى عن الطعن والضرب وراء غيره ، بل كان مشهورا بالشجاعة معروفا عنه أنه أقسم لا يدعو أحد الى مبارزة الا أجابه ، ولكنه كان على شجاعته أميل الى الحذر والحيلة منه الى المجازفة والحماسة ، وكان فى هذه الحصلة نقيض نده

الذي يضاوله وينازله بالسلاح والاخلاق ، فكان خالد اقرب الى المجازفة والحماسة منه الى الحذر والحيلة

ولقد كانت لجيش طليحة مزيتان هما الكثرة والراحة . فقد كان جيشه يربى على جيش المسلمين بالقتال او زيادة ، مع وفرة السلاح والركائب ، وكان مستريحا في دياره على خلاف جيش المسلمين الذي كان عليه أن يلقاه بعد مسير مئات من الأميال في الأودية والجبال

ولهذا أوشك أن يفوز بيومه لولا عزمة من عزمات القيادة التي تأتي في ابانها وتدور برحى الحرب من طرف الى طرف في ساعات معدودات

فلما التحم الجيشان ثبت طليحة وأصحابه ثبات المستميت ، وكروا على المسلمين كرة عنيفة فكشفوا الميمنة ولحقت بها اليسرة ، وانقضت هنيهة خيل فيها الى المسلمين أنهم منكسرون لا محالة ، وجاء بعض بنى طيء الى خالد ينصح له أن يتراجع يومه ليعتصم بجبال طيء ويستدرج المرتدين اليها . فأنكر عليه نصيحته وزجره قائلا : لا اعتصم بغير الله ثم عول على الكرة في كبة الجمع ليبلغ النصر أو يموت دونه . فأرسل فرسه وترجل مقاتلا على قدميه ليملك الحركة حيث يشاء ويبعث القدوة في قلوب صحبه ، ونادى بالانصار . كأنه ذكر موقف النبي يوم حنين : يا أنصار الله اقلبوه متدفعين اليه ، وثاب أبناء القبائل الى مواضعهم فاستحضر القتل في الفريقين حتى قتل حرس طليحة جميعا واستقر هو في « دثار الكهانة » يوههم أنه يتلقى الوحي أو ينتظر المدد من السماء .

وقد كان أتباعه يحبون أن يؤمنوا به مجاملة له ومروءة لكبرياء القبيلة في أنفسهم ، فلما جد الجد أحسوا أن يروا لهذا الايمان علامة وسأله زعيم فزارة عيينة بن حصن وهو من أعز أنصاره والد أعداء المسلمين : هل جاءك جبريل ؟

قال : لا • ثم رجع له مستعجلا وحي السماء صائحا به وقد نسي في غضبه أنه يخاطب على رُعْمه نبيا من الانبياء : لا أبالك ! أجهلك صاحبك ؟ قال : لا • فصاح به : حق مق ؟ قد والله بلغ منا • فلما عاوده الثالثة خجل أن يجيبه جوابه الاول وقال له نعم ! جاءني وأوحى الى « ان لك رحي كرحاه ، وحديثا لا ننساه » • • • فسخر منه عيينة وقال نعم ! هو حديث لا ننساه • • • ونادى في قومه وهو مؤمن بهزيمة طليحة وادبار أمره : انصرفوا يا بني فزارة ! انه لكذاب • وجعل طليحة يسألهم من خبرته : ما يهزمكم ؟ فأجابه أحدهم : انا أحدثك ما يهزمنا ، انه ليس رجل منا الا وهو يحب أن يموت صاحبه قبله ، وانا لنلقى قوما كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه »

وأدرك طليحة حذره • وكان قد أعد لهذا الحذر عدته ! فركب فرسه وأردف امرأته النوار وراه ، ونجا بها وهو ينادى أتباعه : « من استطاع أن يفعل هكذا فليفعل » • وما زال في فراره حتى لحق بالشام



وتعقب خالد فلول المرتدين ومن مالا لهم من قبائل هوازن وسليم حتى لحق بهم في « ظفر » حيث أحاطوا بسلمي أم زمل وهي كأمها من قبلها مضرب المثل في العزة والمنعة • كان يقال عن أمها « أعز من أم قرفة » لأنها تعلق في بيتها خمسين سيفاً كل سيف منها لرجل من ذويها ، وقد سببت هي في عهد النبي عليه السلام فأعتقتها السيدة عائشة رضي الله عنها • فذهبت الى قومها مغضبة لتلك العزة التي انتهت بها عناد قومها الى الأسر والخدمة ، واستثارت حمية الرجال بهذه الغضبة التي تثير الطبيعة البدوية ولو لم تجتمع اليها

بواعث أخرى للغضب والثورة . فدار بين خالد وجيشها أحر قتال ، ووقفت هي على جمل مشهور تضرم النخوة في قلوب جندها وترد الشجاعة الى من أدبر للفرار ، ومضى اليوم وهي تكافح ومن حولها زعماء جيشها يكافحون . فجعل خالد مائة من الأبل لمن يصيب الجمل . وأرسل نخبة من فرسانه عليه فعقروه ، وقيل انهم لم يصلوا اليه حتى قتل من دونه مائة رجل من حماتها المستيثسين

وقد تفرقت سرايا خالد في اثر المنهزمين تضر بهم وتجمع الأسلاب والغنائم وتدعو الى الاسلام

فلم تمض أيام حتى كان قد فرغ من مهمتيه الأوليين : وهما الانذار والتغلب على الفتنة ، وبقيت مهمته الأخيرة وهي القصاص والتأديب ، ولعلها كانت ألزم وأحزم من قمع الفتنة وتمزيق الجيوش . لأن المرتدين كانوا قد أسرفوا في التنكيل بالمسلمين الذين أصابوهم بينهم ولم يتورعوا عن مثلة من المثلات التي يتورع عنها المقاتل الكريم ، وأصابوا أولئك العزل المنفردين في غير ساحة حرب وبغير نذير من قتال . فكانت أوامر الخليفة الى خالد صريحة ألا يننى في عقاب المعتدين ، ولا يظفرون بأحد قتل المسلمين الا قتله ونكل به غيره .

ولم يكن خالد في مواقف الصرامة والبطش بحاجة الى تأكيد وتشديد . فلم يقبل من المرتدين الا أن يأتوه « بالذين حرقوا ومثلوا وعدوا على المسلمين » . ومثل بهم فأحرقهم بالتيارن ورضخهم بالحجارة ورمى بهم من الجبال كفعلهم بأولئك الأبرياء الغافلين عن عدوانهم الذميمة . وقاد رؤسائهم في جوامع الحديد الى الخليفة ليصنع بهم ما يشاء وذلك درس لا شك أنه عنيف مخيف ، ولكن لا شك أنه عادل في شرعة الحرب والسلام ، وأنه لازم كل اللزوم في أحوال كتلك الأحوال

وأية كانت المثالات بالمرتدين فهي على التحقيق لا تتجاوز المثالات التي تؤمر بها « حملات التأديب » في عصرنا هذا لمعاقبة أناس لم يقترفوا مثل ما اقترفه المرتدون ولم يقرنوا فعالهم بجريرة الخروج على عقيدة أو شريعة ولا بتهديد «الدولة» في كيانها وهي أحوج ما تكون إلى الأمان والضمان ومع هذا وجد من كبار المسلمين من لام خالدا على الامعان في تأديبه على النحو الذي نحاه . فقال عمر بن الخطاب للخليفة منكرا احراق الناس : بعثت رجلا يعذب بعذاب الله؟ انزعه !

فلم يستمع اليه الخليفة لأنه كان في حنقه على المرتدين لا يستعظم عليهم ضربا من ضروب العقاب ومهما يكن من مجازاة هذا العقاب لطبع خالد - فهذه البعثة بين بعثاته جميعا هي بعثة التنفيذ المحض الذي لا يشوبه نصيب من الاستقلال ، اللهم الا استقلال القائد الكفو بحسن القيام على ما وكل اليه ومما لا غنى عنه قبل الانتقال إلى أعمال خالد المستقلة في بقية حياته أن نتحرى نصيبها من الاقدام على العمل غير مأمور به ولا محمود عليه

فيجوز لقائل في هذا الصدد أن يقول ان الخليفة لم يرسم لخالد خطة القتال والمداورة في بعثة بزاجة وانما أفضى خالد بهذه الخطة إلى الخليفة فأقرها ووافقه عليها

ذلك جائز غير ضعيف الجواز ، ولكننا على هذا نرجح أن الخليفة هو صاحب الخطة من ألفها إلى يائها ، وأن نصيب خالد فيها هو نصيب الاقرار والموافقة ، ويميل بنا إلى هذا الترجيح أن نصائح الخليفة في بدء البعثة قد شملت الصغائر والكبائر وتناولت تفصيل الحركة كما تناولت تفصيل البيان الصحيح عن مواقف المرتدين في كل قبيلة وكل ميدان ، وأن الخطة قامت على التورية والسبق بالهجوم ، وكلاهما

مما تعلمه الخليفة الأول بعد طول الصحبة من النبي عليه السلام . اذ كان مأثورا عنه أنه كان إذا قصد وجهة ورى بغيرها ، وأنه كان لا ينتظر الهجوم بل يسبق الهاجمين اليه ، وقد جرى الخليفة على ذلك فى دفاعه عن المدينة قبل مسير البعوث وعقد الألوية للقواد .

كذلك تواترت بعض الأقوال بمسير خالد الى بنى تميم - بعد معركة البزاجة - قبل أن ياتيه أمر الخليفة بالهجوم . قيل أن الانصار أنكروا عليه المسير الى بنى تميم وقالوا له : « ما هذا بعهد الخليفة الينا ، إنما عهدنا ان نحن فرغنا من البزاجة واستبرأنا بلاد القوم أن نقيم حتى يكتب الينا » فقال لهم خالد : « ان يكن عهد اليكم هذا فقد عهد الى أن أمضى . وأنا الأمير والى تنتهى الاخبار ، ولو أنه لم يأتنى كتاب ولا أمر ثم رأيت فرصة ان أعلمته بها فاتتنى لم أعلمه حتى انتهزها »

بل قيل أكثر من ذلك أنه أغار على اليمامة قبل أن ياتيه الأمر من الخليفة بالإغارة عليها . وهى أهول حروب الردة بل لعلها أهول من معظم حروب الفرس والروم

فزعم قوم أنه قال لصاحبه بالبطاح : والله لا أنتهى حتى أناطح مسيلمة . فأبى الانصار وقالوا : هذا رأى لم يأمرك به أبو بكر فارجع الى المدينة . فأصر على رأيه وقال : لا والله حتى أناطح مسيلمة . فرجعت الانصار فسارت ليلة ثم قالوا : والله لئن نصر أصحابنا لقد ندمنا ، ولئن هزموا لقد خذلناهم . فرجعوا اليه ومضى بهم الى اليمامة

والذى لا نزاع فيه أن الخليفة لم يبعث أحدا غير خالد الى بنى تميم ، ولو بعث غيره لصح أن يقال انه سار اليهم غير مأمور ، ولكنه قال عند مسير جيشه من ذى القصة : « اذا فرغ سار الى مالك بن نويرة بالبطاح ان أقام له » أما اليمامة فقد بعث اليها الخليفة عكرمة بن أبى جهل ثم

رأى حاجته الى المدد فوجه في أثره شرحبيل بن حسنة ، وأمرهما أن يتلاقيا ولا ينفردا بالهجمة على اليمامة ، ثم بدا لعكرمة أن يستأثر بالنصر وحده فهجم على مسيلمة قبل أن يوافيه المدد فتكب نكبة شديدة • وتلقى الخليفة نبأ هذه النكبة فكتب الى شرحبيل يأمره بالتوقف حتى يأتيه أمره ، ولم يقل أحد أن الخليفة وجه قائدا غير خالد بن جندب شرحبيل ، ولا كان معقولا أن يكتفى بشرحبيل بعد هزيمة عكرمة وقد كان كلاهما عنده في حاجة الى التعزيز والامداد

وقد تقدم أن الخليفة قد بصر خالدا بشأن اليمامة قبل خروجه الى البزاة • • • وليس من داع الى الشك في نسبة ذلك المقال اليه ، ولا الى الشك بعد هذا جميعه في تولية خالد قيادة الجيش الذي سار الى اليمامة

ومن المتواتر جدا أن خالدا لقي الخليفة بعد مسيره الى بنى تميم وقبل مسيره الى بنى حنيفة • لأنه استدعى لسؤاله عن مقتل مالك بن نويرة وزواجه من امرأته ليلى • فهو قد توجه الى اليمامة مأذونا مأمورا بعد وقعة البزاة وبعد وقعة بنى تميم • وعدا هذا كله يكاد يستحيل على العقل أن يقبل أن خالدا قد تولى حربا كحرب اليمامة اشترك فيها أعظم الصحابة واستهدف المقاتلون فيها لا كبر الاهوال دون أن يندب لذلك بأمر صريح

وغاية ما نفهمه الآن من ورود ذكر اليمامة عند عقد الاولوية في ذى القصة أن الخليفة عرف خطرها فأراد أن يجمع لها أكبر قوة من جيوشه المختلفة ، وأراد في الوقت نفسه أن يشغل بنى حنيفة بأنفسهم فوجه اليهم عكرمة أولا ثم وجه شرحبيل بعده ليتلاقيا معا ، ويكون خالد قد فرغ في خلال ذلك من أمر بنى أسد فيدرك سابقيه معززا لهم أن تعذر عليهم أن يقهروا بنى حنيفة قبل قدومه ، وهى خطة ثلاثم ما عرف عن خطط الصديق من جرأة وحيلة وسرعة ،

ولا يمنع هذا أن الخليفة أمر خالدا أن يرجع إليه بعد كل مرحلة من مراحل هذه البعثة لعله قد استجد شيئا في غيابه

وفحوى الأقوال الكثيرة التي تتفق بالبداية على هذا النسق أن خالدا قد تولى التنفيذ في ترتيب أعماله وتولاه أيضا في أوائل خطته ، ولكنه قد وكل إلى نفسه في الأمور التي يعلمها الشاهد ولا يعلمها الغائب . ومنها موعد المسير وطريقة الهجوم واللقاء . فقام بما وكل إليه جميعا على أكمل الوجوه وأقمنها بموافقة الخليفة ، إلا في موضعين لكل منهما ارتباط بمسألة زواج : وأحدهما في البطاح والآخر في الإمامة . فقد تعرض فيهما لمؤاخذه الخليفة ومؤاخذه كبار الصحابة ، ولم يرض فيهما عرف الجاهلية أو عرف الإسلام . وظاهر من مقال الخليفة في ذى القصة أنه لم يكن على يقين من عداء بنى تميم ، أو من ضرورة القتال في أرضهم ، وإنما كان يعلق الأمر على موقفهم عند وصول جيش المسلمين إليهم . وبخاصة بعد وفود زعماء منهم بإعلان الطاعة وإيتاء الزكاة

وليس أدل من هذا على أن الصديق رضى الله عنه قد كان يعمل عمله في حروب الردة جميعا وهو على استطلاع وثيق وعلم واف بأحوال كل طائفة من المرتدين ، وأن من دواعي انتصاره وفاء أخباره بحاجات القتال ونقص أخبار المسلمين عند القبائل المرتدة بعيدا وقريبا على السواء

فتقديره لموقف بنى أسد منذ البداية كان أصبح تقدير وكذلك كان تقديره لموقف بنى حنيفة في الإمامة

ومثل هذين في صحة الالمام بالأحوال المختلفة شكه في ضرورة القتال بالبطاح ، وتعليقه القتال مع مالك بن نويرة

على شرط ، وتخصيصه مالكا بالذكر دون الآخرين من
زعماء بيوت بنى تميم
فالواقع فى أمر بنى تميم كما نعلمه اليوم أنهم لم ينطروا
على خطر جسام وان اختلفت فى نياتهم الظنون
وتاريخهم قبل الاسلام بعشرات السنين يؤكد هذه
الحقيقة ، ويوحى الى الخليفة رأيه الذى ارتآه
كانوا فى أجهل أيام الجاهلية فى طبيعة العرب كثرة
ومنعة وسعة بلاه ووفرة ماء ومرعى

وكانوا يجترئون على المغامرات التى تفرق منها القبائل
الآخرى ، فبطشوا مرة بقافلة عظيمة من قوافل الفرس التى
تسير فى رعاية الدولة الفارسية وحراسه أناس من بنى
حنيفة . وفارس دولة ضخمة يهابها العرب ، وبنو حنيفة
قوم من المنعة والعزة بمكان . فلما استشار كسرى بعض
زعماء بنى حنيفة فى عقوبتهم قال له : ان أرضهم لا تطيقها
أساورتك وهم يمتنعون بها ، ولكن احبس عنهم الميرة ، فإذا
فعلت بهم ذلك سنة أرسلت معى جندا من أساورتك ، فأقيم
لهم السوق ، فانهم يأتونها . فتصيبهم عند ذلك خيلك .
وكذلك لم يتمكن منهم كسرى حتى منع عنهم حاجياتهم
من أرض الحضارة فى سنة مجدية . واستعان عليهم بمن
يستدرجهم الى مكان ينالون فيه

ولكن بنى تميم على هذا كانوا مثلا من الامثلة النادرة على
عجائب الحظوظ فى هذه الدنيا ، فقلما ظهر للمعتبرين أن
الكثرة والسعة والمنعة والوفرة تنقلب أحيانا الى نقمة تشبه
القلة والضعف والخوف كما ظهر ذلك فى شأن بنى تميم
فقد كانت كثرتهم وسعة بلادهم واكتفاء كل بلد منها
بمراعيه وأمواله سببا لتفرقهم وتصدع وحدتهم وتعدا
الاجماع بينهم على رئيس واحد

فتشنعوا بطونا يدين كل بطن منها لرئيس ، بل بيوتا
في البطن الواحد يبلغ من تنافسهم أن يتحاربوا ويتوارثوا
الترات، ويصبح التوفيق بينهم أعسر من التوفيق بين أحدهم
والغريب الطارئ عليهم من الأعداء والأصدقاء

وكان هذا شأنهم يوم ظهرت الدعوة المحمدية . فلما
بلغتهم خاف كل منهم أن يرفضها فيكون منافسوه الوأقفون
له بالمرصاد حربا عليه . فأجاب رؤسائهم الدعوة ، وأقرهم
النبي على رأسهم ، ومنهم الزبرقان بن بدر على الرباب ،
وقيس بن عاصم على مقاسم والبطون ، ووكيع بن مالك على
بنى حنظلة ، ومالك بن نويرة على بنى يربوع وهم بيت من
بيوت بنى حنظلة الكبار

وكل أولئك رجال من ذوى الراى الراجح والقول النافذ
والمناقب « الشخصية » . . . ويمتاز من بينهم مالك بن
نويرة بمزايا أخرى لم تتفق لواحد منهم ، وهى البلاقة
والظرف والفصاحة وحسن المحاضرة، مع الوسامة والصبابة
وأناقة الزى والشارة ، وهى فى جملتها تلك الصفات التى
ترشح صاحبها لماسى البطولة فى قصص الحياة ، من واقع
أو خيال

كانت فيه خيلاء وجفلة ، وكان متلافا لا يبقى على مال ،
وكان فارسا شاعرا محدثا طريف المدخل على من يعرف ومن
لا يعرف ، ومن ذاك أنه كان يقصد الحى من أحياء الأعداء
وله فيه أسرى يريد فكاهم بالفدية المصطلح عليها ، فلا
يحدث أهل الحى هنية حتى يخلبهم بحديثه ويأسرهم بظرفه
وحسن سمته فيردوا اليه أسيره بغير فدية ، ويفترقوا وهم
أصفياء

وكان مالك هذا أول من قصدت اليه سجاح المتنبيّة عند
منحدرها من الجزيرة . فصرفها عنه بلباقته إلى ملاقاته البطون
الأخرى من بنى تميم . ولعله زين لها أن تجمعهم إليها عصابة

واحدة ، لعلمه باستعصاء ذلك عليها وعلى غيرها وانها وشيكة أن تنتقم له منهم ان هي دعتهن الى الالتفاف بها فلم يجيبوها .

ولم نزل الانبياء - قبل مقدم سجاح وبعد منحرفها - يتابع بعضها بعضا بانكسار المرتدين وغلبة المسلمين عليهم الا ما كان من هزيمة عكرمة في اليمامة وانتصار بنى حنيفة عليه ، وهو انتصار لا يسر بنى تميم لشدة المنافسة بينهم وبين بنى حنيفة .

فلما أخذ الخليفة في عقد الاولوية وتسيير البعوث كان بنو تميم على حالهم المعهود من التفرق والمراقبة بعضهم لبعض على توجس وحذر ، فسبق بعضهم الى المدينة بحصته من الزكاة ، وتأخر بعضهم حتى نزل خالد بأرضهم فدفعوها اليه ، وتحير مالك بن النويرة فلم يعزم على الحرب ولم يؤد الزكاة

وأغلب الظن أنه بدد ما جمع من الصدقات في هباته وملاهيه ، ثم ليم في ذلك فأجاب لاثميه بأبيات قال فيها :
وقلت خذوا أموالكم غير خائف ولا ناظر فيما يجيء من الغد
فان قام بالأمر المخوف قائم منعنا وقلنا الدين دين محمد
يعنى أن محمداً هو صاحب الدين وصاحب الزكاة ، وقد مضى محمد فليس لأحد بعده أن يتقاضاه ا

وهو على الجملة موقف رجل مسرف . « لا يبالي ما يجيء به الغد » كما قال . وليس بموقف عناد وتحفز لقتال

فلما نزل خالد بالبطاح لم يجد أمامه أحدا يلقاه بزكاة أو يلقاه بقتال . فعسكر حيث نزل وأرسل السرايا في أثر أهل البطاح . فجاءته بمالك بن نويرة في نفر من بنى يربوع . فحبسهم ثم أمر بقتلهم ، وحدث بعد ذلك أنه تزوج بامرأة مالك ليلي أم تميم ، وكانت من أشهر نساء العرب

بالجمال ، ولاسيما جمال العينين والساقين • يقال انه لم
ير أجمل من عينيها ولا ساقها

وتضطرب الروايات هنا أبعد اضطراب وأصعبه أن تهتدى
منه الى مخرج متفق عليه

فمن قائل ان السرايا وجدت بنى يربوع يصلون وسمعت
الأذان ، ومن قائل : لم نر صلاة ولم نسمع بأذان

ومن قائل ان الأسرى قتلوا لان الليلة كانت باردة ونادى
مناد من قبل خالد أن « دافثوا أسراكم » ففهم الحراس أنه
يريد القتل لانهم من بنى كنانة والمدافاة بلهجتهم كناية عنه
ومن قائل أن مالكا قتل بعد محادثة حامية جرت بينه
وبين خالد

ثم اضطرب الروايات في نقل حديثهما فلا يدري له نص
صحيح • ف قيل ان مالكا صرح بأنه لا يعطى الزكاة وانما
يقيم الصلاة • فقال خالد : أما علمت أن الصلاة والزكاة
معا لا تقبل واحدة دون الاخرى ؟ فقال مالك : قد كان
صاحبك يقول ذلك • فاتخذ خالد قوله دليلا على تبرئه من
النبي وقال له : أو ما تراه لك صاحبا • • • ثم حمى الجدل
بينهما حتى أمر بقتله • • • ونسجت الحرافة بعد ذلك
نسيجهما الذي لا يثماسك لوهيه • فزعموا أن خالدا أمر
برأسه فجعل مع حجرين وطبخ على الثلاثة قدرا فأكل منه •
وان شعر مالك جعلت النار تعمل فيه الى أن نضج اللحم ولم
يفرغ الشعر !! وهي خرافة تروى لتدلنا على شيء واحد •
وهو وجود المحنقين الراغبين في التشهير بخالد وتبشيع
أعماله وايفار الصدور عليه .

وقيل : ان مالكا لمع في عيني خالد الاعجاب بامراته فصاح
به : هذه التي قتلتنى • فقال له خالد : بل الله قتلك برجوعك
عن الاسلام

ويذهب بعضهم الى أكثر من هذا فيزعمون أن هوى خالد لها سابق لحرب الردة ، وفي ذلك يقول أبو نعيم السعدي :
 قضى خالد بغيا عليه بعمره وكان له فيها هوى قبل ذلك
 وقيل ان خالدا تواعد مالكا بالقتل فقال له مالك : أو بذلك
 أمرك صاحبك ؟ قال خالد : وهذه بعد تلك ؟ ثم تكلم
 أبو قتادة الأنصاري وعبد الله بن عمر في أمره فكره خالد
 كلامهما . وعاد مالك يقول له : يا خالد ! ابعثنا الى أبي بكر
 فيكون هو الذي يحكم فينا . فقال خالد : لا أقالني الله ان
 أقتلك . وتقدم الى ضرار بن الأزور أن يضرب عنقه .
 ويزيدون على ذلك أن خالدا دعا أبا قتادة الأنصاري وعبد
 الله بن عمر الى حضور عقد الزواج بليل بعد مقتل زوجها .
 فأبيا وأشارا عليه أن يكتب الى أبي بكر ، فلم يستمع اليهما
 وغضب أبو قتادة فأقسم لا يجمعه بعد اليوم وخالدا لواء
 واحد . وقفل الى المدينة غير مستأذن من قائده ، فلقي
 الخليفة ولقي عمر بن الخطاب ، فكانت غضبة عمر أشد
 وأعنف . وطلب الى الخليفة أن يعزله وأن يقيد قائلا : ان
 سيفه فيه رهق . فلم يجبه الخليفة وقال له : يا عمر ! تأول
 فأخطأ . ارفع لسانك عن خالد . فاني لا أشيم سيفي سله
 الله على الكافرين

ولكنه ودى مالكا واستدعى خالدا اليه . فلما قدم الى
 المدينة رأى عمر منه ما زاده غضبا وشدة في طلب القود
 منه : رآه قد دخل المسجد وعليه قباء وقد غرز في عمامته
 اسهما . فنهض اليه فنزعها وحطمها وصاح به : « قتلت امرأ
 مسلما ثم نزوت على امرأته ، والله لا أرجمك بأحجارك » .
 فتركه خالد ولقي الخليفة فاعتذر اليه . فعنفه الخليفة
 وأمره أن يفارق ليلتي ثم عفا عنه واشتبقى خدمته . فعاد
 خالد الى المسجد وفيه عمر . . . فبادره حين رآه مناجزا :

هلم الى يا ابن أم شملة ١٠٠ فعرف عمر أن الخليفة قد عفى
عنه . فلم يكلمه ودخل بيته
وحسبنا من هذه الاقوال جميعا أن نقف منها على الثابت
الذى لا نزاع فيه



والثابت الذى لا نزاع فيه أن وجوب القتل لم يكن صريحا
قاطعا في أمر مالك بن نويرة ، وإن مالكا كان أحق بإرساله
الى الخليفة من زعماء فزارة وغيرهم الذين أرسلهم خالد بعد
وقعة البزاجة ، وإن خالدا تزوج امرأة مالك وتعلق بها
وأخذها معه الى اليمامة بعد لقاء الخليفة
وأوجب ما يوجب الحق علينا بعد ثبوت هذا كله أن نقول:
إن وقعة البطاح صفحة في تاريخ خالد كان خيرا له وأجمل
لو أنها حذفت ولم تكتب على قول من جميع تلك الاقوال ،
لأنها لم تضيف الى فخاره العسكرى كثيرا ولا قليلا ، وأهدفته
للام ، أحمد ما يحمد منه أن له عذرا فيه ، يقبله أناس ولا
يقبله آخرون

يجب تقرير هذا عند تقدير خالد لأنه الحق الذى لا يعلو
على ميزانه ميزان في ترجيح الرجال والأعمال
ولأن الرجل الذى يخشى على قدره من تقرير أخطائه
رجل لا يستحق أن يكتب له تاريخ . إذ معنى الخشية عليه
من أخطائه أنه فقير فى الحسنات والعظائم ، وأنه من الفقر
فى هذا الجانب بحيث تعصف الأخطاء بعظائمه وحسناته ،
ولم يكن خالد بن الوليد كذلك . بل كانت له فى ميزان
العظمة والعبقرية كفة راجحة . ولم يكد يرحل عن البطاح
حتى اتصلت له حلقات من كبار الأعمال توزع على عشرة
رجال ويجد كل منهم فى نصيبه كفايته من الفضل والرجحان

خرج من البطاح الى اليمامة
خرج من وقعة لا خطر لها الى وقعة لها الخطر الاكبر في
حروب الردة وفي حروب الاسلام كافة خلال ايام الخلفاء
الراشدين

ويرجع هذا الخطر الى قوة بنى حنيفة اصحاب اليمامة ،
ودهاء رئيسهم مسيلمة بن ثمامة ، ومنعة بلادهم بالجبال
والاودية ووفرة الماء والثمرات

هابها اصحاب سجاح وقالوا لها حين حدثتهم بغروها :
ان مسيلمة قد استفحل امره وعظم . فلم تهون عليهم
خطبها حتى استنزلت لهم سجعات من وحيها المزعوم تقول
فيها : « عليكم باليمامة . دفوا دفيف الحمامة ، فانها غزوة
صرامة ، ولا تلحقكم بعدها ملامة »

وكان مسيلمة هذا رجلا قصيرا ، اخنس الأنف أفتسنه
شديد الصفرة زرى الهيئة ، ولكنه على ما يؤخذ من اخباره
كان على ذكاء مفرط وحيلة نافذة ، وكان من أولئك الدهاة
الذين يعوضون بالحيلة ما فاتهم من الهيبة والرواء ، فاشتهر
بالخلافة والقدرة على استهواء النفوس من الرجال والنساء ،
فمن خلافته أن النبي عليه السلام أرسل اليه رجلا من قراء
القرآن ليعلم أهل اليمامة احكام الاسلام ويبصرهم بالفرائض
والعبادات وهو نهار الرجال . فما لبث الخبيث أن استفواه
حتى شهد له أنه يوحى اليه وأنه سمع النبي عليه السلام
يقول انه قد أشركه معه وشهد له بالنبوة ! وقد استغوى
سجاح - وهى تدعى النبوة - حتى شهدت بنبوته وتزوجته
وانصرفت من بلاده بنصيب من الهدايا يقنعها بالذهب ولا
يضمن لها التكرار . وكأنه كان على حظوة عند النساء وخبرة
بأهوائهن وأساليب مرضاتهن . فقد كان نساؤه يحبينه
ويجزعن عليه ، وصاحت احداهن ساعة أن قتله وحشى بن

حرب مولى جبير بن مطعم : « وا امير الوضاعة ! قتله العبد
الاسود ... »

وخليق بهذا أن يظن به السحر وتنتظر منه الخوارق بين
الجهلاء . لأنهم يرون سلطانه ولا يعلمون مآناه . فيخيل
اليهم انه سر من الغيب أو معونة من الجنة والشياطين ، وهو
على هذا كان يعين حيلته بما استطاع من صناعة الشعوذة
والالاعيب التي كان يحذقها بعض الكهان في بلاد العرب
والعجم ، فكان قبل ادعائه النبوة يطوف بالأسواق ويتعلم
« النيرنجيات » حيث سمع بأساتذتها المبرزين فيها . ولم
يكن في طبيعته بمعزل عن طبائع السحرة وأدعياء الغيب .
فقد قيل في وصفه وهو يتكهن « انه اذا امتراه شيطانه أزيد
حتى يخرج الزبد من شذقيه » . . . والأغلب الأرجح أن به
صرعا كأولئك الذين يشبهونه في الخلائق والدعوى ، ومنهم
الذين يعالجون « الاستهواء » من المستهوين أو الوسطاء

ولسلطانه على أبناء قبيلته أحبوه ووثقوا به وأطاعوه .
فتأتى له أن يجمع منهم أربعين ألفا أو ستين . وهو عدد
ربما ارتفعت به المبالغة أو الجهل بالتقدير ، ولكنه لا يهبط
الى ما دون العشرين قياسا على ما وصفت به معركة اليمامة
من الهول وكثرة القتلى والجرحى بين الفريقين

وقد كان مسيلمة يحسب الحساب لأمور كثيرة يوم
تصدى لدموة النبوة ومقاومة الاسلام . فكان يقاتل تامة
ابن أمثال ، ويناوش بنى تميم لما بينهم من الدحول
والمنافسات ، ويتوقى شر سجاح وقومها التغلبيين ودولة
الأكاسرة من وراء التغلبيين ، ويعلم أن أشياعه من بيوت
بنى تميم قد يخذلونه ، وأن الذين دانوا بالاسلام بين قومه
عيون عليه ، وأن الخليفة لا يهمله ولا يجهل أخباره . فتحيل
على مهاذنة خصومه ، وفرغ جهده لحرب المسلمين وحدهم ،
وحشد كل ما وسعه من جند وسلاح ، ثم تقدم بهم في

عجلة الى موقع يقال له عقرباء في طرف بلاده على مقربة من بلاد بنى تميم

ولم يكن خالد يجهل خطر الرجل الذي سيلقاه ، ولم يكن يخفى عليه ان الحرب في العراق غير الحرب في بلاد تكتنفها الجبال وتقام فيها الابنية والأسوار ، فتوجه الى اليمامة الى أهبة كافية بالقياس الى أهبة المسلمين لأعدائهم في صدر الاسلام

ولا يعلم على التحقيق عدد الجيش الذي كان معه في عقرباء ، ولكنه على التقريب يجاوز الثمانية الآلاف ولا يقل عنها . لان جيشه بالبزاحة نحو خمسة آلاف ، يضاف اليهم جيش شرحبيل بن حسنة الذي سبقه ولبث في انتظاره ، ولا يقل عن الفين ، ويضاف اليهم الردء الذي ارسله الصديق وراءهم بقيادة سليط بن عمرو ليحمي ساقتهم ، وغير هؤلاء من تطوع للحرب مع المسلمين من بنى تميم وبنى حنيفة ، فهم في جملتهم يجاوزون الثمانية الآلاف ولا ينقصون عنها ، ان نقصوا ، الا بقليل

لكن مكان القوة من هذا الجيش الصغير انما هو كثرة الصناديد من أبطال الصحابة المشهورين فيه . فقد كان جيش المسلمين لا يجاوز في عدته نصف جيش اليمامة ، ولكنه كان في عدة وأفية من أفذاذ الرجال الذين يقومون بالآلوف ، فهم وأعداؤهم بهذه المثابة كفؤان متناظران

وكانا كفؤين متناظرين في صدق النية واتقاء العار من الهزيمة : هذا تأخذه غيرة الحرم وهذا تأخذه غيرة الدين . وقد قال ابن مسيلمة لقومه وهم يتقدمون الى المسلمين : « هذا يوم الفيرة . اليوم ان هزمتم تستنكح النساء سبيات وينكحن غير حظيات . فقاتلوا عن أحسابكم وامنعوا نساءكم »

فليست تعوز الخصمين حرارة الخصومة ولا شواحد
الفيرة ولا صلابة العزم ولا توسم الأمل في النجاح



ولم يزل خالد يتقدم الى وجهته على تعبئة كاملة كما دونه
في معظم غزواته ، وكان يتلقى الأخبار عن مسيلمة وحركاته
في كل مرحلة من مراحل الطريق . ولعله استعظم القوة
التي حشدتها مسيلمة في عقر داره فجنح الى الأخذ بالاحوط
وكتب الى الخليفة في طلب المدد عسى أن يحتاج اليه بعد
الجملة الأولى من جولات القتال ، فأمدته الخليفة بجرير بن
عبد الله البجلي . ولكنه التحم بجيوش مسيلمة قبل أن
يصل اليه ، فلقيه منصرفا من اليمامة

ولما دنا من أرض مسيلمة مرت مقدمة جيشه في الليل
بكوكبة من الفرسان بين الأربعين والستين . عليهم مجاعة بن
مرارة من زعماء بني حنيفة وأصحاب الرأي والمنزلة فيهم ،
وكانه كان خارجا لاستطلاع أمر المسلمين ، ولكنه أنكر
ذلك وزعم أنه ذاهب لآخذ ثأره في بني تميم وبني عامر .
فلما سئلوا عن دينهم قالوا : منا نبي ومنكم نبي ! فأمر خالد
بضرب أعناقهم جميعا واستبقى مجاعة عسى أن ينتفع بمنزلته
في قومه أو بعلمه بالحرب والمكيدة كما قال لبعض الرواة

ونزل خالد على كتيب في مواجهة مسيلمة . ثم التحم
الفریقان « وقالت بنو حنيفة قتالا لم يعهد مثله » وأندفعت
في هجمتها حتى دخلت خيمة خالد من وراء العسكر وفيها
أمراته أم تميم ومجاعة بن مرارة مقيد بالأغلال . فهم بعض
الحنفيين بقتلها لولا أن حماها منهم مجاعة وأوصاهم بها خيرا
وهو يقول : نعمت الحرة هذه . وعليكم بالرجال

شوهد في كثير من المعارك بين المسلمين وأعدائهم في

الصدر الأول أن الكرة الأولى غالباً ما تكون للمشرّكين ،
ولا سنيماً حين تجتمع لهم مزية العدد والراحة حيث
يختارون مكان القتال ، وهي مشاهدة لا تستغرب ولا تخالف
المعهود . لان « الدفعة الحيوانية » أبدا لها الوثبة الأولى
مع العدد الكبير وراحة الجسد . وانما الثبات للعقيدة التي
يلوذ بها الانسان بعد المراجعة ، وللضمير الذي يثوب اليه
المرء بعد الامتحان . وليس من شأن العقيدة أن تكون -
كالدفعة الحيوانية - وثبة عاجلة وهجمة سواراة فاشلة .
وانما شأنها أن تحاسب النفس وتستعيد قواها وتستخرج
ذخيرتها من أعماقها . فهي لهذا تنفع صاحبها في المحنة
وبعد تبين الشدة . وبخاصة حين يحتاج إليها بعد الجولة
الأولى

وهذا الذي حدث في عقرباء كما حدث في وقائع شتى
فبعد الجولة الأولى التي فازت بها « الدفعة الحيوانية »
برزت العقيدة الى الطليعة وجاءت بمعجزاتها ، وهي
معجزات لا يتخيل العقل أن نفساً انسانية تقدم عليها بغير
اعتقاد

انكشف الأعراب أولاً في أول صدمة ، وتزلزلت أقدام
أناس من الأنصار والمهاجرين من طغيان الجموع الهازمة
والمنهزمة على السواء

فبادر خالد الى تنظيم جيشه على وضع جديد . فميز
المهاجرين وميز الأنصار وميز الأعراب كل بني أب على
رأية . وصاح بهم : أيها الناس : تمايزوا حتى نعرف من أين
نؤتى

ثم حول على الموت كما وصاه أبو بكر فوهبت له الحياة
ووهب النصر : حمل على القوم حتى تجاوز الصفوف وجعل
يخاطب مسيلمة ويعرض عليه النصف والرجوع الى الحق

ومسيلمة يروغ منه . ثم نادى بشعار المسلمين : « يا محمداه ! »
ودعا الى البراز وهو يصول ذات اليمين وذات الشمال ولا
من يثبت له في مجال . ولم يبال أن ينظر الى ما وراءه لأنه
ترك كل شيء في تلك الساعة إلا أن يتقدم امامه . ولم يزد
على أن قال لجسирته أو من نسميهم اليوم أركان حربه
« لا أوثنين من خلفي » ومضى الى تقدم بغير رجوع ، إلا
رجوع ظافر مختار

وظهرت في مقام الهول فضيلة الصناديد من كبار
الصحابة . فحفر ثابت بن قيس لقدميه في الأرض الى
ساقبيه وهو يحمل لواء الأنصار بعدما تحنط وتكفن . فلم
يرل ثابتاً حتى قتل في مكانه

وصاح زيد بن الخطاب : « أيها الناس عضوا على أضراسكم
واضربوا في صدوركم وامضوا قدما » ثم أقسم : « والله لا أتكلم
حتى يهزمهم الله أو ألقى الله فأكلمه بحجتي » فكانت آخر
ما فاه به في ذلك اليوم

وحمل البراء بن مالك وأخذته العرواء التي كانت تأخذه
حين تتعالى الوغى ويحدث القتال . فكان كأنما يبحث عن
الموت ويهرب من الحياة

وتجاوبت الساحة بأصوات الأبطال يوصون بعضهم بعضاً
وينظر بعضهم الى بعض وهم ينقضون على أعدائهم ويتنادون
بينهم : يا أصحاب سورة البقرة ! يا أنصار الله ! كما ناداهم
النبي عليه السلام في يوم حنين . فاستحى كل منادى
منظور المكان منهم في ذلك المشهد العظيم أن ينكص على
عقبه ، ولم ير منهم الا قتيل في موضعه أو زاحف الى الأمام
وما هي الا سويعات حتى انكشف أصحاب مسيلمة
منكسرين ، وهول مسيلمة نفسه الى حديقة مسورة من
ورائه . وقد سميت في ذلك اليوم بحديقة الموت لكثرة من
قتل في طريقها وكثرة من قتل فيها . ولاحت من البراء

نظرة الى جانب الباب ، فاذا هم قد أوشكوا أن يفلقوه عليهم ، فصاح بأخوانه : « يا معشر المسلمين ! القونى عليهم من فوق سورها » فاحتملوه فوق الجحف ورفعوها بالرماح حتى بلغت أعلى السور فسقط منه على القوم بعد تردد ، ولم يرل يعالج باب الحديقة حتى فتحه ، وقد ثواب أفراد من المسلمين الى جانبه فأعانوه

وقتل فى هذه الهجمة مسيلمة كما قتل محكم بن الطفيل أكبر أهوانه ومشيريه ، فاضطرب بنو حنيفة ووقعوا فى الحيرة ، وهم فى هزيمة لا يشار فيها برأى ولا يصغى فيها الى مشير . فشطوا عن باب الحديقة وأعين المسلمون على اقتحامه من داخلها وخارجها . فحق لتلك الحديقة فى ذلك اليوم أن تسمى حديقة الموت ، لأنها اشتملت فى يومها على ألوف من القتلى ، وبلغ عدد القتلى جميعا فى ذلك اليوم بين ساحة القتال وحديقة الموت عشرات الألوف ، أقلهم فى تقدير المقدرين عشرة آلاف من بنى حنيفة وستمائة من المسلمين ، وأكثرهم فى تقدير المقدرين يرتفعون الى سبعين ألفا أو ثمانين ألفا جنفيين وألفين مسلمين . وهو رقم لا يدل على نها صحيح ولكنه يدل على هول صحيح سرى فى الأفاق من أنباء تلك المعركة التى ذهبت فيها نخبة من أجل الصحابة وأفقه الفقهاء ، ومن جراء مقتلهم فى هذه المعركة أمر الخلفاء بجميع القرآن فى المصحف بعد أن فنى الكثيرون من حافظيه ، وخيف أن يفنى آخرون

ثم بعث خالد الحيسول حول اليمامة يلتقطون ما حول حصونها من مال وسبى ، وعزم على غزو حصونها جميعا ولم يكن بقى فيها الا النساء والصبيان والشيوخ والكبار ، فاقترح عليه مجاعة أن يذهب اليهم لينزلهم صلحا عن معاقلم . ثم خدعه وأخلص لقومه ، لأنه أمر النساء والكبار أن يلبسوا الحديد ويبرزوا من رؤوس الحصون ، فنظر خالد

فاذا الشرفات ممتلئة من رؤوس الناس . فآثر المصالحة لما رأى بالمسلمين من الجهد « وقد كلوا من كثرة الحروب » واشترط أن يسلموا وأن يكون له نصف السبي والغنائم ، ثم نزل من النصف الى الربع حين أوهمه مجاعة أن القوم قد رفضوا ما قبل منه

فلما اطمأن المعتصمون الى الحصون من بنى حنيقة فتحوا أبوابها فلم ير فيها الا امرأة أو صبي أو شيخ فان أو رجل هزبل لا يرجى لقتال وقد يتوقع من خالد أن يغضب على مجاعة ويبتطش به بطشة خالدية بعد هذه الخدمة التي اجتروا عليه بها علانية وهو في قبضة يديه

لكننا في الحق لا نعجب اذا هو لم يغضب . لأن عمل مجاعة لا مرأى عمل ثبيل يكبره في النفوس النبيلة ويبعث له فيها الإعجاب الذي يكفكف من شدة كل غضب سريع . فهو عمل ينضح بالروءة والغيرة على العشيرة ، وكتاهما فضيلة يعرفها خالد ويعرف للمتصف بها قدره فلا يدلله ولا يجزيه شر الجزاء

وقصارى ما بلغ من غضبه أنه نظر اليه نظرة شؤراء وصرخ به : « ويحك ! خدعتنى » فلم يجبن مجاعة ولم يعتذر ، وانما قال : « هم قومي ! »

وما نحسب الا ان الإعجاب بمجاعة قد حجب الى خالد أن يصهر اليه ويوثق الصلة بينه وبينه : زعيم شجاع جميل الراى حسن التدبير غيور على قومه عليم كما وصفوه بمكيذة الحرب والسلم . فهو خير صهر في تلك القبيلة التى يفخر « سيف الله » بدخولها على يديه في الاسلام ، ويطيب له أن يعزز صلة الدين بصلة البيت والنسب . وقد طاب له المقام بتلك البقاع المخصبة التى يزينها له النصر كما يزينها له طيب الهواء . فاختر له واديا

من أوديتها الجميلة يسمى الوبر ليقيم فيه حتى يؤمر
 بوجهة أخرى ، وخطب الى جماعة فتاة له موصوفة بجمالها ،
 وهى خطبة لا ترفض ولكنها قد تقبل وتؤجل لأن جماعة قد
 علم من « ليلى » مذ كان سجيناً فى خيمتها كيف تلقى الخليفة
 وأصحابه زواجها بخالد فى ساحة القتال . فأشفق هذا
 الرجل المحنك البصير بالعواقب من عاقبة تسوءه وتسوء
 ابنته وتسوء خالداً فى جريرته . فاستمهله ولم يعجل بتلبية
 طلبه ، وقال له : « مهلاً ! انك قاطع ظهري وظهرك معى عند
 صاحبك » . . . ولكنه لم يلبث أن علم اصرار خالد حتى
 أجابه ورأى أن عاقبة القبول أسلم من عاقبة الإباء .

وكان خالد قد تلقى من الخليفة أمراً باستئصال كل من
 يحمل السلاح من بنى حنيفة ، فعادت الرسل الى الخليفة
 بخبر الصلح وخبر الزواج ، فحسب ان الأمرين مقترنان
 واشتد به السخط على عمل خالد بما وقع فى نفسه من
 حسبان ، فكتب اليه أعنف خطاب وجهه الى قائد من قواده
 أو وال من ولاته ، وسماه « ابن أم خالد . . . » وقال له فى
 خطابه : « انك لفارغ ! » ونعى عليه أنه « ينكح النساء ويفناء
 بيته دم ألف ومائتى رجل من المسلمين لم يجفف بعد »

وقد كتب خالد الى الخليفة يعتذر فى أنفة وعزة : « أما بعد
 فلعمري ما تزوجت النساء حتى تم لى السرور وقرت بى
 الدار ، وما تزوجت الا الى امرئ لو عمدت اليه من المدينة
 خاطباً لم أبل . دع انى استشرت خطبتى اليه من تحت
 قدمي . فان كنت قد كرهت لى ذلك لدين أو دنيا اعتبتك .
 وأما حسن عزائى على قتلى المسلمين فوالله لو كان الحزن
 يبقى حياً أو يرد ميتاً لأبقى حزنى الحى ورد الميت ، ولقد
 اقتحمت فى طلب الشهادة حتى أيست من الحياة وأيقنت
 بالموت . وأما خدمة جماعة اياى عن رأيى ، فانى لم أخطئ
 رأى يومى ولم يكن لى علم بالغيب ، وقد صنع الله للمسلمين

خيرا ، أوردتهم الأرض وجعل لهم عاقبة المتقين »
وقال في رسالة أخرى : « انى لم أصلحهم حتى قتل من
كنت أقوى به وحتى عجف الكراع ونهك الخف ونهك
المسلمون بالقتل والجراح »

وقد ظن خالد أن الخليفة لم يكن ساخطا عليه ذلك
السخط لولا أصفاؤه « للأعيسر » كما كان يسمى عمر بن
الخطاب ! ويخيل إلينا أن سخط الخليفة لم يكن ليبلغ به هذا
المبلغ لولا أن زواجه ببنت مجاعة كان مسبوقا بذلك الزواج
الذى خبطت فيه الظنون بعد مقتل مالك بن نويرة



وعلى هذا انقضى واجب خالد بن الوليد في حروب الردة
كأحسن ما ينقضى هذا الواجب ، وقام وحده بأوفر سهم
في هذه الحروب ، لأنه قمع أخطر الفتن في الجزيرة العربية
من أقصاها إلى أقصاها . فقمع فتنة بنى أسد وجلفائهم
وخطرها أنها كانت أقرب الفتن إلى المدينة ومكة ، وقمع
فتنة بنى حنيفة وخطرها أنها كانت فتنة القبيلة الأقوى
والعديد الأكثر بين العرب قاطبة ، وحقق كل ما ندبه له
الخليفة وكل ما اتفقا عليه ، سواء من الخطط التى نظرا معا
في تفصيلاتها أو من الخطط التى عرف خالد غاياتها وأبتدع
لها ما ارتآه من أساليبها فى أماكنها وأوقاتها . ولم يخالف
رغبة الخليفة إلا فى موضعين لهما - كما أسلفنا - علاقة
بمسألة زواج

أما الأولى - وهى زواج ليلى امرأة مالك - فقد تقدم
تلخيصها وجملة الراى فيه كما أسلفنا أنه عمل يحوج خالدا
إلى الاعتدال والتفسير ، وأنه صفقة كان خيرا له لو طويت

من تاريخه ، فما فيها مزيد افتخار ، وفيها على أهون القولين مقام اعتذار

وأما الأخرى فلا يسع أحدا أن يسهو فيها عن عجلة خالد الى الزواج على غير عادة القوم في ميادين القتال

ولكن لا يسع أحدا كذلك أن يتعدى هذا الى مظنة تمس نية الرجل أو تجعل صلحه لبنى حنيفة متصلا برغبته في الزواج بينت مجاعة زعيم الحنفيين في صلح اليمامة ذلك بعيد ، جد بعيد

لأن بنت مجاعة كانت بين يديه ، وكان في وسعه أن يقتل أباه نعمة من خداعه إياه ، ومرضاة للخليفة الذي أمره باستئصال من يحمل السلاح في القبيلة ، فهو يقتله ولا معتبة عليه

ولم يصلح خالد بنى حنيفة وهم مجمعون على قبول صلحه . بل كان منهم زعيم له أنصار واتباع - هو مسلمة ابن عمير - أبى أن يلعب لشروط مجاعة ومضى يهتف في قومه : « يا بنى حنيفة ! قاتلوا عن أحسابكم ولا تصالحوا على شيء ، فإن الحصن حصين والطعام كثير ، وقد حضر الشتاء »

فلما عارضه مجاعة وذهب برأى الأكثرين من قومه تمادى مسلمة بن عمير في لجاج الخصومة وأنسل الى فسطاط خالد يريد أن يفتك به ويشيع بموته الفتنة التي لا تؤمن مقابيلها في معسكره ومعسكر بنى حنيفة ، فتنبه خالد اليه وسأل : من هذا المقبل ؟ فعرفوه به فقال : أخرجوه عنى . فلما أخرجوه وجدوه يخفى السيف في ثيابه ، فلعنوه وأوثقوه في الحصن وأخذوا عليه عهدا لا يقربن بعدها من فسطاط خالد حتى تنتهى بيعة قومه على الإسلام . . . ولكنه غدر بعهدة وأفلت بالليل الى عسكر خالد مصرا على قتله ، فلما أدركوه دون

بغيته أجال السيف على حلقه فقطع أوداجه وآثر الموت على التسليم

ومع هذا بقيت بلدة « القرية » ووادي العرض في اليمامة لم يشملهما الصلح الذي شمل العسكر في عقرباء . فلم تكن مطاولة القوم خيراً من المصالحة في حالة كذلك الحال ، ولم يكن في طاقة المسلمين أن ينفذوا للمطاولة بعد أن قتل منهم من قتل وجرح من جرح ومضى على أكثرهم عدة شهور بين مشقة السفر ومشقة الهول والبلاء ، ولم يكن أرجاء التسليم مأمون الغبة إذا استثرت نخوة الحنفيين وفيهم من يعائد في الخصومة ذلك العناد ، ولقد يكون المستسلمون منهم أسرع إلى النكسة يوم يشهدون بأعينهم سبى النساء « غير حظيات » وقتل القادرين على الحرب من فتية وكهول

فدوامي خالد إلى الصلح أظهر وأرجح من أن يعتسف معها داع آخر غير معقول ولا مستساغ ؛ وأن الداعي الذي لا يعقل ولا يستساغ هنا لهو التعليل بزواجه من فتاة اليمامة ! وأيسر شيء لديه أن يسببها بعد قتل ذويها ، ثم يكون ذلك أدنى إلى رضى الخليفة وتحقيق ما أمر به ، قبل أن يطلع على الموقف في اليمامة من جملة نواحيه



وبعد فليحسب زواج خالد كله في أي سجل يشاء أن يحسبه الحاسبون

ففي سجل المفاخر الإسلامية شيء يحسب له بعد حرب اليمامة أن يطول فيه خلاف ، فتلك أول حرب ظهر فيها للمسلمين مصداق قول النبي عليه السلام أنه سيف من سيوف الله

كان الخطر على الدين الجديد من العرب أنفسهم ومن أمم

« الأعاجم » التى تحيط بالبلاد العربية
وقد رأينا نصيب خالد من وقاية الاسلام فى أرضه ، وهو
أوفى نصيب

وسنرى نصيبه من مراس الخطر الآخر وما هو بأكبر
الخطرين ، ولكن نصيب خالد فى مراسه كان أوفى النصيبين



الفتوح

أعظم عجائب التاريخ

في سبع سنين قصار فتح العرب كل ما اقتحموه من بلاد الفرس والروم فتقوضت في الشرق دولة الأكاسرة ، وتدامت في الشمال والغرب دولة القياصرة ، وزال سلطانها من الشام وفلسطين وإفريقية الشمالية ، وشغلت بنفسها زمانا عن الفاتحين وما فتحوه

عجيبة من أعظم عجائب التاريخ

لا يبرح المؤرخون حتى أيامنا هذه يأتون في تعليلها كل يوم بعقل جديدة ، ويفيضون في شرح السوابق واللاحق على النحو الذي يفسر العجب بالآلوف ، ويرد الدهشة الجائعة إلى قرار البحث والتدليل

وهو جهد لا نعرض له في هذا الكتاب ، ولا يلزمنا هنا أن نستقصيه ونحاول البت فيه

أما يعنينا منه شيء واحد وهو تقدير عمل خالد ، وتقدير الكفاية التي تضطلع بذلك العمل ، وليس تقدير ذلك بعسير ولو بقي التاريخ منشعب اللسان في استقصاء علل الهزائم التي نزلت بالفرس والروم

فالأسباب التي قضت على الفرس والروم بالهزيمة - كائنة ما كانت - ليست هي الأسباب التي قضت للعرب بقيام دولة وانتشار عقيدة ، لأن استحقاق أناس للزوال لا ينشئ لغيرهم حق الظهور والبقاء

كذلك لم يكن انتصار العرب على الفرس والروم لأنهم

عرب وكفى ، ولم تكن المسألة في لبابها كفاحا بين الاجناس والعناصر بما لها من المزايا وما فيها من العيوب

فقد كان في أرض الدولتين عرب كثيرون يدينون لهما بالطاعة وينظرون اليهما نظرة الاكبار والمهابة ، وكان القادرون منهم على القتال أوفر من مقاتلة المسلمين عددا وأمضى سلاحا وأقرب الى ساحات الصراع والشام من أولئك النازحين اليها من جنوب الجزيرة العربية

وقد كان هناك عرب كثيرون انهزموا أمام المسلمين وهم كذلك أوفر في العدد والسلاح وأغنى بالخيول والابل والأموال فهي نصره عقيدة لا مرأه

وينبغي أن يذكر المؤرخون هذه المسألة من جانبيها ولا يقصروا النظر فيها الى جانب واحد

فاستحقاق النظم القائمة للضياع هو في وقت واحد سبب ضياعها ، وهو حجة العقيدة التي تخلفها وتنتصر عليها في ساحة النزاع

اذ كان أدمى الدواعي لظهور عقيدة جديدة أن النظم القائمة قبلها لا تتماسك ولا تصلح لحماية ذمارها

فاذا قيل أن العقيدة الجديدة قد انتصرت لتداعى النظم التي اصطدمت بها فليس هذا تعليلًا وكفى ، ولكنه كذلك ثماعة وحجة للظهور ، ودليل على أنها حق صالح كأصلح الحقوق الكونية ، وأنها علاج عالمي مطلوب جاء في الأوان

لكن القول بانتصار العقيدة هنا لا يغنى عن كل قول أفكل مناضل متذرع بالعقيدة صالح في تلك الآونة للانتصار ؟

ينبغي أن يكون الأمر كذلك لو كان تعليل النصر بالعقيدة مغنياً عن كل تعليل

ولكن الواقع أن الذين انتصروا بالعقيدة كانوا رجالا أولى

خبرة وقدرة يؤمنون بها ويعرفون كيف يتطلبون بها على
أعدائها

وقد أفلح أناس وأخفق آخرون

فانهزم عكرمة بن أبي جهل وشرحبيل بن حسنة حيث
انتصر خالد في اليمامة

وخرج خالد وعياض بن غنم لفتح العراق من طرفيه في
وقت واحد ، فسار خالد من نصر إلى نصر ومن توفيق إلى
توفيق ، ولبت عياض يتردد ويقدم خطوة ثم يحجم أخرى
حتى أدركه خالد بالمعونة في دومة الجندل

وسبق خالد بن سعيد خالدا بن الوليد إلى الشام فغمر
به الروم حتى استدزجوه إلى مرج الصفر فأوغل وراءهم
ولم ينتظر حتى تدركه أمداد الخليفة التي أرسلها إليه تباعا
بقيادة عكرمة بن أبي جهل والوليد بن عقبة وذو الكلاع
الحميري ، فأحدثت به جحافل الروم وأوشكت أن تلتف به
من ورائه ، ولولا يقظة الخليفة وتلاحق أمداده في أوقاتها
لقضوا عليه

فلا انحلال الدولتين الفارسية والرومانية بمغن عن
الاعتراف للعقيدة المنشئة بحقها في الغلب وحاجة العالم إليها
في تلك الآونة

ولا العقيدة المنشئة بمغنية عن فضل رجالها وحماتها ،
وكفاية سواها وقادتها

فهي عقيدة منشئة بدود عنها حماة قادرون ، وكان خالد
ابن الوليد في طليعة هؤلاء الحماة



سبقه اسمه إلى أطراف الدولتين فحارب أعداءه بهيبته

قبل أن يحاربهم بسيفه ، وكانت هذه أول مزية لاختياره
وأول فضل يحسب له في ميزانه ويضاف الى قيادته ويعمل
عمله في نفوس أعدائه كما يعمل عمله في نفوس أتباعه

قال صاحب دومة الجندل لقومه حين سمع بمسيره اليه :
« أنا أعلم الناس بخالد . لا أحد أئمن طائرا منه ، ولا أصمد
في حرب ، ولا يرى وجه خالد قوم أبدا قلوا أو كثروا الا
انهزموا عنه . فاطيعوني وصالحوا القوم ! »

وكان الرجل من العرب يعيش في الشام ويهجر موطنه
الأول ولكنه يسمع باسم خالد ويتلقى أنباءه من وراء المهامه
والدروب ، فما هو الا أن ينضوي اليه حتى يوقن بيمين
طائره ويسرع الى طاعة أمره عليما بأنه لا يأمر الأمر الا وهو
قادر على انجازه . كما قال الشاعر الفارس عمرو بن العمد :
إذا قال سيف الله كروا عليهم

كررت بقلب رابط الجاش صارم
ويتناقل الرواة قصة لقائد من قادة الروم لا تقل فيها
دلالة الخيال عن دلالة الحقيقة ، أن كانت القصة من توليد
الخيال

قيل أن قائدا من قادة الروم اسمه جورج برز له في أكبر
وقائع الشام وسأله : أحق أن الله انزل على نبيكم سيفا من
السماء فأعطاكمه فلا تسله على قوم الا هزمتهم ؟
قال خالد : لا !

قال : فبم سميت سيف الله ؟
قال : تابعناه فقال أنت سيف من سيوف الله سله على
المشركين ودما لي بالنصر فسميت سيف الله . فأننا من أشد
المسلمين على المشركين

وكل هذا شبيهه بأن يكون
فإن لم يكن نبيا بخالد قد وصل الى كل عدو من أعدائه

فالدلي لا ريب فيه أن اتباعه كانوا على علم بنبيته فكانوا على ثقة بسداد رأيه ومضاء عزمه ، وكانوا يطمئنون اليه فيعملون معه عمل المطمئن الى نجاح سعيه ، وهذا هو فضل القيادة الصالحة في نفوس الاتباع

حالة الفرس والروم

خرج خالد وزملاؤه للقاء الفرس والروم بعد وفاة النبي عليه السلام بسنة واحدة ، وبعد حروب طالت في الجزيرة العربية عدة سنين

فلو كانت الفتن وموت الزعماء قاضية على كل أمة كيفما كان السبب وكانت البيئة لكان مصاب العرب كمصاب الفرس والروم في تلك الأعوام : فتن وفتن ، ونبي مات وملك قتل أو قيصر شاب ، فهؤلاء وهؤلاء في العلة سواء

لكن حركة العرب حركة انشاء ونماء

وحركة الروم والفرس حركة اختلال وتقويض

وجسم الفتى اليسافع مضطرب لا يستقر على حال ، وكذلك جسم الهرم الداهب ، ولكن شتان اضطراب واضطراب

كانت علل الفناء قد اصطلحت على بنية الدولة الفارسية يوم قصد خالد الى تخومها من ناحية السواد

وكانت علل مثلها - وإن كانت أخف منها - قد اصطلحت على بنية الدولة الرومانية الشرقية ، يوم قصدوا زملاؤهم القواد من شتى نواحيها قبل الشام والبلقاء : وهذه خلاصة وجيزة من الحالة يومئذ في الدولتين :

يقول شراح الحضارات أن الحضارات تبتدىء بمعنى روحى

قليل الظهر ثم تنتهي الى مظهر ضخم يتراخى به الزمن حتى لا تبقى فيه بقية من المعانى الروحية

وهذه هي الحالة التى كانت عليها دولتا الفرس والروم منذ اصطدامهما بالدعوة الاسلامية فى نهضتها الاولى

فى بلاد الفرس خفت صوت الدين ومضى على ظهور « زرادشت » مصلحهم الدينى الكبير زهاء أربعة عشر قرنا ، فرث الصالح من مذهبه وازداد الطالح سوءا على سوء

وخلف فى بيت الملك أمراء ضعفاء بعد آبائهم الاقوياء فشغلوا بالنزاع بينهم وأسقطوا هيبتهم فى بلادهم وغير بلادهم ونهكوا قوة الدولة فى فتن وبيلة وخيمة وترف أويل وأوخم . وما برحوا فى طغيانهم وتهافتهم حتى ولى الملك ازدشير فرأب صدعه وأوشك أن يعيده الى سابق مجده وتركه فى القرن الثالث للميلاد وهو موحد بعض التوحيد بالقياس الى ما كان عليه قبل ذلك من التفرق بين العشائر والرؤساء

ثم نكس النكسة الأخيرة وشاع فيه الفساد علوا وسفلا فبيل ظهور الدعوة الاسلامية . وكان الملك المعاصر للنبي عليه السلام كسرى أبرويز فثار به ابنه شيرويه فقتله ونكل بدوى قرياه ، وأعقب طفلا صغيرا فلم يلبث أن قتل وتولى بعده قائد الجيش شهريزار ، فنفس عليه القواد والعظماء منزلته المفصوبة فقتلوه وولوا عليهم بوران بنت كسرى أبرويز ، فلم تتم فى الملك سنة وبضعة أشهر حتى ماتت وخلفها فتى من بنى عمومتهما الأبعدين ، ثم قتل وخلفته بنت أخرى لكسرى أبرويز فقتلت ، وقتل من بعده الى أن تولى الأمر يزدرجد بن شهريار والدولة تترنح من فرط الامياء ومنيت فى أيامها الأخيرة بضربة قوية فى حروبها الخارجية : وهى غلبة الروم عليها وانتزاع مصر والشام منها ورد

حدودها الى دجلة والفرات بعد أن طفت على حدود آسيا
الصغرى ، وقبل هذا منيت بضربة دون هذه الضربة في
القوة والضحامة ، ولكنها أشد منها أثرا فيما نحن بصدده
من أحوال الدعوة الاسلامية : وتلك هي ضربة الهزيمة
« بدى قار » التي تقدم وصفها في أول هذا الكتاب . فإن
هذه الهزيمة أطمعت فيها العرب بعد مخافة وهيبة ، ولا سيما
العرب المقيمين بجوار ذى قار وأرباض السواد ، ومنهم جند
خالد وزملائه الذين تقدموا لمنازلة الفرس في العراق

وساءت من جراء ذلك كله شؤون الأمة في الديار
الفارسية ، فهاكك العلية على المظاهر وانغمسوا في الترف
واستكثروا من النفائس والأموال وشغلوا عن سواد الأمة
فشاع بينهم الفقر والضعف والتلذذ وبغض الحكام ،
ولم يعلموا فيهم هم مسوقون ، وعلى أى شيء يتقاتلون
ويتفانون . وهى حال تؤذن بالتصدع والانحيار لأول صدمة
تهز الأركان والجدران

ومن أعجب العجب أن يفتن رجل كالغيرة بن شعبة
لدلالة هذه الحال ، وهى معدودة في عصرنا من دروس علوم
الاجتماع والتاريخ التى لا يصل اليها الباحث الا بعد مقارنة
واطلاع واسع مستفيض ، ولكنه العجب الذى يفسر لنا
ما هو أعجب منه : وهو وفرة نصيب العرب يومئذ من
أقطاب الرجال ذوى الحنكة والنظر البعيد ، وانهم قد ظفروا
لأنهم كانوا على أهبة فى هذا الباب حرمتها كلتا الدولتين ،
على كثرة من بهما من الزعماء أصحاب المظاهر والشارات

دخل المغيرة بن شعبة على رستم بطل الفرس المشهور في
التواريخ والأساطير فجلس معه على سرير . فاستكبر
أعوانه هذه الجراة من ذلك البدوى « المغرور » واجتذبه
من مكانه على السرير فى عنف شديد . فما اهتر المغيرة ولا
استكان ولا زاد على أن قال : لقد كانت تبلغنا عنكم الأحلام

ولا أرى أسفه منكم . أنا معشر العرب لا يستعبد بعضنا بعضا ، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتوأسى - أى نساوى - فكان أحسن من الذى صنعتموه معى أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض . ان هذا الأمر لا يستقيم فيكم ولا يصنعه أحد . وانى لم آتكم ولكن دعوتمنى ... اليوم علمت أنكم مغلوبون ، وان ملكا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول »

كلمات من ذهب !

لو كان فيمن سمعها من الفرس من يضارع المغيرة لقال في جوابه : « واليوم علمنا أنكم غالبون ، وان أحق الملك أن يقوم له قائمة هو الملك الذى قوامه من هذه السيرة وهذه العقول »

على أن الأمم لا تغفر من الأحلام كل الاقفار فى أظلم ظلمات الجهالة والادبار ، فقد وزن « يزدجرد » . شأن العرب والفرس بالميزان الصحيح حين قال لرستم : « انما مثلهم ومثل أهل فارس كمثل عقاب أوفى على جبل يأوى إليه الطير بالليل ، فتبيت فى سفحه فى أوكارها . فلما أصبحت تجلت الطير فأبصرته يرقبها . فان شد منها شيء اختطفه . فلو نهضت نهضة واحدة رده ، وأشد شيء يكون فى ذلك أن تنجو كلها الا واحدا . وان اختلفت لم تنهض فرقة الا هلكت ، لهذا مثلهم ومثل الاعاجم »

وصف صادق من جملة أطرافه

وعلامه من علامات الانحلال أن لا ينفع الوصف الصادق ولا يهدى العارفين به الى رأى متفق عليه ، كما يعرف المرض ولا ينتفع بعرفانه فى العلاج اذا شارف الجسم الفناء . ولهذا اتفق يزدجرد ورستم على الصفة ولم يتفقا على العمل النافع مع العرب فافترقا مختلفين

وكما بقيت لأهل فارس يومذاك مسكة من حلوم بقيت

لهم كذلك مسكة من مروءة الفرسان ، أو على الأصح مسكة
من المراسم والمآثورات الحربية ، وهم أولع أمة بالمراسم
والمآثورات كافة

وهذه المسكة شرف للقادر ولكنها بلاء على العاجز
المتخاذل ، كأنها الوثبة التي تعجل بالهلاك أن وثبها المريض
الهزيل ، وانها في الأقوياء لمعان على المجد والطموح

فربما أقدموا على القتال وهم يحسبون أنهم مقبضون على
مباراة في حلقة صراع ، ينظرون عدوهم حتى يصل إليهم
كما ينظر المصارع نده حتى يأخذ بعضديه في أمان !

ففى وقعة الجسر أقبل بهم من جاذويه ومعه راية الفرس
الكبرى من جلود الثمور طولها عشر أذرع وعرضها ثمان ،
وبين يديه جيش يربى على جيش المسلمين مرات . فأرسل
إلى أبى عبيدة قائد المسلمين يقول له : أما أن تعبروا إلينا
وندعكم والعصور وأما أن تخلوا بيننا وبينه ! فتعجل
أبو عبيدة وعبر النهر على جسر نصبوه ، والفرس ينظرون !
مثل هذه المراسم جهل بحقيقة الحال ، وحقيقته أنه صراع
حياة وموت بين أمتين ، وليس بحلبة سباق أو حلقة
رهان بين لاعبين فى ملهاة



أما دولة الرومان الشرقية فقد كانت فى حال لا تفضل
حال جاريتها وعدوتها فى محنة العقيدة ومحنة النزاع على
الملك والولاية

ضرب المثل بالجدل البيزنطى فى التاريخ القديم والحديث
من جراء الخلاف على المذاهب الدينية فى الدولة الرومانية
الشرقية ، وكان معظم أبناء الولايات من النساطرة واليعاقبة
يخالفون مذهب الدولة الرسمى ويمقتون رجاله ويرمونهم

بالهرطقة والوثنية ، وكان القائلون منهم بالطبيعة الواحدة
للسيد المسيح أقرب الى الاسلام منهم الى المسيحية
وأبتدل هرش الملك بالقتل والاغتصاب فضعف الولاء له
في نفوس العلية وقواد الجيوش . وقد استقر الأمر زمننا
للقصر هرقل الذي حضر عهد النبي عليه السلام ولكنه
شقى بالفتن في أخريات عهده وركبته الوسوس في
شيخوخته ولاسيما بعد بنائه بنت اخته ، فاعتقد أنه
مغضوب عليه مستحق لعقاب السماء

ومن كان من الرعية ذا دين غير المسيحية فهو ساخط
ناقم كاليهود والوثنيين . . . لأن رؤساء الكنيسة والدولة
اتهمهم غير مرة بالتواطؤ على فتح البلاد مع المغيرين عليها
من الفرس والبرابرة ، فالتخنوا فيهم قتلا وتشريدا حتى قيل
أنهم كانوا يفتكون في المذبحة الواحدة بعشرات الألوف من
الرجال والنساء والأطفال

وهاشت في ظل الدولة الرومانية قبائل غسان وجدام
وكلب وتنوخ وغيرها من قبائل العرب فكانت تعينها
وتستعين بها على منافساتها من قبائل المناذرة في الحيرة .
ولكن غلبة الفرس تارة وغلبة الروم تارة أخرى على تلك
البقاع ضيع الثقة بالدولتين . وهيا نفوس العرب لقبول
دعوة جديدة ولاسيما الدعوة التي تأتيهم من أبناء جنسهم
في الجزيرة العربية ، وبها اعتزازهم على العجم كافة من فرس
وروم . واتفق في تلك الفترة انقطاع الهبات التي كان
رؤساء العشائر يلقونها من قياصرة الدولة وولاتها فبرموا
بها وودوا لو انقلبوا عليها ساعة يأمنون كيدها ويوثقون
الصلة بينهم وبين خصومها

ويؤخذ من رسالة فجيتيوس Vegetius في علم الحرب
أن نظام الجيش الروماني في الغرب والشرق كان قد تعاوره
الخلل قبل ظهور الدعوة المحمدية بأكثر من قرنين . ففي

هذه الرسالة يقول فجيتيوس الذى يعدونه امام أساتذة الحرب بين الغربيين أن « اللجيون » قد وهن واضمحل ويذكر من أسباب وهنه واضمحلاله أن مناصبه الكبرى أصبحت تمنح للمحاباة والصنيعة بعد أن كانت وقفا على الكفاية والخدمة الطويلة ، وأن عامة جنوده يهربون منه ويؤثرون الخدمة في الفرق المتطوعة لأنهم يستثقلون تمريناته وأسلحته ويستقلون جزائه ويضيقون ذرعا بوطاة نظامه

وقد اتاحت للرعية في الشام والبلقاء فرصة حسنة للمقارنة بين حكم العرب وحكم الرومان قبل الوقائع الفاصلة التي دارت فيها الدائرة على الجيوش الرومانية . فقد كان رجال الجيش الرومانى يهبطون المدينة فينهبون بيوتها وغلاتها ويستبيحون أمراضها ويهتكون حرماها ويسكرون ويعربدون فلا يأمنهم أحد مطموح في ماله أو غير مطموح منه في شيء على الإطلاق ، وإنما هي العسيرة والضراوة والاستخفاف . ثم جاءهم قوم لا يعتدون على عرض ولا يقربون الخمر ولا يعفون عن يقربها منهم ولو كان من عليتهم ، و يقيمون في المدينة ثم يرحلون عنها فيردون الجزية الى أهلها لأنهم إنما أخذوها لحمايتهم وحمايتهم . فكانت المقابلة بين الحكمين مدعاة الى التراخى في الدفاع عن الحكم القديم وتمنى الغلبة للحكم الجديد . وقد تتجاوز ذلك الى المساعدة الظاهرة كما حدث من بعض العرب المسيحيين والوثنيين على السواء



بل ربما تجاوزت كل هذا الى ازعاج ثقة القادة بأنفسهم عند المقابلة بينهم وبين قادة خصومهم . فمما يروى في هذا المعنى وهو كثير أن أخا القيصر وقائده سأل رجلا من قضاة عن شأن المسلمين بعد ما أقام بينهم أياما فقال له :

« هم رهبان بالليل فرسان بالنهار ، لو سرق ابن ملكهم قطعوا يده ، ولو زنى رجموه اقامة للحد » . فقال القائد :
« لئن كنت صادقا لبطن الارض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها »

ولما بدأت المعارك بين العرب والدولتين كان العرب ربما اخطأوا فلم يضربوا ضربتهم في موضعها فيتسع لهم الوقت لاصلاح الخطأ والرجوع الى الخليفة لطلب النجدة والمشورة ، لان اعداءهم مشغولون ابدا بنزاع او فتنة او ربيعة . اما الروم والفرس فلم يكن لهم متسع لاصلاح خطأ يخطئونه وكثيرا ما كانوا يخطئون . فبدأت المعارك بين الفريقين وعند احدهما كل مظاهر الاسباب التي تدعو الى النصر وعند الآخر كل حقائق الاسباب التي تدعو اليه



وقد اتفقت كلمة الصحابة على حرب فارس والروم وسيف الله بوادي الوبر في اليمامة لم يطل استقراره في عهده بعد وقعة عقرباء

وهناك حلقات من الحوادث تسوغ لنا أن نعتبر حرب فارس الثانية امتدادا للوقعة الاولى بلدى قار ، أو استثنافا لتلك الوقعة بعد فترة لا تحسب طويلة في تواريخ النزاع بين الأمم ، وهي نيف وعشرون سنة

فالقبايل التي ارتدت بالبحرين وقبائل تغلب التي انحدرت مع سجاح من الجزيرة كانت كلها من اتباع الدولة الفارسية على صورة من صور التبعية في ذلك الزمان ، وكانت تعيش كلها في ظل تلك الدولة من أيام المناذرة الى زوال ملكهم بعد وقعة ذي قار

والبطلان اللذان تعودا ضرب الفرس والإغارة على

دهاقينهم في تلك الاصقاع كانا من بنى بكر الذين نهضوا
بالعبء الأكبر في وقعة ذي قار ، وما برح العداء بينهم وبين
الفرس والقبائل التي تواليهم على أشد ما يكون : وهما المثنى
ابن حارثة الشيباني وسويد بن قطبة العجلي . وكلاهما على
ذكر من هزيمة الفرس وعلى خبرة بقتالهم في أطراف العراق .
وقد صاحب المثنى النهر في غاراته حتى بلغ القطيف وهجر
ولم يقف له أحد في طريقه . فهذا مع عجز الفرس عن
تأديب رعاياهم في اليمن لدخولهم في الاسلام قضيا على تردد
الخليفة في أمر البعثة الفارسية ، فصحت هزيمته وعزيمة
أصحابه على تجريدتها بعد الفراغ من حروب الردة بأسابيع
معدودات

وقد علمنا من دأب الخليفة الصديق أنه كان لا يبرم أمرا
الا أحكم تدبيره في مرحلة مرحلة من طريقه الى منتهاه

وهكذا كان شأنه في البعثة الفارسية . فانه ندب لها
قائدين هما خالد بن الوليد وعياض بن غنم ، وأمر خالدا أن
يتجه الى الإبله ثغر الهند كما سماها ، وأمر عياضا أن يتجه
الى المصيخ بشمال العراق . فأيهما بلغ الحيرة قبل الآخر
كان هو قائد الجيشين معا ووجبت طاعته على زميله ، وقال
لهما : « اذا اجتمعتما بالحيرة وقد فضضتما مسالح فارس
أمنتما أن يؤتى المسلمون من خلفهم فليكن أحدكما ردما
للمسلمين . ولصاحبه بالحيرة وليقتحم الآخر على عبو الله
وعدوكم من أهل فارس دارهم »

خطة محكمة يبلغ بها الخليفة مقاصد شتى في وقت واحد .
ففيها اذكاء المنافسة بين القائدين ، وفيها تشتيت جهود
الفرس في الدفاع عن بلادهم ، وفيها تدبير النجدة سلفا
لمن يحتاج اليها من الجيشين ، وفيها تيسير أمر الماء والكلأ
في الطريق للجيشين معا ، لأن أمواه الطريق ومراميه تضيق
بالجيشين المجتمعين اذا سارا في طريق واحد

وكان الصديق واخوانه يعلمون أن المسألة في هذه الحرب مسألة يقين وعزيمة وليست مسألة كثرة وهيئة

فحرص لهذا على أن يجنب الجيوش الاسلامية مخاوف المرتدين ونكساتهم ، وأوصى القائدين ألا يقبلا أحدا منهم ، ولا يكرها أحدا من غير المرتدين على المسير في جيشهما ما لم يقبل على الحرب برضى منه ورغبة . ولما نظر خالد الى من حوله يرفض كثيرهم ويبقى قليلهم كتب الى الخليفة يستمده فأمدّه بفارس واحد هو القعقاع بن عمرو التميمي ! فعجب أصحابه وقالوا له : أئمنه برجل واحد ؟ قال : نعم ! لا يهزم جيش فيهم مثل هذا !

ولم تمض أيام حتى ظهر للمسلمين أنه مدد كاف وإى كفاية ! فان ثقت الناس بجيش يكون القعقاع فيه ويتولى قيادته خالد بن الوليد قد جاءت بالمتطوعين للقتال من كل صوب وحذب . فبلغ جيش خالد يوم شارف ميدان القتال حتى كانت للقعقاع وقفة لعلها انقذت الجيش كله يبلغ ثمانية آلاف . ولم يتقدم المسلمون خطوة في ميدان القتال حتى كانت للقعقاع وقعة لعلها انقذت الجيش كله وانقذت البعثة كلها من ميدانها ، ولم يكن أحد يعلم ماذا تكون العاقبة لولا تلك الوقفة التي تعلق بها الكثير من مصير جيش الفرس ومصير جيش المسلمين

ففى الوقعة الاولى دعا القائد الفارسى - هرمز - خالدا للمبارزة قبل التحام الجيشين ، وأضمر نية الغدر به حين يخرج منفردا بين الصفتين ، فوكل به شرذمة من فرسانه ينقضون عليه وهو مشغول بمبارزته فمراع الجيش العربى بمقتل قائده كما سبق الى وهمه ، ويطبق الجيش الفارسى بعدده الكبير على الجيش العربى بعدده القليل فتكون الغلبة لأكبر الجيشين واكمل العدتين !

وأوشكت هذه المكيدة أن تتم على النخو الذى دبزه هرمز

لولا أنه أخطأ الحساب في اغتراره بقوته وجهله بصولة خالد في مبارزته ، فظن أن الجولة بينهما تطول قبيل أن يخرج فرسانه للغدر بخالد ، ولكنه صرع في جولة واحدة وفوجيء أصحابه بهذه السرعة فاقتربوا من خالد على عجل وهو مشغول بالأجهزة على قائدهم ، وإذا بالقعقاع أسرع اليهم من لمح البصر ومن ورائه جيش المسلمين بجملته يضرب في قطيع مدعور مأخوذ بالمفاجأة ومهابة هذه الصولة العاجلة . فكانت وقعة اليوم وقعة رجلين في جولة واحدة ، تلتها الجولات اللاحقات التي ترسمت خطاها وسارت على هداها



سار خالد الى العراق في أوائل السنة الثانية عشرة للهجرة النبوية . واتم في سنة واحدة ما أعصى الرومان أن يتموه في أجيال

وقد تكتب في شرح وقعاته بالعراق مجلدات طوال يستغرق بحثها ومعارضة رواياتها مئات الصفحات ، ولكننا لا نتوسع في ذلك الشرح هنا لأن أعمال خالد تعيننا في هذا الكتاب لمقصد واحد ، وهو الرجوع الى مصدرها من نفسه وعقله ومقومات شخصه

وفي هذا حسبننا أن نقول على الاجمال قبل الاشارة الى وقعاته انه لقي الفرس وأولياءهم في خمس عشرة وقعة لم يهزم ولم يخطيء ولم يفشل قط في واحدة منها ، وأن قوادا من المسلمين أخطأوا في حروب الردة وحروب الفرس والروم كما حدث من عكرمة وشرحبيل وأبي عبيدة وخالد بن سعيد ، ولكن خالد لم يخطيء قط عن خدعة أو عجلة أو قلة أهبة ، وكان يسير بجيشه أبدا على تعبئة كاملة ليقاتل عدوه حيث لقيه مفاجئا أو غير مفاجيء ، وكان أبدا كما

وصفه عمرو بن العاص « في أناة القطاة ووثبة الأسد » فلا يهمل الحيلة ولا يجعل التعويل كله على الشجاعة دون الخزم والحيلة ، ولا يعز عليه أن يتحامي لقاء عدوه في بعض الساحات لينتقل به الى المكان الذي هو أصلح لحركاته وأعون له عليه . ومن علمه يفتنون القتال أنه كان يحارب بثمانية عشر ألفا وكانه يحارب بخمسة أضعاف هؤلاء . فإذا أرسل أربعة آلاف أو ثلاثة آلاف الى مكان يفتنون فيه فذلك أجدى من تسيير الجيش كله أو تسيير عدد منه يربى على الحاجة الضرورية ، فإن طرأ في خلال سيره ما ليس في الحسبان فمعه في هذه الحالة على سرعة خاطفة كسرعة الباشق وهو ينقض على فريسته ، فلا تشعر الفرقة التي اشخصها الى مكانها بالحاجة اليه حتى يكون معها كأنها لم تفارقه ولم يفارقها

فهي شجاعة ويقظة وخبرة وسرعة ومعرفة بما هو لازم في وقت لرومه ، ولم تخذله خصلة من هذه الخصال قط في ساحات فارس ولا في ساحات الشام ، مع اختلاف الميادين واختلاف الأحوال واختلاف الأعداء

وقد كانت تعبئة خالد في المسير تشبه التعبئة التي جرى عليها العرف في أيامه ، وهي قسمة الجيش الى ميمنة وميسرة وقلب وطليلة تسبقه ، وردء يلحق به ليحمي ظهره أو يلبث في موضع من المواضع كميناً ينزل الى الساحة على غير انتظار ، لتقوى به سواعد أصحابه وتدخل به عزائم أعدائه . ولكنه كان عند القتال يفتن باتخاذ طريقة الهجوم أو الدفاع كما توحى بها ضرورة الساعة . فيقاتل بالصفوف كما يقاتل بالكراديس ، ويواجه خصمه أو يدور عليه ، ويترأجع أمامه أو يعمق في الهجوم على كبة جمعه ، ويحصره أو يخلى له سبيل الهرب ، حسبما تدور به المعركة في أثنائها أو توحى به طوالها قبل ابتدائها

فلما عقدت له القيادة على البعثة الفارسية أرسل جيشه على فرق ثلاث من طرق مختلفة ، فقدم المثنى على رأس فرقة ثم الحق به على بن حاتم صاحبه في حرب بنى أسد ، ثم لحق بهما على رأس جيشه وواعدهما موعدا إلى الجنوب الغربي من البصرة الآن ، ولعله توخى تسهيل السقى والمرعى بهذا التقسيم ، ثم اختار الطريق بقيادة الرجل الذي كانت له سابقة الدراية بهذه الدروب

وكتب إلى هرمز قائد الفرس يخبره بين الاسلام والجزية أو الحرب ، ويقول له في ختام كتابه الوجيز : « جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة »

ثم عدل إلى كاظمة بعد أن كان موعدة الأول « الحفير » لأنها كانت على ما يظهر أوفق لتعبئة جيشه

وهناك التقى بجيوش الفرس - وعلى رأسهم هرمز - فوقعت بينهم الوقعة التي سبقت الإشارة إليها وتعرف باسم ذات السلاسل ، لأن الفرس كانوا يؤثقون أنفسهم فيها بالسلاسل جماعات جماعات ليثبتوا في القتال ولا يتأثى لهم الفرار أن أرادوه . ولئن صح هذا لقد كانت مخاوف الشك فيه أظهر من صدق العزيمة والطبائنة إلى النية القوية

ولما تبدد جيش هرمز تعقبه المثنى بن حارثة وعبر الفرات ليأخذه متفرقا قبل أن تتجمع فلوله حيث تأمن احتشاث الملاحقة وراءها ، ولكن الفرس علموا بعد مقتل هرمز وتفرق جيشه أنهم مهددون في « المدائن » عاجضة ملكهم فحشدوا لملاقاة المسلمين جيشا عظيما بقيادة قارن بن قريانس يعاونه أميران من بيت اردشير . فادرك فلول هرمز في « المذار » وضمهم إليه ، وكان المثنى قد علم بخروج هذا الجيش العظيم واجتماع الفلول المتفرقة إليه فكتب إلى خالد يستأمره ويستمدده . فكان خالد هو الجواب

ووصل خاله الى المذار وهو كامل التعبئة فتصدى قارن لمبارزته على عادتهم قبل ابتداء القتال ، فنهض اليه خالد ومقل بن الاعشى يستبقان ، وأراد مقل أن يحمي خالدا من مثل مكيدة هرمز فيتلقي الضربة دونه أو يسبقه الى قتل قارن ، وبرز عدى بن حاتم وعاصم بن عمر المنازلة الاميرين ، فظفروا بهم جميعا ثم اشتبك الفريقان في ملحمة حاربوا فيها كما قال المؤرخون حرب حثق وضغينة ، وبلغ بعضهم بعد القتلى من الفرس ثلاثين ألفا ، ولولا النهر ولياذ الفرس بالسفن لكانت المقتلة أعظم من ذلك ولم يكد يغلت من الموت أحد



ورانت الحيرة بعد وقعة المذار على عقول القادة من الفرس فخيّل اليهم أن في هؤلاء العرب سرا لا يدركونه وأحبوا أن يحاربوا آفتهم بأقّة من جنسها فاستعانوا بأوليائهم من أبناء القبائل العربية . فيما بين النهرين ، واشترك هؤلاء في كثير من الوقائع التي دارت بين الفرس والمسلمين بعد وقعة المذار ، وضايقوا المسلمين غير قليل في الوقعتين التاليتين بالوجة واليس

وكان خالد كعادته في الخيطة والمبادرة . فاستبقى طائفة من جيشه في البلاد التي فتحها حماية لظهره واستعدادا لمن يجترئ عليها بعد مسيره . وتقدم الى الوجة على تعبئة كاملة بمن معه جميعا ، ثم فصل طائفتين من الجيش أثناء الطريق ليكمنّا على مقربة من الوجة ويلتفا في ساعة الخرج بالجيش الفارسي من ورائه . فطالت المدافعة والمراوغة بين الفريقين قبل أن يظهر الكمينان . وتردد النصر بين الفرس والمسلمين تارة هنا وتارة هناك حتى ظن الفرس أنهم من النصر قاب قوسين أو أدنى . ثم ظهر أحد الكمينين وظهر

الكمين الآخر قبل أن يفيق الفرس من دهشة الكمين الأول.
فتولاهم اعياء اليأس بعد اعياء المصابرة والمجاهدة ، وولوا
مدبرين وهم يتخفون من السلاح والعتاد في مهربهم ...
فكثر منهم القتل والأسرى كما كثر نصيب المسلمين من
الغنائم والأسلاب

وجاءت بعد وقعة الولة وقعة «اليس» وهي أعجب الوقائع
في حرب العراق بما اتفق فيها من صنوف الحيلة وصروف
المقادير ومعارض النقمة وعواقب المرجاء مع الغالب وعواقب
اليأس والقنوط مع المغلوب ، ولعلها هي الوقعة الحاسمة
في النزاع بين المجوسية والاسلام

راع الشاهنشاه تلاحق الهزائم على جيوشه ، وغاز
العرب المواليين له أن يؤخذوا في حماهم وأنفوا أن يهانوا ولا
يراهم الناس كفاء لتلك القبائل المواقلة عليهم ، فتلاقوا في
الرقعة الوسطى بين ديارهم جميعا وهي اليس ، وانتظروا
هناك جحافل من الفرس وعدوهم أن تربى في العدد والعدة
على كل جيش نزلوا به الى الميدان في المعارك الماضية

وهنا تتراى في الموقف اصبح المقادير

فان « بهمن جاذويه » قائد الفرس الذي أمره الشاهنشاه
بالمسير الى اليس اناب عنه قائدا آخر يدعى جابان وشخص
هو الى المدائن ليلقي مولاه ويقلب معه الامر على وجوهه في
مسائل شتى لا تغنى فيها المراسلة غناء الحديث والمشاهدة ،
وليأتى من المدائن بمدد آخر يضاف الى جيشه الاول والى
جموع القبائل العربية عند الفرات وقال لجابان وهو يودعه
« كفك نفسك وجندك عن قتال القوم حتى ألحق بك ، الا
أن يعجلوك »

وبلغ المدائن فاذا مولاه مريض يجرى بنفسه، وليس نظام
الوراثة على عرش فارس في ذلك الحين من الوضوح

والاستقرار بحيث يطمأن اليه اذا مات الملك والجيش بعيد
والتربصون كثير والشيع في البلاد أكثر من المتربصين
فمضى بهم في المدائن ، ووصل جابان الى أليس قبل أن
يصل اليها خالد فالقى أثقاله وأمر بتهيئة الطعام . ووصل
خالد وهم مقبلون على طعامهم لا ينتظرون وصوله . فلبثوا
على طعامهم لأنهم أمروا من جهة ألا يعجلوا الى القتال حتى
يوافيهم قائدهم الكبير ، ولأنهم من جهة أخرى لم يحسبوا
أن خالد يلقى أثقاله وهو على تعبئة كاملة مستعد للنزال
في كل لحظة ، ولأنهم على ما يظهر كانوا يواجهون القتال
أبدا كأنهم يواجهون ساحات الصوالج والأكبر أو ساحات
المباراة في « الألعاب الرياضية » . . . وانما تبدأ فيها المباراة
باتفاق الطرفين !

ولكن خالد ضرب ضربته الأولى في الجموع العربية فقتل
قائدها وأثنى القتل في صفوفها ، وثار الفرس الى السلاح
مكرهين لئلا يمهلوا خالد حتى يفرغ من الجموع العربية
ويتحول اليهم بين لحظة وأخرى

فثبتت الجموع العربية حين أسعفتها النجدة ، وثبت
الفرس وطال بهم الثبات لعلمهم أنه صبر ساعات ثم يدركهم
قائدهم الكبير . وابتلى المسلمون من هؤلاء وهؤلاء ببلاء لم
يعهدوه من القوم قبل ذلك اليوم . فاشتد الأمر بخالد وثاب
الى الله يستلهم العزم للمسلمين وينذر له الضحايا ان منحه
اكتاف أعدائه : « فلا يستبقى منهم أحداً يقدر عليه حتى
يجرى نهرهم بدمائهم » . وفي هذا النذر بقية من البدوية
المخزومية لا تخفى على اللبيب

وطال صبر الفرس فنقد

وتساقطت رؤوس العرب الموالين لهم فجزعوا

ولاحت لخالد لوائح النصر الذي سسأله الله ، فلم ينس

نذره ونادى فى المسلمين : « الأسر ! الأسر ! لا تقتلوا الا
من امتنع » . . . لأنه نذر ليجرين النهر بالدماء . . . فليجر
النهر اذن بالدماء

وأمر بضرب أعناق القوم فى النهر وقد حبس مائة فلم
يجر بالدماء ! لأن الدماء تترقرق ولا تسيل ولو قتل أهل
الأرض كما قال له أصحابه . فاطلق الماء فسال بالدم الأحمر
قانيا ثلاثة أيام !



وحمدى ما يقال فى الاعتذار لخالد من هذه النعمة المفردة
فى تاريخ صدر الاسلام أنها كانت شرعة الحرب فى تلك
الأيام ، وأنه كان يدين بها أناسا صنعوا بالملل الأخرى مثل
ما صنع بهم فى هذه المعركة ، وعاملوا أسرى الحرب ومن لم
يحاربوهم قط مثل هذه المعاملة فى حروبهم مع العرب
والدولة الرومانية ، وإن خالدا حسب أن هذه الذبائح قربان
الى الله . . . ودماء المشركين أشبه القرايين بميادين الحروب !
وهو حسبان يوائم صرامة طبعه ويحيك فى صدر رجل
الحرب وسليل رجال الحرب منذ أمد بعيد ، وأكبر الظن
عندنا أنه لو كان قائد الجيش رجلا ممن طالت صحبتهم
للنبي عليه السلام كآبى عبيدة أو سعد بن أبى وقاص أو
عمر بن الخطاب لتوسل الى الله بغير هذه الوسيلة حين أزم
الموقف وجد أجده فى معركة أليس . فقد صفح عمر بن
الخطاب عن أسرى السواد وظفر المسلمون بألوف الأسرى
فى معارك العراق والشام ومصر فسرحوهم وعاملوهم بحكم
الأسرى فى القرآن الكريم ، وقد اختلف فقهاء المسلمين فى
جواز قتل الأسرى من غير مشركى العرب ، فلم يجره من
أجازهم منهم الا لحسن مادة الفساد ، أن خيف ألا تحسم بغير

هذه الذريعة • وقد كانت مادة الفساد في أعقاب الدولة
الساسانية خليقة - ولا نكران - بضربة من أمثال هذه
الضربات ، فقد أعييت فيها الحيلة من دعوة واقناع ومصابرة ،
وكانت النكبة بدوام هذه الدولة أشد على الفرس أنفسهم
من نكبة القتل في تلك المعركة الشعواء ، وهي في غرابة
صروفها أدنى أن تحسب من معارك الأقدار ، وتلك هي
المعارك التي يراد فيها الغالب والمغلوب على الأمر ، ولا
يريدان فيه

وقديما علمنا من طوارق الحرب والسلام أن الشر المحض
والخير المحض في هذه الدنيا عزيزان أو مستحيلان • فهذه
النقمة الخالدية جاءت على غير المألوف في حروب صدر
الاسلام ، ولكنها عجلت بختام عهد موبوء كان لابد له من
ختام ، فخلعت القلوب وصكت الركب وزلزلت سلطان
الطغاة في بلاد الفرس بل في بلاد الروم ، وكان من جرأها
أن الأمصار التي كانت تفزع من حصار خالد لها كانت
تلقى بأنفسها في أحضان غيرة من قادة المسلمين ، كما
أسرع أهل دمشق إلى ابن الجراح يلتمسون مصالحته مخافة
الفتح عنوة على يد ابن الوليد



كانت هذه الوقائع تتوالى يوما بعد يوم وتتوالى معها
البرد إلى المدينة بأخبار النصر وغنائم القتال ، فلا يفرغ
الناس من حديث بريد حتى يتبعه ما وراءه بنصر جديد •
وسبقت ضربات خالد كل آمال الآملين في سرعة الظفر
بدولة الأكاسرة • فقال أبو بكر وهو يبلغ الناس أنباء
الظفر ليزفوا بشرآها إلى الجزيرة العربية : « يا معشر قريش
عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله ... أعقمت
النساء أن يلدن مثل خالد ؟ »

ثم سلمت الحيرة - بلد النعمان وموئل نابغة بنى ذبيان - فكان لتسليمها صدى بين أبناء العروبة لا يعدله صدى الفتح فى بلد من البلدان ، لأنها كانت فى عالم الشعر والبلاغة حديثا على كل لسان

الا أن الخليفة الذى عرفناه رجلا حسيص الجراة ، جرى الحصافة، لم ينس اليقين مع الحيطه ولم ينس الحيطه مع اليقين . وأدركه الحذر فى هذه المرحلة من مراحل الحرب فجنح الى الاناة والتريب وأخذ بعنان خالد فلم يأذن له أن ينطلق وراء الحيرة حتى يوافيه زميله عياض بن غنم ويأمن كلاهما من ورائهما غدرات الطريق . وحجة الخليفة فى ذلك أظهر من أن تخفى . فمن تجاوز الحيرة أحاط به الفرس من اليمين والروم فى الشام من اليسار . ثم ان السواد نفسه اقليم حديث العهد بالاسلام لم ترسخ فيه قدمه ولا يؤمن تركه والتطويع بعده الى حمى الدولة الفارسية فى عواصمها من وراء النهرين ، وقد نعى اليه ولا شك أن قلوب العرب المهزومين هجروا حوض العراق وأوغلوا فى الصحراء الى دومة الجندل يتجمعون ويتربصون ، وفى الشام أراجيف عن تعبئة القيصر لجيوشه لا تغمض عنها العيون قبل أن تستقر الطرق وتمهد مواطىء الفتوح ، فان لم يخرج عياض ابن غنم من معاقل دومة الجندل بين العراق والشام مالكا زمامها وزمام ما حولها فكل خطر هنالك محتمل، وكل عجلة قد تجر الى وبال

ولكن الفرس الكريم الذى يحبس فى الحلبه يعانى من أمان الحبس ثقلة لا يعانيتها من تعجل العواقب ومكافحة الاخطار . فحز فى طبع خالد جذب العنان وأقام فى انتظار زميله قزابة عام وهو يسميه «سنة نساء» ولو كتب لرجل غيره أن يظفر فى هذه السنة «المستريجة» بمثل ما ظفر به لارتضاء لنفسه سجل عمر كامل ، لاله خاض ثمانى وقائع

فيما يليه من البلاد لم يحسبها وقائع تحصى ! وله في كل
وقعة منها نصر يعتز به قائد فخور
وقد عرضت خالد في هذه السنة وما قبلها عوارض شتى
تدخل في الحساب أو تأتي من هنا وثم على غير حسابان ،
فتصرف فيها جميعا تصرف الرجل الذي خلق للتقلب في
أجواء الحرب كما خلق السمك للتقلب في الماء ، فلا تفجؤه
حالة من حالاتها بما يربكه أو يعيبه

البدوى لا عهد له بسفينة غير سفينة الصحراء - وهي
الجمال - ولكن خالدا غنم السفن الفارسية بعد وقعة الیس
فأركب جيشه فيها ليكفيه ويكفى مطايا مشقة المسير . فلم
تنقله السفن قليلا حتى جف الماء ولصقت بالقاع ، لأن
الفرس تسامعوا بمسيره في النهر فأوصدوا قناطر الحيرة
وحبسوا الماء عن مجراه . ولو بدوى غير هذا البدوى فوجيء
بهذه الحيلة الحضرية وهذه « اللعبة الهندسية » لوقع في
حيض بيص وترك السفن في قاعها ورجع إلى مطياه . . .
ولكنه أبى إلا أن يبلغ بالسفن إلى حيث شاء . فانبعث في
نفر من أصحابه كالبزاة إلى القناطر وأطلقوا ماءها ولبثوا
هناك في حراستها وفي انتظار السفن التي ارتفعت براكبيها
كانهم يشهدون غريبة من غرائب السحرة تعبت بالسفينة
بين بر يابس ونهر غزير

وحفروا له في الأنبار خندقا ثم احتموا وراء الخندق
بحصن ينظرون إليه من أعلاه ، كأنهم يهزأون به ويستعجزونه
أن يعبر الخندق وأن يفلح في علاج الحصن إذا وصل إليه .
فلم يلبث أمام الخندق كثيرا ولا قليلا بل أمر لتوه بنحر
الأبل العجاف وألقى بها في الخندق فسدته ودعا جيشه إلى
العبور عليها . فأصبح من في الحصن سسجناء في يديه ،
وتوسلوا إليه أن يرسلهم في سبيلهم مجردين من السلاح

والمنازع ، وهم يحمّدون الله على النجاة من يوم كيوم اليس .
فأجابهم الى ما طلبوه

وعلم أن عقة بن عقة يحشد له فى عين التمر حشودا من
تغلب وايااد وأصحاب المتنبيّة سجاح ، ويوهم الفرس أنه
ند للعرب لانه أخبر بهم من غيرهم ٠٠٠ فوثب على معقله
بالصحراء وهو كدأبه على تعبئة كاملة ، وبصر بعقة حين
دنا من الموقع فقال لصاحبه : اكفونا ما معه فإني حامل
عليه بنفسى . ثم احتضنه وحمله أسيرا وهو لا يتوقع أن
يؤخذ من أساليب القتال العربى بهذا الأسلوب العجيب . فى
كل قتال ١٠ وقد كان خالد يعمد اليه كلما بدا له أن يوجز
فى الحركة ويضرب قلب أعدائه بضرب عميدهم المطاع فيهم ،
فيصيب ما أراد

وأعطى الدعوة حقها كما أعطى القتال حقه فى كل معركة
بها تقتضيه وتوحيه اليه

فكان اذا لقي العرب سألهم مذكيا فيهم نخوة العروبة :
« ويحكم ! أنتم عذب ؟ فما تنقمون من العرب ؟ أو عجم فما
تنقمون من الانصاف والعدل ؟ »

وكان يعين الحمية الدينية فى جينوشه بما يغرى النفوس
من نعيم الدنيا ومتاع الحياة . فأباح الأسلاب من سلبها
بالغا ما بلغ قدرها ، وربما قسم للمقاتل الواحد فى بعض
الوقائع ألف دينار فلا يستكثرها عليه ولا ينتزع منه غنيمة
وقعت فى يديه . وقال لهم يوما بعد وقعة المذار : « ألا
ترون الطعام كرفخ التراب ؟ والله لو لم يلزمنا الجهاد فى الله
والدعاء الى الله عز وجل ولم يكن الا المعاش لكان الراى أن
نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به ، ونولى الجوع
والاقلال من تولاه مبن اثاقل عما أنتم عليه »

وأحكم الصلح كما أحكم الحرب فكان عهده مع أهل الحيرة
نموذجا للعهد من قبيله ، وكان يصالح المستسلمين صلح

بن يعنى كل حرف يخطه بيمينه فلا يزيد ولا ينقص -
 في عهد أهل الحيرة : « هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد . .
 نقباء أهل الحيرة ورضى بذلك أهل الحيرة وأمرهم به :
 عاهدهم على مائة وتسعين ألف درهم تقبل فى كل سنة
 جزاء على أيديهم فى الدنيا ، رهبانهم وقسيسهم الا من كان
 منهم على غير ذى يد حبيسا عن الدينس تاركا لها . وعلى
 المنعة ، وان لم يمنعهم فلا شئ عليهم حتى يمنعهم . وان
 غدروا بفعل أو قول فالدمة منهم بريئة . . . وكانت كتابة
 هذا العهد فى شهر ربيع الاول سنة اثنى عشرة هجرية ،



وعلى قدر سطوته الجاثجة بمحاربيه ومعانديه كانت
 رعايته ورفقه بأولئك المظالم الخالدين من زراع تلك البلاد .
 فللمرة الاولى فى التاريخ من قبل بابل ونيوى رأى فلاحو
 السواد حاكما يحفظ لهم غلاتهم وينصفهم من دهاقينهم -
 أو مستغليهم - ويستمتع شكاية ضعيفهم من قويهم ويشرع
 بينهم شرعة المساواة والأمان . وبلغ من رفق الحكم الجديد
 برعاياه مسلمين وغير مسلمين أنه تكفل بالعبد اذا تحرر
 وبالغنى اذا افتقر وبالعائل اذا انقطع عائلوه . وهذا مثل
 مما تكفل به الحكم الجديد فى كتاب خالد . قال : « ائنى
 دعوتهم الى الله والى رسوله فأبوا أن يجيبوا ، فعرضت عليهم
 الجزية أو الحرب ، فقالوا لا حاجة لنا بحربك ، ولكن صلحنا
 على ما صلحت عليه غيرنا من أهل الكتاب فى اعطاء الجزية .
 وائى نظرت فى عدتهم فوجدت عدتهم سبعة آلاف رجل ،
 ثم ميزتهم فوجدت من كانت به زمانة ألف رجل ، فأخرجتهم
 من العدة . فصار من دفعت عليه الجزية ستة آلاف فصالحونى
 على ستين ألفا وشرطت عليهم عهد الله وميثاقه الذى أخذ على
 أهل التوراة والاتجيل . ألا يخالفوا ولا يعينوا كافرا على مسلم

من العرب ولا من العجم ولا يدلّوهم على عورات المسلمين :
عليهم بذلك عهد الله وميثاقه . ان أخذه أشد ما أخذه على
نبي من عهد أو ميثاق أو ذمة ، وان خالفوا فلا ذمة لهم ولا
أمان ، وان هم حفظوا ذلك ووعوه وأدوه الى المسلمين فلم
ما للمعاهد وعلينا المنع لهم . فان فتح الله علينا فهم على
ذمتهم ، لهم بذلك عهد الله وميثاقه أشد ما أخذ على نبي من
عهد أو ميثاق ، وعليهم مثل ذلك الا يخالفوا . وجعلت لهم
أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو
كان غنيا فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت
جزيته وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ، ما أقام بدار
الهجرة ودار الاسلام . فان خرجوا الى غير دار الهجرة ودار
الاسلام فليس على المسلمين النفقة على عيالهم ، وأيما عبد
من عبيدهم أسلم أقيم في أسواق المسلمين فبيع بأغل
ما يقدر عليهم في غير وكس ولا تعجيل ودفع ثمنه الى
صاحبه . ولهم كل ما لبسوا من الزى الا زى الحرب . من
غير أن يتشبهوا بالمسلمين في لباسهم ، وأيما رجل منهم
وجد عليه شيء من زى الحرب سئل عن لبسه ذلك . فان
جاء منه بمخرج والا عوقب بقدر ما عليه من زى الحرب .
وشرطت عليهم جباية ما صالحتهم عليه حتى يؤدوه الى بيت
المسلمين ، عمالهم منهم . فان طلبوا عوناً من المسلمين أعينوا
به ، ومؤنة القواد من بيت مال المسلمين »

وقد عزلت هذه الرعاية من جانب وتلك السطوة من
جانب آخر عزلاً فاصلاً بين الرعاة والرعية في السواد وفي
الديار الفارسية ، فتطرت الدهماء الى الحرب كأنها حرب
على الرعاة وحدهم لا ناقة لهم فيها ولا جمل . فلا هي تعنيهم
ولا هم يخشون من عواقبها العاجلة أو الآجلة . بل هم بهذه
العواقب ينعمون واليها يتشرفون

وكانت «دقعة الفراض» آخر أعمال خالد الكبار في العراق

وأوفاهما دلالة على عجز الدولتين معا : دولة الفرس ودولة الرومان الشرقية . عدا ما فيها من الحوادث التي هي أصلح ما تكون للتفرقة بين مغبة العمل الواحد تأتية الأمة في عهد اقبالها وتأتية الأمة في عهد اديارها . فهو ضربة موت من ناحية وهو من الناحية الاخرى كالضربة التي تشحذ عزيمة المضروب وترد التوازن اليه

«الفراض» في أعلى العراق بين مسالح الفرس والروم يوشك هؤلاء وهؤلاء فيها أن يتناظرا متقابلين ، وقد هبط عليها خالد في وثبة من وثباته فتألب عليه هنالك عرب البادية وجيش الروم وكان وشيكا أن يتألب معهم جيش من الفرس لولا ما شغلوا به من أمر العرش وورائته والمتنازعين عليه . وقال الروم لخالد كما قال الفرس بعد ذلك لأبي عبيدة : اما أن تعبروا إلينا واما أن نعبر إليكم . فلم يصنع خالد صنيع أبي عبيدة بل قال لهم : اعبروا أنتم ان شئتم . وتركهم حتى يعبروا ليحصرهم بينه وبين النهر فلا يهرب منهم هارب ، وأرسل الفرسان والزمامحين ليعزلوهم قطيعا قطيعا ويضيقوا عليهم مسالكهم . ثم يحصدوهم حصدا وهم أشبه بالمحكوم عليهم في ساعة التنفيذ منهم بالمقاتلين على أنه لم يشب على الفراض وثبته تلك حتى كان قد «ظهر» جوف الصحراء من جموع الاعراب التي تكوفت الى دومة الجندل وعوقت عندها زميله «عياضا» قرابة عام . فلما ترامت أنباء فتوحه الى عهاض كتب اليه يستشيريه ويستنجده . فكان هو على عادته أول جواب بعده رجع الخطاب ، وكتب اليه يقول :

لبث قليلا تأتاك الجلائب يحملن أسادا عليها القاشب (١)
كتائب تتبعها كتائب

وكانت تفصله من دومة الجندل مسيرة أسبوعين فقطعها هو في أقل من عشرة أيام ، ووجد حصن الدومة مكتظا بمن فيه وحوله زرافات ضاق بها الحصن فعسكرت بالعراء فجعل القوم جميعا بينه وبين عياض ، وتولى عياض حرب من قبله فهزمهم لما جاش في نفسه من نخوة المنافسة وما جاش في نفوسهم من الوجمل والحيرة . وتدافع المنهزمون الى الحصن يريدون بابه فسبقهم خالد اليه وانتزعه وحال بين النازلين في الحصن ومن حوله . ثم استبى كل من أصابه من رجال ونساء . ومن هؤلاء السبايا ابنة الجودي بن ربيعة استباها خالد لنفسه وقيل انه اشتراها . ثم بنى بها وأقام معها في دومة الجندل أيام مقامه فيها

وكان أهل الدومة قد عاهدوا المسلمين غير مرة ونكثوا بعهودهم فأمن القتل فيهم وجعلهم نكالا لغيرهم . ثم قفل الى العراق وهو مطمئن الى غزوة الفراض بأعلى الفرات . فغزاها وفرغ منها كما تقدم . وبقيت له في العراق عزمة خالدية أخرى ولكنها من نوع غير هذا النوع . فلم يلبث أن قضاها

بقي على موسم الحج أسبوعان وهو أول حج حان بعد تلك الغزوات المتلاحقات اللاتي أمد الله فيها بتصره وعونه

أيفوته قضاء الشكر في هذا الموسم وأداء الفريضة في موعدها ؟ ولم ؟؟؟ الخوف من الأعداء ؟ العائق من بعد الشبقة ؟ العذر من الأعذار التي يعتصم بها القاعدون عن الحج برخصة من الفقهاء ؟ كل أولئك عوائق لا يستهان بها ولكنها خلقت ليدلها لا لينكص عنها . ففي خطفة الريح العاصفة خرج من أعلى العراق الى أقصى الحجاز وأدى الفريضة وعاد الى معسكره دون أن يعلم أحيد من الأعداء ولا من المسلمين الا أقرب خاصيته المقربين ، بل دون أن يعلم الخليفة نفسه وقد كان على الحج في ذلك العام

ويروق بعض المؤرخين أن يحسب هذه العزمة الحالدية من مغامراته التي تنم عن فرط الثقة بنفسه ولا تنم عن شيء غير ذلك ، ولكنها في الواقع دلت على ثقته بغيره كما دلت على ثقته بنفسه . فقد علم أن معه بالجيش من فيه غنى وكفاية إذا جد في غيبته طارق داهم أو خطر حازب . وكفى بالمتنبي رائده المقدام ، وبالقعقاع صاحبه القديم وموضع ثقته الحميم

في حرب الروم

علم الخليفة بمغامراته هذه فجاءه منه ملام ، وأعجاب ، وتكليف ، ووصاة : أمره بحرب الدولة الرومانية بعد هذا الفوز الذي أصابه في جروب الدولة الفارسية ، وأن يسارع إلى مرضاة الله وقتال أعداء الله ، ويكون كمن يجاهد في الله حق جهاده

وقال له : « سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك فانهم قد شجوا وأشجوا . وإياك أن تعود إلى مثل ما فعلت ، فانه لم يشج الجموع من الناس بعون الله شجيك ، ولن ينزع الشجى من الناس نزعك . فليهنك أبا سليمان النية والخطوة . ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل ، وإياك أن تدل بعمل فان الله له المن وهو ولي الجزاء »

وكتب إلى أبي عبيدة في الشام يخبره بمقدم خالد إليه ، ويقول له في كلام صريح : « سلام الله عليك . أما بعد فقد وليت خالدا قتال العدو في الشام ، فلا تخالفه واسمع له وأطع . فاني لم أبعثه عليك ألا تكون عندي خيرا منه ، ولكنني ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك . أراد الله بنا وبك خيرا والسلام »

فأرسل خالد إلى أبي عبيدة رسولا يبلغه قبل مقدمه

بكتاب يقول فيه : « أتاني كتاب خليفة الله يأمرني بالسير إلى الشام ، وبالقيام على جنسها والتولي لأمرها . والله ما طلبت ذلك قط ولا أردته اذ وليته . فأنت على حالك الذي كنت عليه لا نصيكت ولا تخالفك . ولا نقطع دونك أمرا . فأنت سيد المسلمين لا ننكر فضلك ولا نستغنى عن رأيك ،



وأول خاطر سبق إلى ظن خالد حين حصوله الخليفة من حرب فارس إلى حرب الروم انه عمل من أعمال « الأعميس » كما يسميه ويعنى عمر بن الخطاب ، وانه نفس عليه أن ينفرد بفتح فارس فارسه إلى ميدان له فيه شركاء من أعلام الصحابة ذوي الخطر والسابقة الملحوظة بين المسلمين

وهو ظن بعيد يخطر على بال خالد لانه يتوقع شيئا من صوب عمر ولكنه لا يخطر على بال غيره . اذ لا ينفس عمر على خالد أن ينفرد بغلبة الفرس ثم يرسله ليغلب الروم بعد أن تأخر الفتح على أيدي كبار القواد من أجلاء الصحابة . فهذا مزيد من الفخر يتناول اليه المتناول وليس بنقص منه يتعمده لخالد من ياباه عليه . وانما اختار الخليفة خالدا لان العراق كانت في هداة من جانب الفرس بعد هزائمهم الكثيرة ، وكان في جيش المسلمين وقواده بالعراق كفاية للمثابرة على الفتح بعد أن تم التدوين والتمهيد ، ولأن خالدا كان أقرب مدد إلى الشام ولم يكن بالحجاز بقية من قوة فاضلة تضاف إلى قواتهم في حرب الرومان . فأختره الخليفة وهو يقول : « لا نسين الروم وسائوس الشيطان بخالد بن الوليد »

وليس من عادة خالد أن يضيع وقتا قليلا أو كثيرا اذا نيط به أمر من الأمور . فلما ندب للجهاد بالشام نظر فإذا بيته وبين الشام يومئذ من خمسمائة إلى ستمائة ميل على حسب

الطرق التي يسلكها ، وهي أربع يختار منها أصلها لانجاز العمل الذي وكل اليه

من هذه الطرق الأربع ما هو سهل موفور الماء والكلاء ولكنه من أجل هذا موفور الحراس والسكان ، فهم يعوقونه بالمقاومة عن الاسراع المطلوب دون أن تكون للغبشة عليهم فائدة تذكر في القتال الحاسم بين المسلمين والرومان

ومنها ما هو قليل الحراس والسكان وفيه الماء والكلاء ولكنه بعيد يطول السير فيه

ومنها ما هو وعر قليل الماء والكلاء مخيف غير مطروق ، أو كما قال الدليل الذي سأله خالد : « انك لن تطيق ذلك بالتحيل والاثقال » والله أن الراكب المفرد ليخافها على نفسه ، وما يسلكها الا مفرور . انها لحمس ليال جياذ لا يصاب فيها ماء مع مضلتها . . . »

وأيسر شيء على القاريء الذي عرف خالدا أن يعلم أي هذه الطرق يسلكه خالد . فما هو بسالك حيث سلك الا الطريق الذي هو أحوج الى قدرة القائد وأدل على العزيمة والمضاء وأبعدها جميعاً أن يتوقع العدو هجوماً منه . فأجمع عزمه على طريق من الطرق الأربع هو أصعبها وأقصرها ، وهو الذي خوفه الا دلاء منه ، وقال لدليله الأكبر رافع بن عبيدة المطائي - ولا أحد يفنى غناؤه في السير بتلك المفازة المهلكة وإن كان يومئذ من حسر النظر كالمكفوف الضير - :

« ويحك انه والله ان لي بد من ذلك . . . ان القوة تأتي على اقدر النية وإن المسلم لا ينبغى له أن يكثرث بشيء يقع فيه مع معونة الله »

ويروى الرواة أن الدليل قال لهم بعد ذلك : « أكثروا من الماء من استطاع منكم أن يصراذن ناقته على ماء فليفعل ، فانها المهالك الا ما دفع الله »

ثم قال خالد : « ابغنى عشرين جزورا عظاما سمانا
مسان ، فاتاه بهن . فظماهن حتى اذا أجهدن عطشا أوردهن
فشربن ، حتى اذا تملأن عمد اليهن فقطع مشافرهن ثم
كعهن الثلاثا يجتزرن

وأشار على خالد أن يقتطع أربعا من هذه الجزوركلما نزل
ليستقى الحيل ، وأن يشرب الجند مما حملوا من الماء . ففعلوا
ما أشار به حتى كان آخر يوم فى المفازة فقال له خالد :
ويحك يا رافع ما عندك ؟ فأرسل رافع جماعة ينظرون
شجيرة من عوسج فى موضع كان يعهدا فيه ويعهد فيه
الماء على مقربة منها . فلم يجدوها . فصاح الرجل بالويل
واسترجع قائلا : « هلكتم والله اذن وهلكت لا أبالكم .
انظروا انظروا » فلما نظروا وأنعموا النظر رأوا جذرا قد
بقي منها وقطع سائرها . فكبروا فرحا وشكرا وحفروا فى
أصلها فنبع لهم الماء ، فشربوا ونجوا من هذا الخطر الأليم
الذى دونه كل خطر من لقاء الأعداء

وفى ذلك يقول أبو أجيحة القرشى :

لله عينا رافع انى اهتدى
فى مهمه مشتبه الى سوى
والعين منه قد تغشاها الردى
معصوبة كأنها ملائى ثرى
فهو يرى بقلبه مالا يرى
من الصوى تترى له بعد الصوى
فوز من قراقر الى سوى
والسير زعزاع فما فيه ونى
خمس اذا ما سارها الجيش بكى
فى اليوم يومين رواحا وسرى
ما سارها من قبله انس يرى
هذا لعمرى رافع هو الهدى

وسواء صحت رواية الجزور المظلمة أو كان فيها شيء من توسع الخيال فالطريق الذى سلكه خالد معروف والقسرة عليه هي موضع العبرة والتأمل في هذا المقام . أما نحن فالذى نراه أن خالدا لم يكن لينتظر حتى تظلم الأبل وهي لا تجهد من الظلم إلا في أيام ، وأن الأبل لا تخزن الماء في جوفها وإن لم تجتره دون أن ينصرف منها ، وإن عشرين جزورا تمتلئ كروشها بالماء لا تسقى الخيل في الجيش كله وعدته عشرة آلاف . فلا بد من تدبير آخر مع هذا التدبير تجتمع فيه السرعة إلى التخفف إلى الأقدام والأمر الذى لا شك فيه بعد هذا كله أن خالدا سبار بجيشه - وعدته عشرة آلاف - من عين التمر إلى قراقر ، ثم من قراقر إلى سوى وبينهما تلك المفازة المهلكة ، ثم إلى تدمر فالقوطة فبصرى ، فقطع هذه المسافة في ثمانية عشر يوما لأنه كما قال الشاعر كان يطوى مسافة اليومين فى يوم واحد :

« فى اليوم يومين راجا وسرى ا »

خرج من الحيرة فى أوائل صفر من سنة ثلاث وعشر للهجرة ، وطوى تلك المسافة فى تلك الأيام بعد أن قمع كل مقاومة لقيها من المسالحي والحصون وراء المفازة الحاوية من كل ديار



واتفق خروجه من الحيرة وجيوش المسلمين فى الشام تشرع فى خطة جديدة للتراجع إلى الجنوب وملاقاة الجيوش الرومانية الجاراة فى جمع واحد ينهض لها ويحول دون الأحداق بكل جيش منها على انفراد وكان الخليفة قد سيرها - بعيد منتصف السنة الثانية

عشرة للهجرة - مع أربعة من كبار القواد في طرق مختلفة
الى وجهات متعددة

فسير يزيد بن أبى سفيان على رأس ستة آلاف أو سبعة
آلاف الى دمشق ، وسير شرحبيل بن حسنة على مثل هذا
العدد الى الأردن ، وسير عمرو بن العاص على رأس جيش
يزيد على ذلك قليلا الى فلسطين ، وسير أبا عبيدة بن الجراح
على رأس خمسة آلاف أو ستة آلاف الى الجابية ، وأمدهم
بعكرمة بن أبى جهل فى جيش صغير ليحمى ظهور من يحتاج
منهم الى الحماية ويسرع بالنجدة الى من يطلب منهم المعونة

ولا نعلم على التحقيق حكمة التفرقة بين هذه الجيوش فى
طرائقها ووجهاتها ، ولكنها على ما يظهر مسألة الماء والكلاء
من جهة ، ثم رغبة الخليفة فى تشتيت جموع الروم وتوزيع
أغراضها ، ولا يخلو الأمر من الحيلة لمنع الالتفاف بالجيش
الواحد اذا أوغل فى البلاد كما حدث قبيل ذلك لجيش خالد
ابن سعيد ، فان الجيوش الاربعة يكون كل منها مددا
لصاحبه ومائعا للالتفاف به أو منقذا له من الالتفاف اذا
وقع فجاءة . وهذا مع علم الخليفة يومئذ بتفرق الحاميات
الرومانية فى مواقع البلاد الداخلية . اذ كان الرومان على
ما يظهر قد اطمأنوا من جانب الفرس بعد انتصارهم عليهم ،
واطمأنوا من جانب العرب بعد رجوع حملاتهم الثلاث على
النحو المعروف ، وهى حملات مؤتة وتبوك وجيش أسامة ،
وزادهم اطمئنانا أنهم غلبوا الحملة الرابعة وهى حملة خالد
ابن سعيد ، وأنهم عرفوا اشتغال العرب بحرب الفرس
فوقع فى روعهم أن العرب أضعف من أن يشغلوا أنفسهم
بحرب دولتين عظيمتين فى وقت واحد . فمن هنا خلت ربوع
الشام من جيش كبير للرومان ، وعلم الخليفة ذلك فاعتقد أن
تفرقة الجيوش فى زحفها الى الشام أقرب الى توزيع العمل
والإسراع فيه ، فان تغير الموقف وعمد الرومان الى حشد

الحشود الكبيرة فقد أوصى القادة بالتشاور والتعاون في مقابلة هذه الطوارئ ، كما أوصاهم بالرجوع اليه

وقد نجحت هذه الجيوش في وجهاتها وتقدم بعضها الى دمشق وبعضها الى حمص وأوغل بعضها الى فلسطين

ثم نعى اليهم أن القيصر يستعد لهم بجيش كبير في انطاكية وجيش آخر في جوار بيت المقدس ، وبلغت عدة الجيش الاول على تقدير بعض المؤرخين مائتين وأربعين ألفاً ، وعدة الجيش الثانى سبعين ألفاً أو نحو ذلك ، ولو نزلنا بعدة الجيشين الى النصف حسبنا للمبالغة وجهل الحقيقة لما كان نصف هذا العدد بالشئ القليل ، لأنه يربى على ثلاثة أضعاف الجيش العربى كله بعد قدوم جيش خالد اليه ، ولم يرتفع به أحد الى ما فوق الخمسين ألفاً على أعظم تقدير فتشاور القواد فيما يصنعون ، فاستقر رأيهم على التراجع الى الجنوب ليتجمعوا قبل أن يتلاقى الجيشان الرومانيان ويشتبكا بهم وهم متباعدون متفرقون كل منهم فى بضعة آلاف

ولعلمهم يصبحون فى تراجعهم أقرب الى الأمن اذا حاربوا وظهورهم الى الصحراء ، وقد علموا بالأمثلة الكثيرة أن الجيوش الرومانية تحجم عند حدودها ولا تجسر على خوضها فى أعقاب جيش كبير أو صغير

والمؤرخون مختلفون فيما هو صاحب المشورة الاولى بالتراجع الى الجنوب ، فمنهم من يقول انه أبو سفيان بن حرب ومنهم من يقول انه عمرو بن العاص . وهذا القول الاخير أدنى الى الواقع لأن عمرا كان يتراجع فى الجنوب قبل أن تصل الجيوش الاخرى اليه ، وكان من الموافق لحطه أن توافيه الامداد فى ميدانه بفلسطين

وأيا كان صاحب الراى الاول فى هذا فقد تم التراجع باقرار الخليفة وكان شعوره بحرج المسلمين فى أماكنهم هو

الباعث له أن يستدعي خالدا من العراق إلى الشام . فكتب لقواده بالشام يقول : « اجتمعوا فتكونوا عسكريا واحدا والقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين ، فانكم أعوان الله والله ناصر من نصره وخاذل من كفره ، ولن يؤتى مثلكم من قلة ، وانما يؤتى العشرة آلاف والزيادة على العشرة آلاف اذا أتوا من تلقاء الذنوب . فاحترسوا من الذنوب واجتمعوا باليرموك متساندين وليصل كل رجل منكم بأصحابه ،



ومن المتعذر جدا تمحيص التواريخ في ترتيب الوقائع بعد وصول خالد إلى الشام . ولكن الأرجح فيما نرى أن المعركة الأولى بدأت مع الجيش الأصغر في « أجنادين » بالجنوب . لان البدء بأصغر القوتين وإخلاء الجنوب قبل الانتقال إلى الشمال أولى وأوفق من ترك هذا الجيش الأصغر وراء ظهور المسلمين ومواجهتهم الجيش الأكبر بين عدوين . ولأن معركة أجنادين لم يشترك فيها معظم القواد المسلمين . مما يرجح أنها وقعت بعد المعركة الكبرى في اليرموك لما كان مفهوما أن يترك أولئك القواد جيشا كجيش الرومان في فلسطين دون أن يتعقبوه جميعا ، مع فراغهم من أسر الجيش الكبير في اليرموك

وعلى أية حال هزم الروم في أجنادين وكانت الواقعة الحاسمة بينهم وبين المسلمين في اليرموك ، على اختلاف كثير في التواريخ ، واتفاق في تصوير خطة القتال ويحسن بنا قبل أن نستطرد إلى الكلام على المعركة أن نجمل حالة الجيشين المتقاتلين عند اللقاء فالجيش الروماني كان أوفر عددا وأكمل عدة بغير خلاف ، ولكنه خليط من عناصر عدة منها الروم والآرمن والآعرب

وأجناس أخرى ، وقد يظن لأول وهلة أنه امتياز بالنظام والخطط الفنية على أعدائه ، ولكنه في الحقيقة كان أبعد الجيشين عن النظام الصحيح إذا أردنا بالنظام وحدة الحركة والتوجيه . لأن المتطوعين فيه من أبناء القبائل كانوا يحاربون على ديدنهم والجنود النظاميين يحاربون على ديدن آخر، وتعوقهم العدد الكثيرة والشكك السابغة التي حسبت من مزايائهم ، فهي الى النقص هنا أقرب منها الى المزية

وقد أثرت فيهم حماية الدين ولكنهم ثاروا لها متشككين متفرقين ، وجعلتهم حماستهم الدينية يترقبون من الله عقابا ينزله بهم على خطاياهم وخطايا قيصرهم ورؤسائهم المتهمين عندهم بالزيف ومطايعة الشيطان . فحماية الدين تثيرهم من ناحية وتضسيرهم من ناحية ، وليست هي من قوة اليقين المكين

أما جيش العرب فقد كان من أمة واحدة تدين بعقيدة واحدة وترجع الى قيادة واحدة ، وفي صدورهم من حماية القتال كل ما يحفز القلب الانساني الى الثبات والاستبسال: غيرة على المدين وغيره على العرض وناهيك بالغيرتين ، ويقين من نعيم الآخرة ونعيم الدنيا إذا كتب له الفلاح ، وكفى باغراء النعمين

كان في جيش المسلمين أصون كرائم البيوتات القرشية: بنت أبي بكر وأم معاوية وزوج عكرمة بن أبي جهل وعقائل أناس من الجند والقادة . وقد أمرهن أبو عبيدة قبل المعركة « أن يأخذن بأيديهن أعمدة البيوت وألحيام ويجعلن الحجارة بين أيديهن . » فان كان الأمر للمسلمين أقمن على ما هن عليه . وان رأين أحدا من المسلمين منهزما ضربن وجهه بأعمدتهن وأرجعن به بحجارتهم ، ورفعن اليه أولادهن وقلن له قاتل عن أهلك وعن الاسلام ، ولم يقنع خالد بهذا بل قال لهن : يا نساء المسلمين ! أيما رجل أقبل عليكم منهزما فاقتلنه !

ومن أجل هذا لا نعجب أن يكون هرقل قد وزن القوى وفكر جقا في عرض الصلح على المسلمين وقال لبطانته وذوي شؤراه : « لأن تعطوهم نصف ما أخرجته الشام وتأخذوا نصفه وتقربوا من جبال الروم خير لكم من أن يغلبوكم على الشام كلها ويشاركوكم في جبال الروم » ولكنهم استضعفوه وكبر عليهم أن يجيبوه

أما المسلمون فالصلح الذي فكروا فيه قبل القتال هو الصلح على شرطهم المعلوم : الاسلام أو الجزية ، فان لم يقبل شرط من الشرطين فالحكم للسيف

وقد أفادهم عرض هذه الشروط قوة على قوة وزادهم في نفوس أعدائهم مهابة على مهابة . فلما ذهب وفدهم يعرض هذه الشروط قبل القتال على القائد تيودور - أخى القيصر - حسب هذا أنه يهولهم بالبذخ والثراء ويكسر نفوسهم بما يريهم من حلل الالبهة والتنعيم . فأقام لهم سرادقا من فاخر الحرير يستقبلهم فيه . . . فوقفوا عند بابه ولم يدخلوه قائلين : « ان ديننا يمنعنا أن نفترش الحرير والديباچ »

فها لوه بزهدهم أكثر مما هالهم بترفه . وأعسر شيء على جنوده بعد ذلك أن يؤمنوا حق الايمان أنهم - وهم الغارقون في المناعم واللذات - يقاتلون في سبيل الله قوما هذا مبلغ زهدهم في المناعم واللذات، وهذا مبلغ استعلائهم على الدنيا وما تبسطه لهم من غواية



ولم يخف على أحد من قادة الرومان والعرب خطر المعركة الكبيرة التي هم مقبلون عليها : هي معركة فاصلة في مصير الشام ما في ذلك ريب . وقد تكون المعركة الفاصلة أيضا في مصير الدولة الرومانية ومصير الأمة العربية . فان

هزيمة الدولة الرومانية فيها تنزع من يدها الأماكن المقدسة ويعقبها ضياع مصر وثورة المتربصين بالقيصر وأهل بيته في بلاده الآسيوية والأوربية . وأن هزيمة الجيش العربي معناها هزيمة الجيش الأكبر الذي لا يتسع الوقت ولا تتسع الطاقة لتجريد جيش غيره على أثر الهزيمة ، وقد تغري القيصر الروماني بإرسال قبائل الشام في أعقاب المسلمين إلى الحجاز والجزيرة العربية ولا يبعد أن تثير أبناء الجزيرة العربية أنفسهم على خليفة الإسلام ممن لا تزال لهم ترات تغل في خنايا الصدور

فاستعد الفريقان غاية ما في الوسع من استعداد وارتضى كلاهما موقع اليرموك للوقعة الفاصلة بينهما . لأنه يوافق طلبه القيصر من مكان « واسع العطن واسع المطرد ضيق المهرب » ولا يكرهه المسلمون لأنهم رأوا منزل الروم فيه منزل محصور بين النهر والبحيرة والوادي وجيش المسلمين . أو كما قال عمرو بن العاص حين رآهم : « أيها الناس ! أبشروا... حشرت والله الروم ، وقلما جاء محصور بخير »

تحتاج الجيشان أشهراً لا يشتبكان إلى جمادى الآخرة أو رجب على قول بعض الرواة

وكلاهما ينظر كيف يبدأ الآخر هجومه ليرتب له لقائه ، وكلاهما قد عبأ طاقته من سلاح الأيدي ولم يزل يعبئ طاقته من سلاح النفوس : سلاح العقيدة والفداء

واستعان الرومان بالقسيسين يلهبون الحمية ويضرمون الحفيظة ، ويهونون على اتباعهم بذل الأرواح في سبيل الملة والدولة والمجد القديم

وأقبل المسلمون على القرآن يرتلونه وعلى العظات يذمرون بها القلوب ، وجعلوا وراهم حرساً من الأعراض هو أقوى أحراس بعد الإيمان

ثم كثرت الحركة أياما في جيش الروم فعلم القادة المسلمون أنهم مقتربون من الهجوم ، ولم يشأ خالد أن تبثدي المعركة بقيادة متفرقة لا تتحد في نظام واحد . فصرف همه الأول الى تنظيم الفرق جميعا في تعبئة واحدة يقودها رجل واحد ، ووجد من زملائه قلبا مصغية فأجابوه الى ما دعاهم اليه .

قال لهم قبل ابتداء القتال : « هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي ; اخلصوا جهادكم وارضوا الله بعملكم ، فان هذا اليوم له ما بعده ، ولا تقاتلوا قوما على نظام وتعبئة وأنتم متساندون . فان ذلك لا يجعل ولا ينبغي . . . وان من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون أنه الرأي »

ثم قال وقد سألوه رأيه : « ان الذي أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشبهم ، وأنفع للمشركين من أمدادهم ، ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم . فالله الله . ان تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله : هلموا ! فان هؤلاء قد تهيأوا وهذا يوم له ما بعده . ان رددناهم الى خندقهم اليوم لم نزل نردهم وان هزمونا لم نفلح بعدها . فهلموا فلنتعاور الامارة ، فليكن عليها بعضنا اليوم والاخر غدا والاخر بعد غد حتى يتأمر كلكم ، ودعوني اليكم اليوم » فاستندوا اليه قيادتهم يومها ، وكان توحيد القيادة اول خطوة في طريق النصر الحاسم بمعركة اليرموك .

ثم أسرع الى تعبئة قواده وجنوده على الوضع الذي رآه ملائما للتعبئة الرومانية ، وهو الوضع الملائم للحرب « في العمق » كما يقول العسكريون في هذه الايام

فاقام عمرو بن العاص على الجناح الايمن ، ويزيد بن أبي سفيان على الجناح الايسر ، وأبا عبيدة بن الجراح على القلب . واتخذ مكانه في كبة الجمع ، ولجا الى طريقته التي اختارها

لحرب بنى حنيقة وهى طريقة الكراديس ، لأنها أصحح الطرق للنفاذ فى الصفوف، وأدعاها الى التنافس بين المقاتلين وتمييزهم بالتعبعة أو بالثناء

وكانت كل فرقة من الميمنة أو القلب أو الميسرة تتألف من كراديس عدة على كل منها قائد معروف ، ومنهم صاحبه القديم القعقاع ، وزميله فى حرب اليمامة عكرمة بن أبى جهل وزميله فى دومة الجندل عياض بن غنم ، وابنه عبد الرحمن وهو يومئذ دون العشرين ، وجملة الكراديس جميعا ثمانية وثلاثون معظمها فى القلب ، وعدده ثمانية عشر كردوسا ، رئيسهم أبو عبيدة وفيهم عكرمة والقعقاع

وكان موضع الميمنة بحيث يستطيع الالتفاف بالجيش الرومانى اذا أمعن فى الهجوم والاطباق عليه مع القلب اذا ارتد الى الوراء

وفى فرغ من التعبئة فعمد الى « القوة الأدبية » يوليها حقها من عنايته الكبرى . وأخرج المقداد يقرأ على الجيش سورة الانفال ، ودعى كل رئيس أن يعظ جنده ويبصرهم بممرامه فى حركاته ، وجماع هذه العظات خطبة عمرو بن العاص حيث قال : « غضوا الأبصار ، واجثوا على الركب واشرعوا الرماح ، فاذا حملوا عليكم فامهلوهم ، حتى اذا ركبوا أطراف الاسنة فثبوا فى وجوههم وثبة الأسد ، فوالذى يرضى الصديق ويثيب عليه ويمقت الكذب ويجزى بالاحسان إحسانا ، لقد سمعت أن المسلمين سيفتحونها كفرا كفرا وقصرا قصرا ، فلا تهولنكم جموعهم ولا عددهم ، فانكم لو صدقتموهم الحملة تطايروا تطاير الحجل »

وخطب مثله معاذ بن أبى جبل وأبو سفيان، وبرز القعقاع وعكرمة قائدا المجنبه فى القلب يرتجزان، واختير يوم القتال فى يوم ريح سموم سافياء فى حمارة القيقظ فكانت طاقة المسلمين به أكبر من طاقة الروم

ثم اشتبك الجيشان على نحو لا يعلم تفصيله على التحقيق، ولكنه بدأ كما تعودنا في حروب المسلمين بهجمة شعواء من جانب العدو يتزعزع لها العدد الصغير أمام العدد الكبير ، ثم تكون الكرة الثانية لحماية العقيدة ومراجعة الايمان والاعتصام بنية الفداء

فلما انكشف المسلمون بعد الهجمة الأولى ثابوا الى عزوماتهم بنخوة الايمان ونخوة العرض والانفة . فضرب النساء في وجوه الخيل قائلات : « الى أين يا حماة الاسلام وطلاب الشهادة » . وصاح عكرمة كأنه يؤنب نفسه : « قاتلت رسول الله في كل موطن وأفر اليوم ؟ من يبائع على الموت ؟ » فبايعه أربعمائة من الفرسان المشاوير لا يقوم في وجههم قائم ، وصدمو الروم حتى صدوهم غير حافلين بما أصابهم ، وقد قتل في طليعتهم عكرمة وابنه ومعظم أولئك الفرسان ، ولم ينج منهم قط الا جريح مثنى بالجراح وأفلحت الكرة الثانية ، وتقهقر الروم

وقد اهتم خالد بالعزل بين خيل العدو ومشاته ، فتضايقت الخيل وعجزت عن الجولان وولت هاربة فأخلوا لها الطريق ، ورجع المشاة الى الحنادق فلحقهم بها المسلمون ثم أحاطوا بهم من ورائهم فشاع فيهم الذعر وسقطوا وهم مولون مهولون في هوة الواقوصة أو وادي الرقاد . وقيل ان موتاهم بالواقوصة كانوا أكثر من قتلاهم في حومة الوغى ، لأنهم قدروا بثمانين ألفا سقطوا في الوادي فرادى وجماعات . اذ كان بعضهم يقرونون أنفسهم في السلاسل كل عشرة في سلسلة واحدة تثبيتا لاقدامهم وتثبيتا من الفرار . فاذا بالوجل يفل حديد السلاسل كما فل عزائم القلوب . وبلغ اليأس مبلغه من أشرف القوم فقمعدوا في أماكنهم ينتظرون الموت . فكانهم قد فروا قاعدين !

وحق لهرقل وقد حبطت محاولاته جميعا بعد اليرموك أن

يودع الشام الى عاصمة ملكه المتصدع وداعا كما قال ليس
بعده لقاء

الغزل

يستحق الرجل أن يسمى بطلا من أبطال التاريخ اذا كان
له « دور تاريخي » يقضيه ويتسم بلامحه ودواعيه
وأية انقضاء ذلك الدور أن يبلغ البطل من الاعمال
المقدورة له قمته العليا التي لا قمة ورامها ، وأنه يصير
هذا الدور فاذا هو مفتتت على الآخرين ممن لهم حق مثل
حقه في أدوار التاريخ ، أو يعدوه الى أعمال يغنى فيها
الآخرون مثل غنائه ، وتدخل في باب من السعي والدراية
غير بابه

وقد بلغ خالد في معركة اليرموك قمته العليا التي
لا مرتقى بعدها لراق : قمع فتنة الردة وضرب دولة الاكاسرة
خبرته الدامغة ووجد قيادة المسلمين في حرب الرومان
فصدهم الى ما وراء حدودهم . وخلت ميادين الشام بعدها
من أعمال يصح أن تسمى بالاعمال الخالدية . فهي بين حصار
أو مراوغة أو تسليم . وانما يراد خالد لتعطيم قوى الاعداء
التي تعز على التعطيم

وان يكن من عمل « خالدى » في ميادين الشام بعدمعركة
اليرموك فهو عمله في مرج الروم . ثم عمله في قنسرين
ففي مرج الروم كان هو وأبو عبيدة ينزلهما قائدان
رومانيان هما جونس وتوذر كما سماه خالد ، فتسلل توذر
لحقت الليل ليفجأ الجيش العربى عند دمشق بقيادة يزيد
ابن أبى سفيان ويأخذ جيوش المسلمين على غرة متفرقين .
فاتفق خالد وأبو عبيدة على تعقبه ومفاجأته من خلفه قبل أن
يفاجئ يزيد بن أبى سفيان . فأوقعاه في الفخ الذي نصبه ،

ولم يرجع خالده الى أبى عبيدة الا وتوذر مقتول وجيشه مبدد
كما قال :

نحن قتلنا توذرا وشموذرا وقبله ما قد قتلنا حيدرا
نحن أزرنا الغيضة الأكيدرا.

وفى قنسرين حصر خالد الرومان المحتمين بحصونهم
فطارلوه وأبرموه . فقال لهم محنقا : « لو كنتم فى السحاب
لحملنا الله اليكم أو لانزلكم الينا » . وأبى أن يصالحهم بعد
ذلك الا على تخريب المدينة ودك حصونها . فمخمت بذلك
ضرباته الخالدية

ولكنه كان قبل مرج الروم وقنسرين قد وفى « دوره
التاريخى » أكمل وفاء ، فلو فاته هذان العملان لما نقص من
مجده شيء ولا تغير مجرى الحوادث فى أعقاب هزيمة الرومان
أما سائر الميادين فقد تولاها قواد آخرون ففتحت بقية
فارس وفتحت مصر وشطر من افريقية الشمالية ، وكتبت
بذلك « أدوار تاريخية » أخرى للمثنى بن حارثة وسعد بن
أبى وقاص والنعمان بن مقرن وعمرو بن العاص ، ورجال
غيرهم يساوونهم أو يقلون عنهم فى المقدرة ولا يقلون عنهم
فى المقصد والنية ، وكل زيادة فى عمل خالد لا تضيف اليه
مجدا فوق مجده ، وتنقص ولا ريب من عمل هؤلاء ، وتحرم
الاسلام أيديا كثيرة تعمل له وتدفع عنه . وليس هو بمستغن
عن تلك الأيدي الكثيرة بيد واحدة ، بالغا ما يبلغ بها
الرجحان والاستعلاء

قلنا فى أول هذا الفصل أن انقضاء « الدور التاريخى »
ببطل من الأبطال له آيات تدل عليه ، ومنها أن يعدو دوره
الى أعمال يغنى فيها الآخرون فى هذا الباب مثل غنائه
وتدخل فى باب من السعى والدراية غير بابيه ، ونزيد على
هذا أن غناء الآخرين فى هذا خيرا من غنائه لهو أولى أن

يدل على انقضاء دوره وانتقاله الى من هو أحق به وأخلق
 وفي ميدان الشام - بعد معركة اليرموك - كان أبو عبيدة
 ابن الجراح أحق بالموقف الجديد من خالد بن الوليد . لانه
 موقف التسليم والمسألة واستلال الحقود وضمد الجراح
 وتقريب القلوب ، وفي جميع أولئك يتسع المجال لهوادة
 أبي عبيدة ويضيق بضربات خالد . فأبو عبيدة يسرع الى
 المسألة اذا فتحت له أبوابها ولا يبطئ عن الحرب اذا وجبت
 عليه أسبابها ، فان كانت بالمسألة جدوى فذاك ، وان كان
 يوم الضربات الحالديات فهي لديه يرمى بها في مراميها .
 وانما يكون العمل الاول هنا لمن يسالم ويتقبل التسليم ،
 ويكون العمل التابع له لمن يرفع سوط النعمة على الذين
 يلجون في العدا كاهل قنسرين ، فلا يسلمون الا بتخريب
 الديار ودك الحصون

ولا جرم كان أبناء الأمصار يتسامعون بحلم أبي عبيدة
 فيقبلون على التسليم اليه ويؤثرون خطابهم له على خطابهم
 لغيره ، وكان خالد يرضى بهذا حيناً ويسخط منه حيناً كما
 سخط عند تسليم دمشق ووساطة أبي عبيدة في العفو عن
 أهلها . فانه كان يحسبهم مغلوبين عنوة فيعاقبون بالسبى
 والقصاص ولا يبسط لهم مهاد العذر والموادة ، ولو لا أنه
 لا يفدر بعهد عاهدهم به أبو عبيدة لما كان لهم من شرط
 عنده غير شرطه على أهل قنسرين

فصواب التاريخ وصواب ابن الخطاب قد تلاقيا ها هنا
 باستاد الأمر الى أبي عبيدة بن الجراح في أوانه المقدور ،
 وان كان تلاقيا لم يجر على قصد مرسوم



تولى الفاروق الخلافة بعد الصديق عليهما الرضوان
 ورأى الفاروق في أبي عبيدة بن الجراح معروف . فقصده

كان لا يعدل به أحدا من الصحابة الأولين، وقد هم بترشيحه للخلافة بعد وفاة النبي عليه السلام وقال وهو يجود بنفسه: انه لو كان حيا لعهد اليه ولم يلجأ الى مجلس الشورى الذي وكل اليه أمر انتخاب الخليفة بعده

وتحدث عمرو بن العاص مرة الى الفاروق في رآسة الجيوش الموجهة الى الشام فأجابه في مقال صريح : « ٠٠٠ انه ليس على أبى عبيدة أمير ، ولأبو عبيدة عندنا أفضل منزلة منك وأقدم سابقة ، والنبي عليه السلام قال فيه : أبو عبيدة أمين هذه الأمة »

وكما عرف رأى الفاروق في أبى عبيدة عرف كذلك رأيه في سابقة الاسلام والغزو على الاجمال . فانه خالف الصديق في التسوية بين انصباء المسلمين كافة يوم أخذ الصديق في توزيع الارزاق والانفال ، وجعل للرجل نصيبا يختلف باختلاف سابقته في الاسلام والجهاد ، لانه « لا يجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه ، ولا يسوى بين من هاجر الهجرتين وصلى الى القبلتين ومن أسلم عام الفتح خوف السيف »

فاقامة أبى عبيدة على ولاية الشام وقيادة جيوشها حادث لا غرابة فيه من الفاروق ولا ينتظر منه غيره . وبخاصة حين تكون اماره خالد بن الوليد بغير تأمير من الخليفة الاول . انما هي اتفاق على تقسيم القيادة بين الأمراء يوما بعد يوم وبهذه المثابة تكون ولاية أبى عبيدة سنة عمرية معروفة ولا يبلغ منها أن تكون « قضية » بين الفاروق وخالد على الصورة التي حول بها بعض المؤرخين واتخذوا منها محورا للجدال والتنقيب عن الاسباب والاقوال

وإذا نحن تجاوزنا النظر الى الموضوع من جانب هذه السنة العمرية فولاية أبى عبيدة كانت في اعتقادنا أصح

الولايات للشام فى تلك المرحلة التى انتهت اليها الحرب بين
المسلمين والروم

فما نظن أحدا تفوته حاجة الشام فى مثل تلك المرحلة
التي انتهت فيها بطشمة الحرب الكبرى وبدأت فيها مفاوضات
السلم والحكم والمصالحة . وهذه مهمة وال يحسن الحرب
ويحسن التوجيه اليها فى مناسباتها ، وليست مهمة قائد
عسكرى يجرى الأمر على سنة السطوة العسكرية ، ويكون
عمله الأكبر تحطيم قوى الأعداء فى ضربة طاحنة ثم يلاحقهم
متى شاء بالمطاردة والتضييق والاحسراج ، كما كان داب
خالد فى بطشاته التى لا تبقى بعدها بقية لغير الاجهاز

واذ تكون هذه هى المهمة المطلوبة بعد معركة اليرموك فلا
خلاف فى أى الرجلين أولى بالولاية عند ذاك : أبو عبيدة بن
الجراح أو خالد بن الوليد ، سواء أكان الخليفة على رأى
الفاروق أم كان على غير هذا الرأى فى أمين الأمة وفى سوابق
الاسلام والجهاد



ونما الى الفاروق بعد ذلك أن خالدا وعياضا أغارا على
بلاد الروم ورجعا منها بفنائم وأسلاب ، وأن الأشعث بن
قيس قصد خالدا ومدحه فأجازه بعشرة آلاف درهم ، وأجاز
آخرين من « ذوى البأس وذوى الشرف وذوى اللسان »
فعظم هذا البذل على الفاروق وكتب الى أبى عبيدة « أن
يقيم خالدا ويعقله بعمامته وينزع عنه قلنسوته حتى يعلمهم
من أين أجاز الأشعث ، هل من مال الله أم من ماله أم من
أصابة أصابها ؟ فان زعم أنه من اصابة أصابها فقد أقر
بالحيانة ، وان زعم أنها من ماله فقد أسرف » وأمر أبى عبيدة
أن يعزله على كل حال وأن يضم اليه عمله - وكان يومئذ
يل أمور قنسرين - وأن يقاسمه ماله نصفين

فصدع أبو عبيدة بالأمر وجمع الناس وجلس على المنبر ودعا بخالد فسأله : يا خالد ! أمن مالك أجزت عشرة آلاف أم من أصابة ؟ فلم يجب وأبو عبيدة يعيد السؤال مرة بعد مرة . فوثب إليه بلال مؤذن النبي عليه السلام وقال له : ان أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا ، ثم تداول عمامته ونقضها وعقله بها وخالد لا يمتعه ، وسأله : ما تقول ؟ أمن مالك أم من أصابة ؟ فقال : لا ، بل من مالى . فأطلقه وعممه بيده وهو يقول : نسمع ونطيع لولاتنا ونفخم ونخدم موالينا

ثم قوسم ماله حتى بقيت نعلاه ، فقال أبو عبيدة : ان هذا لا يصلح الا بهذا . فقال خالد : أجل . ما أنا بالذى أعصى أمير المؤمنين ، فاصنع ما بدا لك

ولما علم خالد بعزله ذهب الى قنسرين فخطب أهل عمله وودعهم ثم ذهب الى حمص فخطب أهلها وودعهم وقال فى بعض خطبه : « ان أمير المؤمنين استعملنى على الشام حتى اذا كانت بثنية وعسلا عزلنى وأثر بها غيرى » . فنهض له رجل من السامعين فقال : صبرا أيها الأمير ! فانها الفتنة . فما تردد خالد أن قال : « أما وابن الخطاب حى فلا »

ثم قصد الى المدينة فلقى الفاروق فقال له : « لقد شكوتك الى المسلمين . وبالله انك فى أمرى غير مجمل يا عمر ! » فسأله الفاروق : من أين هذا الثراء ؟ قال : « من الأنغال والسهمان . ما زاد على الستين ألفا فلك » فزادت عشرون ألفا فضمها الى بيت المال . ثم قال له : « يا خالد والله انك على لكريم ، وانك الى الحبيب ، ولن تعاتبني بعد على شىء » وأرسل الى الأمصار يأمر الولاة أن يعلنوا فيها باسمه : « انى لم أعزل خالدًا عن سخطه ولا عن خيانه ، ولكن الناس فتنوا به فخشيت أن ياكلوا اليه ويبتلوا » والا يكتوبوا بعرض فتنة » .

تلك قصة خالد والفاروق

وهي قصة تؤلم وتؤسف ، الا أن الآلم والاسف فيها من فعل الضرورة التي لا محيد عنها ، وليس من فعل خالد ولا فعل الفاروق

ومن الحق للرجلين العظيمين أن نفهم هذه القصة على حقيقتها المبرأة من الخلط والجهالة ، لأن فهمها على حقيقتها موصول بتقدير الحالة كلها وموصول بتقدير الخليفة العادل وتقدير القائد الكبير

وأبعد شيء عن هذه الحقيقة أن يكون عزل خالد لضئيلة في نفس عمر أو لتلك المنافسة التي تستحكم بين الأشباه والنظراء ، أو لغير سبب من تلك الأسباب التي كان عمر يخاسب بها جميع القادة والولاة

وأسخط من هذه الظنون أن يسبق الى الوهم كما سبق ألما وهم بعض المؤرخين أن عمر قد عزل خالد لبغضاء قديمة مرجعها الى الصراع بينهما في أيام الصبا ، وإن خالد صرع عمر وكسر ساقه فلم يزل بقية حياته واجدا عليه

وأجهل الناس بخلائق عمر من يجمع به الوهم الى ظن من هذه الظنون ، فليس بين رجال التواريخ جميعا من هو أصعب تخطئة من عمر بن الخطاب ، لأنه ليس بينهم جميعا من هو أشد حسابا لنفسه ومراجعة لنياته منه ، وأغلب الظن عندنا أنه لو أحس في نفسه نية دخل أو ثار قديم لكان أثر هذا الاحساس أن يؤجل عزل خالد ولا يعجل به مخافة من خدعة نفسه وتضليل هواه

فالحق أن حساب عمر لخالد لم يخالف قط حسابه لجميع ولاته . فكذلك صنع بعمر بن العاص وسعد بن أبي وقاص ، وكذلك صنع بكل وال أحصى ماله فظهرت فيه الزيادة . وقد عزل زياد بن أبيه ثم قال أنه عزله ، لأنه كره أن يحمل

على الناس فضل عقله ، وكان يحسب أنه قادر على أن يسوق
العرب بعصاه لو أنه من قریش . ولقد تبين بعسده أنه من
قریش

وكانت سياسة عمر مع الولاة جميعا أن يراجعوه في
الأموال ، وبذلك أشار على أبي بكر فوافاه الحساب من كل
وال الا خالدا أبي وأغلظ له في الجواب حيث قال : « اما أن
تدعنى وعملى والا فشأنك وعملك »

فلما بويح عمر كتب الى خالد أن يراجعه في حساب المال
والا يعطى شاة ولا بعيرا الا بأمره ، فأحاله الى ما جرى به
العمل قبله . فلم يطقها عمر وقال : « ما صدقت الله ان كنت
أشرت على أبي بكر بأمر فلم أنفذه »

هذا الى الخلاف بين سنن عمر في سياسة الناس وتصريف
الشؤون وسنن خالد التي طبع عليها . فغمر كان يحب
الاناة قبل القتل والقتال ومن ثم كان انكاره لمقتل بني
جذيمة ومقتل مالك بن نويرة ، وعفوه عن أسرى السواد
خلفا لما صنع بهم خالد في معركة اليرموك أو نهر الدم كما
سميت بعد ذلك . وقد حرم عمر « قيس بن سليط » أن
يقود جيشا هو كفؤ لقيادته قائلا له : « لولا أنك رجل عجل
في الحرب لوليتك هذا الجيش » والحرب لا يصلح لها الا
الرجل المكث »

واذا كان عمر قد أوجس من عقل زياد بن أبيه وهو
مجهول النسب فالفتنة باسم خالد أعظم وأخطر . انه لعظيم
الزعة الى الاستقلال وانه لمن بنى مخزوم وهم أقوى قبائل
قریش منفردين ، وله صهر في سائر القبائل والبطون
ولا يتأثله أخوال في بني تميم وبني حنيفة ، ولشهرته سحر
في نفوس الناس يفعل الأعاجيب ، وللهو مكان من طباع
خالد يحسب حسابه ولا ينسأه الخليفة المستول عن عواقب
الأمور في دولة الاسلام . فقبل أن يقهر خالد دولة الكاسرة

ودولة القياصرة رجع الى المدينة يوما فاذا هو يفرز في عمامته
السهام ويدخل المسجد بدرع القتال . فبعد غلبته على
الأكاسرة والقياسرة وشيوع ذكره في الأمصار ماذا يجري
لو ومن الحكم يوما بعد « ابن الخطاب » ٩٠٠

أما « وابن الخطاب » حتى فلا كما قال خالد . ولكن ابن
الخطاب لا يدوم ، والعواقب لا تنكشف ، وعزل خالد نقص
يعوضه قادة آخرون من حقهم أن يعملوا كما عمل ومن أثرهم
أن يثوب الناس الى العقيدة وحدها فلا يحسبوا أن النصر
وهين برجل واحد لا يرتهن بغيره

أما الاحتمال الآخر - ان حدث - فالخطر فيه عظيم
والموازنة بينه وبين كل عاقبة يعقبها عزل خالد لا مجال فيها
لتردد طويل

وهذا كله فضلا عن مرد العزل الى القسطنطين الذي يرد
اليه حساب جميع القواد والولاة . ولم يفت ذلك خالدا بعد
هدوء الغضب والتمتوبة الى الرأي، فقال في مرض وفاته لأبي
الدرداء : « قد كنت وجدت عليه في نفسى في أمور لما تدبرتها
في مرضى هذا وحضرنى من الله حاضر عرفت أن عمر كان
يريد الله بكل ما فعل . كنت وجدت عليه في نفسى حين
بعث الى من يقاسمنى مالى حتى أخذ فرد نعل وأخذت فرد
نعل ، فرأيت فعل ذلك بغيرى من أهل السابقة ومن شهد
بدرا . وكان يغلف على وكانت غلظته على غيرى نحووا من
غلظته على ، وكنت أدل عليه بقرابة فرأيت لا يبالي قريبا ولا
لوم لائم فى غير الله ، فذلك الذى أذهب ما كنت أجد عليه ،
وكان يكثر على عنده وما كان ذلك الا على النظر : كنت فى
حرب ومكابدة وكنت شاهدا وكان غائبا فكنت أعطى على
ذلك ، فخالفة ذلك من أمرى »

ولقد توفى رحمه الله وهو يجعل وصيته وتركته وانفاذ
عهده الى عمر بن الخطاب

ونحن اليوم ننظر الى القصة بعين التاريخ فنرى كما
أسلفنا أن الفاروق إنما ختم دورا ختمه القدر وانقضت به
الحوادث . فلم يكن بعد القمة التي ارتفع اليها خالد في
ضربته لدولة الرومان مرتقى لراق . ولعل مجده الباذخ قد
كانت تعوزه قمة من نوع غير تلك القمم التي تسنم فيها
صعدا من غلبته على طليحة ومسيلمة الى غلبته على القياصرة
والإكاسرة : تلك هي قمة التجميل والأخلاق الى الواجب
الآلئيم يوم عزله . فهي والله مما يحسب له الى جانب قممه
البواذخ ، قمم العظیم الظافر الجسور . . . وأين لولا عزله
كنا نبصر بينها قمة العظیم الصابر المطيع !



عقريته الحريية
ومفتاح شخصيته

عبقريته الحربية

كسبت المعارك الحاسمة لأسباب لا تحصى ، وكسبت معارك شتى للسبب ونقيضه ، وربما تعرض النقاد العسكريون للمعركة الواحدة فإذا بهم يردون النصر فيها الى أسباب تتناقض وتتباعد كأنهم يتكلمون عن النصر والهزيمة

كسب بعض المعارك لأن الاقواس كانت أكثر من السيوف، وكسب بعضها لأن السيوف كانت أكثر من الاقواس

وكسبت معارك حاسمة لأن رماح المتصرين كانت أطول من رماح المهزومين بشبرين أو بضعة أشبار ، وكسبت معارك غيرها لأن الرماح كانت تتلاحق في طولها على حسب الصفوف

وفي بعض المعارك كان الفرسان في الوسط فليل ان هذا كان من دواعي النصر العاجل ، وفي معارك أخرى قيل ان دواعي النصر انما ترجع الى قيام الفرسان على الجانبين

وكثيرا ما يقال ان اشتراك الفرسان والمشاة في العمل كليل بالغة في بعض الميادين ، ثم يدور الكلام على ميدان آخر فيقال ان تربص الفرسان بمعزل عن القتال الى ساعة الفصل هو الكليل بالغة المؤثرة حتى نهاية القتال ، وربما قيل ان ظهور الفرسان في ميدان يضيق عن حركات المناورة جنى على الفرسان وعلى المشاة فدب الفشل في صفوف هؤلاء وهؤلاء

ولقد يحاول بعض الحزاء أن يجمعوا أسباب النصر الى قاعدة موجزة فيقولون كلاما يحسن الاطلاع عليه ، ولكنه كلام يقرؤه القائدان معا فيبوء أحدهما بالنصر ويبوء الآخر بالهزيمة

مثل هذه القواعد الموجزة كمثل القاعدة التي توجز لك البلاغة الشعرية في كلمات ثلاث : وهي الوزن واللفظ والمعنى . ولا خطأ في هذا الايجاز ، ولكنه مع هذا لا يعلم الشاعر الصواب

وقصارى ما يقال بعد تقرير الأسباب وتدوين القواعد أنها لا تمنع الفروق بين معركة ومعركة وميدان وميدان ، وأن القائد الموفق هو الذى يلمح هذه الفروق فيعمد الى العمل اللازم فى الوقت اللازم بالقدر اللازم ، فلا ينقص أو يزيد ولا يتقدم ولا يتأخر، ولا يوجد العمل مع وفرة الفروق وإذا كان كل شيء فى المعركة يتوقف أحيانا على كذا أو كذا من الخطوات فى السبق الى حومة القتال ، وكذا أو كذا من الاشبهار فى طول الرماح ، وكذا أو كذا من التفاوت فى سرعة القذيفة هنا أو هناك ، وكذا أو كذا من الحركات الى اليمين أو الى الشمال والى الامام أو الى الوراء ، فتفصيل أسباب النصر فى المعارك القديمة على التخصيص ضرب من المستحيل ، لأن اثبات الفوارق بين المعسكرين فى الاسلحة والمواعيد والعدد والحركة غير ميسور . وأقصى ما نطمح فيه أن نقنع بالاجمال دون التفصيل

واجمال القول فى توفيق خالد بن الوليد أنه لم تموزه قط صفة من صفات القائد الكبير المفطور على النضال : وهى الشجاعة والنشاط والجلد واليقظة وحضور البديهة وسرعة الملاحظة وقوة التأثير

وأنه كان يضع الحطة فى موضعها ساعة الحاجة إليها .

فكان يحارب بالصفوف كما كان يحارب بالكمين والكمينين
كما يحارب أحيانا بغير كمين ، وكان يستخدم التورية
والمباغلة والسرعة على أنماط تختلف باختلاف الدواعي
والأحوال

وقد علم أن تمزيق الجيوش أجدى فى الحرب من الحصار
والاحتلال

وعلم أن الخبر قوة وسلاح . فكان يستطلع أخبار العدو
ولا يتيح له أن يستطلع خبرا من أخباره يفيدنه أو يحميه
من بأسه

وأجدى من هذا جميعه أنه كان لا يغفل عن القوة الأدبية
يعززها ما استطاع فى جيشه ويضعضعها ما استطاع فى
جيش عدوه

فكان هو نفسه مادة لهذه القوة الأدبية تجيش بها نفوس
أنصاره فيثقون بالفوز ويأمنون خطر الهزيمة ، وتشيع فى
نفوس أعدائه فيسرى اليهم الذعر وتفارقهم الثقة والطمأنينة
والى هذا كان يعتمد على قوة الايمان وهمة الأمل فيتعهد
جيشه بالعظات قبل القتال وفى أثناء القتال ، ولا يفوته
وهو مشغول بالضرب والطعن والتوجيه والمراقبة أن يطوف
بين الصفوف للتذمير والتشجيع فيعمل ويقول القول الذى
هو ضرب من العمل ، فإذا قال : « ان الصبر عز وان الفشل
عجز وان الصبر مع النصر » فليست هى أصدا تمر بالهواء
ولكنها هى العز والصبر ماثلان للعيان يسيان بالقذوة منه
الى كل مسمع وجنان

والى هذا وذاك كان يثير المنافسة الكريمة فى صدور
جنده وأعوانه ، فيدعوهم الى التمايز والتناظر لينبث فيهم
مع عزيمة الايمان عزيمة أخرى من حب الفخار وخوف
المسبة والعار

ويتخذ من الغيرة على العرض مددا لهذه العزائم التى

تواجه الموت على حد قوله كما تواجه الحياة ، فاذا بالرجل
الفرد يبلى فى قتاله ما ليس يبلية عشرات .

ولم يخف عليه قط مقتل العدو من قوته الأدبية حيثما
عمد الى هذا المقتل فى منازلته للمستبدين والطغاة . فانهم
فى جيوش الأمم التى طال عهدا بالظلم يرتفعون الى مقام
الأرباب من حيث يتحدر رعاياهم الى مقام القطيع السائم .
فاذا أصيب القائد فى الجولة الأولى فكثرة الجند بعد ذلك
معوان على الهزيمة وليست بالوقاية منها ، لأنها كثرة من
الخوف والذعر وليست كثرة من الثقة والثبات

ولقد كان هو يخلق فتون الحرب التى يجمعها « الخبراء »
فى عصورنا هذه بمراجعة الحروب وتحصيل الدروس
واستخراج اللقواعد من الخطط والمعلومات

قرأنا فى كتاب « فن الحرب اليوم (١) » للمؤلفيه من قواد
البحر والبر والهواء : « عند بحث هذه المسألة ينبغي أن
نحضر فى أذهاننا انه مع استثناء قليل لم يكن ثمة الا نوعان
من السلاح سيطراً فى حومة القتال ، وهما السلاح المقذوف
والسلاح الضارب أو القارع ، أى النبل أو السهم أو
الرصاصه من جانب ، والهرآوة والسيف والرمح من الجانب
الأخر . ومجمل ما يقال بعد هذا أن الصنف هو أنسب
الأوضاع لتطور قوة السلاح المقذوف وأن الكردوس أنسب
الأوضاع لتطور قوة السلاح الضارب . لأن الرماة
بالقذائف يحتاجون الى مدى مكشوف ، وإنما يتأتى الضرب
فى العمق كرات متلاحقات من المقاتلين جماعات جماعات »
ان خالد بن الوليد لم يقرأ هذا ولم يفتنه شيء بفؤآته عنه ،
لأنه قد علم كنهه ولبابه من بديته الحربية فقاتل بالصفوف
حيث تغنى الصفوف وبالكرايس حيث لا تغنى الا الكرايس

(١) Warfare Today تأليف الاميرال باكون والجنرال فلر ومارشال
الطيران بالريك بلايفير

وفي هذا الكتاب أيضا يقول المؤلفون : « يتضح مما تقدم أنه في حملات السلاح الضارب هناك أمران ضروريان : وهما الاستطلاع وكتمان الحركات ، والغرض من الاستطلاع وزن قوة العدو ومن كتمان الحركات أن تحول بينه وبين وزن قوتك وتوقع الهجمة من أى موضع تكون »

ثم يتكلمون عن الاستطلاع كما يجرى فى عصرنا الحديث فيقولون : « وعلى هذا يجرى الاستطلاع من الهواء قبل الحركات الأولى وفى خلالها ، وتتقدم الكراديس أثناء ذلك على نظام المعركة ، أى على النظام الذى تتألف به حين تدعى إلى الهجوم »

وهذه هي ربيثة خالد للاستطلاع ، ومسيره « على التعبئة الكاملة » التى يهجم بها ساعة اللقاء بالنظام الذى كان يسير عليه ، ثم يدخل فى التحام قريب ولا يطيل فى موقف التقاذف بالنبال والسهم

ونقرأ فى كتاب « الأسلحة وفنون التعبئة (١) » مؤلفه ونترنجهام الذى كان محررا لمجلة الجيش والبحرية بالولايات المتحدة : « ان سرعة الحركة وقوة الاصابة وتدبير الوقاية هي الآن كما كانت فى كل زمان بعض مفااتيح النصر التى لا شك فيها ، فاذا كسبت المازك أحيانا بالمفاجأة أو التركيز فى الموضع الحاسم وفى الوقت اللازم أو المناورة البارة ، فهذه المزايا انما تستمد مباشرة من التفوق فى سرعة الحركة أو فى قوة الاصابة أو فى تدبير الوقاية »

وخالد بن الوليد لم يقسم فن التعبئة هذا التقسيم حين علم أنه يضمن سرعة الحركة باقتحام الصحراء المخيفة ، ويضمن المفاجأة بهذا الاقتحام ، ولا يزال واثقا بالوقاية

حيثما حارب وظهره الى الصحرَاء ، أو حيثما تقدم وراء جيش مهزوم لا يتماسك له قوام

ووضع الحبير الحربى المشهور ليدل هارت (١) كتابا مستقلا عن فن سوق الجيوش على طريق التورية خصه فى قوله : « ان التحرك فى الوجة المتوقعة يحفظ توازن العدو ويزيد بتثبيت هذا التوازن قدرته على المقاومة ، وفى الحرب - كما فى المصارعة - انما يتأتى لك أن تغلب الخصم دون أن تزعزع قدمه وتخل توازنه باستنفاد قوتك أنت استنفادا لا يناسب الجهد الذى يلقاه خصمك . ولن يتاح النصر بهذه الوسيلة الا بفضل الرجحان الكبير فى قوتك على نحو من الانحاء . وقد يضعف الجسم فى النتيجة مع ذاك . وعلى نقيض هذا ينبئنا التاريخ العسكرى فى جميع العصور لا فى عصر واحد أن جميع الحروب الحاسمة على التقريب أن الاخلال بتوازن العدو نفسيا وماديا هو المقدمة التى لا يحصى عنها للقضاء عليه »

وهذا الاخلال بالتوازن هو الغاية التى كان يتوخاها ابن الوليد اما بالهجوم من جهتين أو ثلاث جهات ، واما بالمفاجأة التى لا تتوقع بحال من الاحوال ، واما بالكمين الذى يدخل اليأس على العدو فى ساعة حرجة ، واما بالتطويق من حيث لا ينظر التطويق

وكل أولئك مفهوم جد الفهم أن يزلزل الأقدام ويخل التوازن ، وكل ما يزلزل أقدام الانسان فى الحرب أو السلم فهو كذلك مفهوم جد الفهم من أقدم الزمان ، ولكن القدرة حق القدرة هى معرفة الوقت ومعرفة الوسيلة ، ومعرفة التنفيذ متى عرف الوقت وعرفت الوسيلة، وبهذا دون غيره تتجلى « معرفة » القواد الملهمين

وقال خبير حربى آخر هو آرثر برنى (١) فى كتابه « فن الحرب » معقبا على حروب الفرس واليونان : « كانت قوة الفرس ، جنودا ، قائمة على الحيلة والرماة . وكانت طريقتهم فى القتال أن يمحطروا العدو سهاما ، ثم يجتروه بحملة من الفرسان فى الوقت اللازم ، وأفلحت هذه الطريقة مع أصحاب الأقواس من الميديين وأصحاب الرماح المراكبة من الليديين وأصحاب المشاة الثقيلة من البابليين والمصريين . لكنها خابت مع اليونان ، وكانت التبعة فى خيبتها على ضعف فرق المشاة الفارسية ، فإذا ما استطاع الجند الاغريق أن يقتربوا - وكل شيء يتوقف على هذا - تناولوا المشاة الفرس على عجل بسيوفهم القصيرة ودروعهم الصغيرة .»

ولو علم هذا الخبير القول لوجب أن يقول ان الذى خيب طريقة الفرس مع اليونان هو الذى خيبها مع العرب من أيام ذى قار الى أيام خالد بن الوليد ، فالهجوم من قريب بالسيوف القصيرة والدروع الصغيرة هو الجنة التى احتضى بها العرب من الرماة ومن الفرسان ، بل من الفيلة فى بعض الاحيان ، وقد قيل فى الامثال الشعبية التى هى أصداق من قواعد الخبراء « الذى تغلب به العب به » وقد كان خالد يعلم أن الالتحام هو أنفع ضروب القتال للجندى الذى ينافع عن عقيدة ويضرب بالسلاح الخفيف . فلم يلق الفرس ولا الروم الا فى اشتباك والتحام

وقد صح هنا رأى ونترنجهام مؤلف كتاب « الأسلحة وفنون التعبئة » الذى سبقته الإشارة اليه حين قال : « ان بعض الجماعات الانسانية بطيئة التغير ، ومن هذه الجماعات الممالك الاسيوية التى يحكمها ملك أو عاهل مرفوع النسب الى السماء ، فأنها تنظم على سنن فحواها أن التغير لا ينبغى وان العادات الماثورة كلها حسنة قديمة ، وإن كل ما يعمل

الآن خليق أن يعمل كما قد عمل منذ أزمان ، وربما لاذت بعض الأمم التي هي أقرب الى التقدم بفترة من فترات الراحة تستبقى فيها التقاليد والمأثورات على سنة المحافظة على القديم . فاذا برزت جماعات من هذا القبيل للقتال برزت وفي رؤوس قوادها وجنودها فكرة عتيقة عن الحرب وحقيقتها ، ولم يغيروا خططهم وآراءهم للارتفاع بسلاح جديد أو معرفة جديدة ، ورسخت عندهم أصول رجعية للحرب أولم تكن لهم فيها أصول على الإطلاق . ولكنهم يمشون بحكم العادة وفاقا للترتيب الذي وضع منذ عهد بعيد . وان هذه الجماعات لتخرج جيوشا ليس أسهل من تحطيمها بجيوش الأمم التي يسهل عليها اتخاذ الاساليب الجديدة ومواجهة الغير والطوارئ »

ولو شاء صاحب هذا الرأي لشمس الدولة الرومانية فيما حكم به على الدول الاسيوية ، لأنها كانت تقا تل بخطط وضما الاقدمون لها منذ قرون ، وهى على هذا عاجزة عن تنفيذ القديم عجزها عن ابتكار الجديد



وجملة القول أن خالدا كان يحارب بالقريحة المهمة اناسا رثت عقائدهم كما رثت ملكاتهم العسكرية . فكانوا يرتبون كتائبهم وأسلحتهم فى الميدان على نحو مرسوم كأنهم قائمون فى مراتبهم بديوان التشريعات ا وكان خالدا يلبي الضرورة عفو الساعة فى ترتيب كل كتيبة وكل سلاح . فاذا بدا له أن الحيلة لا تجدى فى الحركة جدوى المشاة ترتبت حركات الجيش معه كما تترتب الحركات فى أعضاء الجسم الشاعر بتلبية الأعصاب والجوارح لمراكز التنبيه فى الدماغ فيترجل وقد ترجل معه كل من تنفعه الحركة على قدميه فى كره وفره وهجومه ودفاعه

وإذا بدا له أن الحرب بالجماعات أنفع من الحرب بالصفوف المختلطة فما هي الا كلمة قالها حتى تتلاقى تلك الجماعات كل منها الى قائدها المختار : تمايزوا أيها الناس ! فإذا هم بعد لحظات متميزون

وكانت مادة القتال التي يعمل بها من جند أو سلاح تغنيه وتلبيه . فكان جنده يصبرون على الشدة ولا يروعهم فقد مفقود لانهم مؤمنون عالمون أن الموجدود هو الله رب القائد والمقود ، وكانوا يصبرون على الهزيمة لانهم عرب معودون في غزواتهم أن يكروا بعد فر وأن يجتمعوا بعد تفرق . فهم يحسبون النكوص ضربا من التحفز للوثوب . أما خصومه فكانوا يتساقطون كما تتساقط حجارة اللعب المرصوفة اذا سقط منها الحجر الاول . . . فلا تماسك لها بعد ابتداء السقوط

ومن ثم كان نمطا فريدا بين قواد التاريخ ، لانه يمزج فن البداوة بفن الحضارة ، وكان يقتبس ويجدد بالرأى والفتنة كما يقتبس ويجدد بغريزة موروثه من قبيلة القبة والاعنة ، يصح أن تسمى غريزة الميدان

وقد تصعب المقارنة بينه وبين قواد العصور الحديثة لاختلاف الأسلحة والمسافات ، وان كنا نعتقد أن القائد العبقري تسعفه عبقريته على اختلاف العصر والسلاح

ولكن المقارنة بينه وبين قواد الطراز الاول في الزمن القديم تقدمه الى المرتبة الاولى بين اكبر القواد ، ومنهم الاسكندر وبلزارىوس اللذان حاربا عدوا كعدوه في ميدان كميده . فالاسكندر في وقعة «أربل» هزم جيشا فارسيا تقدر عدته بمائة ألف من الفرسان والمشاة ، وبلزارىوس في وقائع ارمينية هزم جيشا فارسيا تقدر عدته بأربعين ألفا أو قرابة الأربعين . . . والمقارنة بين خالد بن الوليد وهذين القائدين ترجح كفته على كفتيهما معا في هذا الميدان ، لأن

الاسكندر كان يقود خمسة وأربعين ألفا وبلزاريوس كان يقود نيفا وعشرين ألفا ، وكلا الجيشين مسلح بأقصى الأسلحة في ذلك الزمان

وقد كان خالد يحارب بثمانية عشر ألفا جيوشا أعظم من الجيوش التي تصدى لها القائدان الكبيران، ولم يكن له مثل سلاح المقدونيين أو سلاح الرومانيين ولم يكن نصرهما كنصره ولا العاقبة بعدهما كالعاقبة بعده . وزاد على ذلك أنه انتصر مثل هذا النصر على كل عدو من العرب أو العجم : ومنهم الرومان في أكبر الميادين ، وهو ميدان اليرموك

فمكان خالد في التاريخ العسكري هو مكان الطليعة بين أكبر القواد الذين اشتهروا بالفن أو اشتهروا بالعبقرية أو اشتهروا بالمناقب الشخصية . وفيه من ملامح القيادة في العظائم والصغائر ما يدل على طبيعة القيادة المهمة فيه ، وأنه كان كما يقال قائدا من فرع رأسه الى قدميه

فقد خالد قلنسوته يوم اليرموك فقال : اطلبوها . فبحثوا ونظروا فلم يجدوها . فما زال بهم يأمرهم أن يطلبوها ويلجوا في طلبها حتى وجدوها ، فاذا هي خلقة لا تساوي شيئا . فسئل عن ذلك فقال : « اعتمر النبي صلى الله عليه وسلم فحلّق رأسه فابتدر الناس شعره فسبقتهم الى ناصيته فجعلتها في هذه القلنسوة ، فلم أشهد قتالا وهي معي الا تبين لي النصر »

رحمه الله ! لم تفته من سمات القيادة حتى التعويذة المشهورة بين رجال الحروب . . . فما زال معلوما عن كبار الجند أنهم يأتسون الى تعويذة يعتزون بها ويستبشرون بصحبتها وهم يخوضون غمرات الموت . وما في ذلك من عجب . فليس أحوج الى صلة بعالم الغيب من رجل يلقي الموت صباح مساء

وقال خالد في أخريات عمره : « ما ليلة يهدى الى فيها

عروس أنا لها محب أو أبشر فيها بغلام أحب الى من ليلة
شديدة الجليد في سرية من المهاجرين أصبح بهم العدو
فعليكم بالجهاد . . »

هذا حبيب الحرب الذي يهواها وتهواه . فله منها الصفة
التي لا تصطفى بها أحدا من الطلاب والقرناء على بفضاء

مفتاح شخصيته

تقدمت الإشارة الى قصة الشبه القريب بين خالد بن
الوليد وعمر بن الخطاب في ملامح الوجه وطول القامة ،
وانهما كانا من التقارب بحيث يشتبه الامر على قصر النظر
وهو يتكلم اليهما ، فيخاطب عمر بن الخطاب وهو يظن انه
يخاطب خالد بن الوليد

ويلوح لمن يقرأ سيرة الرجلين ان الشبه بينهما يتعدى
اللامح والقامة الى معالم الشخصية وطبائع القوة النفسية ،
فكلاهما يجوز أن يقال فيه انه « جندي » بالفطرة وأن
« مفتاح شخصيته » هو السليقة الجندية ، فاذا احضرنا في
أخلاقنا كلمة « الجندي » أو الجندي المطبوع لم نجد في ابن
الخطاب ولا في ابن الوليد صفة لا تحتويها هذه الكلمة في
معنى من معانيها

وبين الرجلين فارق لا خفاء به في الخلق والتفكير
لكنه فارق لا يخرج بهما من نطاق هذه الطبيعة ،
فكلاهما جندي مطبوع على الخلائق الجندية . ولكن ابن
الخطاب تغلب عليه ، من مزاج الجندي ، ناحيته الروحية أو
ناحية الضمير ، وابن الوليد تغلب عليه من هذا المزاج نفسه
ناحية الحيوية أو ناحية البنيان والتركيب
وأصح من هذا أن نقول ان عمر كان جنديا في أخلاقه

الوازعة الحاكمة ، وإن خالدا كان جنديا في أخلاقه الدافعة
الهاجمة . وفي الجنود كما لا يخفى هذه الأخلاق وهذه
الأخلاق

ولا ريب أن هذا الفارق بين الفاروق وسيف الله إنما هو
قبل كل شيء فارق بين نفسين ، أو بين رجلين ، أو بين
« شخصيتين »

لكن هذا لا يمنع أن يكون في الوقت نفسه فارقا بين
« قبيلتين » وبين أسرتين وبين نشأتين . فان الفوارق بين بنى
عدى قبيلة عمر وبين بنى مخزوم قبيلة خالد خليقة أن تتجه
بالمزاج المتقارب وجهتين متباينتين

فبنو عدى — آل عمر — كانوا في الجاهلية أهل تحكيم
ومعرفة بالفصل في الخصومات ، وقد ذاقوا كما قلنا في
« مبقرية عمر » « طعم الظلم من أقربائهم بنى عبد شمس ،
وكانوا أشداء في الحرب يسمونهم لعقة الدم ، ولكنهم قلبوا
على أمرهم لقلة عددهم بالقياس إلى عدد أقربائهم . فاستقر
فيهم بغض القوى المظلوم للظلم وحبه للعدل الذي مارسوه
ودربوا عليه . . . »

أما بنو مخزوم — آل خالد — فكانوا على خلاف ذلك أهل
حرب وسطوة وأصحاب ثراء ورخاء ، وكانوا في الجاهلية
موكلين بالخيال والسلاح ، معترزين بالعتاد التليد ، والعدة
والعديد

وكان ثراؤهم يملئ لهم في أسباب الترف والنعيم كما تملئ
لهم فيه مزية أخرى من المزايا التي تكفلها للقبيلة عزة
السلطان وطول العهد بالحضارة والرئاسة ، وتلك الزية هي
جمال النساء

فقد كان يقال أن « المخزوميات » رياحين العرب
وكان في رجالهم ذلك الغزل الذي أخرج منهم شاعره

الأول عمر بن أبى ربيعة ، بل أخرج منهم غزلين ظرفاء حتى
فى النساك والأتقياء

جاء فى كتاب الأغاني عن أبى السائب المخزومى « أنه كان
رجلاً صالحاً زاهداً متقللاً يصوم الدهر ، وكان أرق خلق
الله وأشدهم غزلاً . فوجه ابنه يوماً يأتيه بما يفطر عليه .
فأبطأ الغلام الى العتمة . فلما جاء قال له : يا عدو نفسه !
ما أخرك الى . هذا الوقت ؟ قال : جرت بيباب بنى فلان
فسمعت منه فناء فوقفت حتى أخذته ، فقال : هات يا بنى ،
فوالله لئن كنت أحسنت لأحبونك ، ولئن كنت أسأت
لأضربنك . فاندفع يغنى بشعر كثير :
ولما علوا شغباً (١) تبينت أنه

تقطع من أهل الحجاز ملائقى
فلا زلن حصرى ظلماً . لم حلنها

الى بلد ناء قليل الأصادق
فلم يزل يغنيه الى نصف الليل . فقالت له زوجته :
يا هذا . قد أنتصف الليل وما أفطرنى . قال لها : أنت طالق
أن كان فطورنا غيره . فلم يزل يغنيه الى السحر . فلما كان
السحر قالت له زوجته : هذا السحر وما أفطرنى . فقال :
أنت طالق أن كان سحورنا غيره . فلما أصبح قال لابنه :
خذ جبتى هذه وأعطني خلقتك ليكون الحباء فضل ما بينهما .
فقال له : يا أبت ! أنت شيخ وأنا شاب وأنا أقوى على البرد
منك . قال : يا بنى ! ما ترك صوتك هذا للبرد على سبيلا
ما حبيت »

واطرح كل ما فى هذه القصة من المبالغة والافراق تبق
منها بقية كافية لبيان مكان الغزل من نساك بنى مخزوم ،
فضلاً عن الشعراء والظرفاء

وندع القبيلة الى الأسرة فيشراى لنا فى النظرة الاولى

(١) سهل بين طريقى مصر والشام

ذلك الاختلاف الذي لا بد منه بين معيشة الخطاب ومعيشة الوليد . أو بين معيشة الرجل الكادح لنفسه الخشن في ملمسه وبين معيشة الرجل المترف الفخور بالمال والبنين والجاه المكين

لكنه مع هذا فرق في المعيشة لا يتغلغل الى بواطن الطباع . انما الفرق المتغلغل الى بواطن الطباع بل الى اعماق أعماقها هو فرق البنية العصبية بين أبناء الخطاب وأبناء الوليد

فمن أوصاف أبناء الوليد عامة يتكشف لنا « قلق عصبى » في هذه الأسرة قد تطرف جد التطرف في أفراد منها واعتدل بعض الاعتدال في آخرين

فعمارة بن الوليد هو الذى بلغ منه الاضطراب أن يرأود امرأة في محضر زوجها ، وأن يجترىء على حرم النجاشى بالمغازلة ثم يجترىء بالتحدث عن هذه المغازلة حديث الفخر والمباهاة ، ثم ينطلق مع الأوابد في الأجام بفعل السواحر كما قيل ، وهو قول لا يخفى مدلوله في لغة العصر الحديث

وذكر من خالد كما ذكر من أخيه الوليد أنه كان يتفزع في نومه . فذلك اثر من آثار « أعصاب الأسرة » كلها على ما هو واضح من جملة المشاهدات في أبنائها ، وإن كان يجمع بهم في حين ويكبح في حين

وقد كان خالد يفضب فينتقع لونه كما جاء في كتب الفتوح من حديث المغاضبة بينه وبين أبى عبيدة بعد تسليم دمشق ومصالحة أهلها . وقد كانت علة المغاضبة أن أباً عبيدة يحسب التسليم صلحا وخالدا يحسبه غلبا يحق فيه على المغلوب جزاء السبى والاغتنام والقصاص

وكانت في خالد حدة يملكها أو تملكه آونة بعد آونة . وفي التعليل الذى بلغنا إشارة الى الكثير الذى لم يبلغنا . فقد فاضب أباً عبيدة وغاضب عبد الرحمن بن عوف وغاضب عمار بن ياسر . وقال له عمار وقد سمع منه ما ساءه :

« لقد هممت ألا أكلمك أبدا » فاصلح بينهما النبي عليه السلام وهو يقول لخالد : « يا خالد أمالك ولعمار . رجل من أهل الجنة قد شهد بدرا » ثم يقول لعمار : « ان خالدا يا عمار سيف من سيوف الله على الكفار »

فهذا الفارق بين الأسرتين ، وذلك الفارق بين القبيلتين ، مفسران صالحان لاختلاف لوني « الجندية » في شخصية الرجلين العظيمين : عمر الى الجندية الموزومة وخالد الى الجندية المدفوعة ، وعمر الى الشظف المختار وخالد الى المتاع المباح

ولا يرد إلينا العجب بعد هذا أن يكون شعور خالد بالمرأة هو شعوره ذاك الذي أهدفه للملاحظة والمؤاخذه مرات ، وجعل من مؤاخذه أرغب الناس في عذره والثناء عليه ، ونعنى به الخليفة الصديق .

وقد كان هذا الشعور يلزمه ما يلزم أبناء الثراء من حب الرفاهة وبهجة الحياة . فلم يفرغ من الحرب قط الا انقلب منها الى واد ظليل في صحبة زوج محبة اليه . فقصى في وادى الوبر باليمامة أيام الدعة بين زوجيه بنت مجاعة وبنت المنهال . وقضى في دومة الجندل أيام الهدأة بين الوقائع في صحبة ابنة الجودي الحسناء ، واستطاب المقام بحمص بعد العزل وآثره على المقام بالحجاز . وأغضب الفاروق لأنه « كان يدخل الحمام فيتدلك بعد النورة بشخين معجون بخمر » فلما لامه الفاروق في ذلك قال : انا قتلناها فعادت غسولا غير خمر ، ثم قال يخاطب عمر :

سهل أبا حفص فان لديننا

شرائع لا يشقى بهن المسهل
وهل يشبهن طعم الفسول وذوقه

حميا الخمر ، والخمر تسلسل
وفي كل أولئك هو سليل حق لبنى مخزوم وليت الوليد ،

وترجمان صدق لتلك البنية العصبية المتفوزة التي تجنح
به الى المتعة في أيام الدعة كما تجنح به الى البطش في مقام
الجلاد والعناد ، وتفسر لنا الجندي الذي تميل به القوة
الحوية تارة الى لقاء الحسان وتارة الى لقاء الاقران

وهو نفسه قد أبان عن طويته كلها غير عامد حين قال :
« ما ليلة يهدى الى فيها عروس انا لها محب او ابشر فيها
بغلام أحب الى من ليلة شديدة الجليد في سرية من المهاجرين
أصبح بهم العدو فعليكم بالجهاد »

فالحرب عنده اشتها ، والعروس غاية المتاع
والحرب في رأيه حسناء تشتته أبدا ولا تشيب كصاحبة
الزبيدي التي تكون في مبدئها « فتية تسعى بريئتها لكل
جهول » ثم تصبح :
شمطاء جزت شعرها وتنكرت

مكروهة للشم والتقبيس
وايا كانت متعته بالزاة الحسنة أو بالمقام الوثير فهي متعة
القوى اليقظان وليست بمتعة الضعيف المستنيم :
هي متعة المسافر الذي يستريح الى الواحة لينفض منه
الجهد ويتزود منها للجهد جديد ، وليست متعة المتهافت
الذي يتوق الى مهاد الراحة لينغمس فيها ويستكين اليها
ولا يفيق من سكرتها

بل هو يحب المتعة لأنه يحب الجهاد ، فاذا طالت عافها
وبرم بها وأجتاها ، وأنف أن يقنع بها ويستمرها . فلم
يطلق سنة واحدة بالحيرة بين حروب فارس وحروب الروم ،
وسماها «سنة نساء» لأنها كانت سنة راحة من العناء . . .
مع أنها كانت راحة المتربص المتوفز ، وكانت راحة تتخللها
وثبات وضربات من هنا وهناك

وهكذا كان يأخذ من المتعة بأيسر المقادير ليأخذ من الشدة
بأوفر المقادير

لان طبيعته القوية هيائه للشدة والبأس قبل كل شيء ،
وما بقى من الطبيعة للرياضة فقد ألتته الرياضة بعزيمة
الجسارة التى لا تلتين : باستمرار ما لا مراة فيه من طعام
وشراب ، وباكل الضب وشرب السم ومطاوله الركوب أياما
بعد أيام

لا جرم يكون اكبر الاسى لتلك النفس فى ساعة الموت انها
تموت على الفراش أو على حد قوله كما يموت البعير :
« لقد طلبت القتل فى مظانه ، فلم يقدر لى الا أن أموت على
فراشى . . . ولقيت الزحوف وما فى جسدى شبر الا وفيه
ضربة بسيف أو رمية بسهم أو طعنة برمح ، وها أنا أموت
على فراشى حتف أنفى كما يموت البعير ، فلا نامت أعين
الجبناء »

واقرب شيء أن يلاحظ فى سيرة خالد - من نشأته الى
وفاته - أن هذا الولع كله بالحرب لم يكن ولعا بالشر والسوء
ولا ولعا بالضغينة والبغضاء ، فكانت عداواته كلها عداوات
جندى مقاتل ولم تكن عداوات مضطغن آثم . . ولم يعرف
قط عنه أنه حمل الضغينة لأحد من الناس . ولو أنه
اضطغن على أحد لكان أحق الناس أن يضطغن عليه عمر بن
الخطاب ، لأنه عزله وشطر ماله وأبقاه فى العزلة سنوات ،
ولكنه لم يعمل عملا واحدا ولم يقل كلمة واحدة تدل على
ضغن عليه . وقد ساعه والتمس له المصدرة وعلم أنه أراد
وجه الله بما حاسبه عليه ، وكان أشد ما قاله فيه « الحمد
للذى قضى على أبى بكر بالموت وكان أحب الى من عمر ،
والحمد لله الذى ولى عمر وكان أبغض الى من أبى بكر ثم
ألزمنى حبه » وربما ذكره وهو غاضب فسماه « الأيسر
ابن أم شملة » فكانت هذه الكلمة أدل على التحبب منها على
الكراهة ، ولاحت كأنها كلمة المغلوب فى لعبة لا فى غرض عظيم
يقعد ويقيم

وقد يمكن كثيرا أن تتسع هوة البعد بين الولع بالحرب والولع بالشر والضعيفة ، وانها لأولى أن تتسع بينهما حيث تكون الحرب ميدان التضحية والفداء في سبيل الغيرة القومية أو سبيل الايمان والضمير ، وحيث يكون الرجل قد تربى على مراسها وطبع في نفسه على مزاج يالف القتال ولا ينفر منه ، وليس في المجتمعات الانسانية التي تصبح الحرب فيها ضرورة من ضرورات الحياة والشرف باعث الى النفرة من القتال ، ولن تزال القدرة على الحرب شرفا وشجاعة الى آخر الزمان ما دام في بنى الانسان من يحمل السلاح للعدوان والبغى والتلصص والمراء ، فيتقيه بنو الانسان بمن يحمل السلاح للحق والعقيدة والانصاف

وعلى كثرة من قتل خالد في حروبه لم يكن يقتل أحدا قط وهو يشك في صواب قتله وان أخطأ وجه الصواب . فالقتلى الذين طاحت بهم سيوف الجلادين بأمره في « نهر الدم » كانوا يستحقون عنده القتل قربانا الى الله وجزاء لهم على عناد الشرك والاصرار

أما اذا شك في صوابه فهو يستكثر المساءة الى رجل واحد فضلا عن الجحافل والقبائل ، ويسبق الى الرفق رجلا كأبي عبيدة عرف طول حياته بالرفق والرحمة والناة . فيقول له وقد تناول رجلا بشيء : « انى لم أرد أن أفضبك ولكنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أن أشد الناس عذابا يوم القيامة أشد الناس مهابا للناس في الدنيا »

فهو مطبوع على عداء الجندي المقاتل وليس بالمطبوع على عداء الدسيسة والشر في صفائر العيشن وسفساف الأمور كذلك لا يفهم من ولعه بالحرب على هذه الصفة أنه كان مبتلى بذلك الولع الأهوج الذى يبتلى به من لا يعقلون هجوما الا كهجوم الريح أو فرارا الا كفرار الحيوان

فقد كان يقدم عن علم بمواقع الأقدام ، ولذلك لم ينهزم قط وهو مسئول عن الهزيمة . وإنما هزم في حنين مرة واحدة وهو غير مسئول عن اليوم كله كما قدمناه

أما اذا وجب التراجع فالشجاعة كل الشجاعة عنده أن يؤمن بهذه الحقيقة وأن يدبر أمر التراجع بعد ذلك على النحو الذى يصون الكرامة ويصون الدماء ويكون المخدوع المغلوب فيه هو العدو الذى أمكن التراجع من بين يديه ، وقد كان فى وسعه أن يبطش بالمتراجعين جميعا قبل أن يفلتوا من أرهاقه المطبقة عليهم

هذه هى الجندية البصيرة بمزاياها فى الكفة الراجحة والكفة المرجوحة أو هذه هى الجندية الغالبة أبدا وهى فى أقدام أو فى أحجام

ولقد كادت هذه الطبيعة الجندية أن تحيط بكل ما رزق من طبيعة حية

فمن أقواله : ان الجهاد شغلنى عن تعلم القرآن ، أو عن قراءة كثير من القرآن

وعدده فى ذلك حين قال ذلك المقال أنه لم يقض فى ملازمة النبى غير أوقات جد قصار ، لأنه شغل السنوات الثلاث التى قضاها مع النبى بعد اسلامه وهو بين السرايا والفزوات وقد كان يخطب ويكتب ويقول الايات من الشعر والرجز على مثال ما قدمناه . ولكنها الخطب والكتب التى يستطيعها العربى الفصيح الناشئ فى كنف الفصحاء ، ثم هى كلها ملحقة بوظيفة الجندية فيه ، فاذا قال كلمة أو كتب سطرا فكانما يكتب بحسام لا بيراغ

كتب الى مرازمة فارس فقال : « الحمد لله الذى فض ملككم وأذل عزكم ، فاذا أناكم كتابى هذا فابعثوا الى الرهن واعتقدوا منا الدمة وأجيبوا الى الجزية ، والا والله الذى

لا اله الا هو لاسيرن اليكم يقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة ، ويرغبون في الآخرة كما ترغبون في الدنيا »
وخطب في المسلمين وقد تهيّبوا طروق المغازة من العراق الى الشام فقال :

« لا يختلفن هديكم ، ولا يضعفن يقينكم ، واعلموا أن المعونة تأتي على قدر النية والأجر على قدر الحسنة ، وأن المسلم لا ينبغي له أن يكثرث لشيء يقع فيه مع معونة الله له »

ويسمع الكلمة فيردها بالجواب المسكت كأنه يتلقى ضربة سيف بضربة سيف كما قال حين سمع صائحا في المعسكر يصيح : ما أكثر الروم وأقل المسلمين

فلم يكن أسرع منه الى أن يقول : « بل ما أقل الروم وأكثر المسلمين . أن الجيوش إنما تكثر بالنصر وتقل بالخذلان »
فكل كلمة منه فانما هي ضربة سيف في صورة حروف ونبرات

ومن الملاحظات الجديرة باستقراء علم النفس انه على التشابه بينه وبين عمر كان في عمر جانب فكاهة وإن كانت خشنة غليظة ، ولم يكن فيه هو مثل هذا الجانب في عمله أو كلامه

وقد كان الأدنى الى الظن - عند النظرة الأولى - أن تنمو الفكاهة مع الرجل الذي نشأ في مهد اليسار ولا تنمو مع الرجل الذي نشأ على العسر أو اليسر القليل لكنها النظرة الأولى ولا تتعدها

لأن الاعسار في الواقع أعون على الفكاهة من اليسار ، ومن هنا كان ولع الناس بالفكاهة في أيام الحروب وأزمات الشدة ومظالم الاستبداد ، كلها ضرب من التعويض والمقابلة ، ولا غرابة في ذلك حيث ننظر الى منشأ الفكاهة في جملتها ،

فهي على أكثرها وليدة المفارقة بين الحالات وليست وليدة
الموافقة والمواءمة . وما أكثر المفارقات في حياة المعسر
ولعلنا نبلغ مقطع القول في هذه الملاحظة حين نقول : أن
الموسر أقدر على التسلية والمعسر أقدر على الفكاهة ، وبين
التسلية والفكاهة فرق غير مجهول
رحم الله خالدا . انه كان جنديا وكفى !
لكنه قد عوض في جانبه الواحد عن جوانب عدة في
الآخرين ، لأنه قد رزق الجندي في طرازها الأول ، ورزق
منها وحده ما يكفى عشرة من جنود التاريخ المبرزين



نهایة من صنع القدر

قضى خالد بقية أيامه بعد عزله في مدينة حمص - زهاء
سنوات أربع - لم يفارقها قليلا الا ليمود اليها
وعاش هناك بين أهله وولده وهم كثيرون
وكانما كانت للموت ضريبة مقضية على هذا القائد الكبير
يطالبه بها في حربه وسلمه حيث كان . فمات من أولاده
نحو أربعين في سنة الطاعون
ولم ترو لنا كلمة قالها خالد في موت هؤلاء الأبناء
الكثيرين ، وهو الرجل الذي كان التبشير بسلام عنده فرحا
من أكبر أفراح الحياة : فكانما ألف وجه الموت لطول ما
واجهه من قريب ، فهو لا يلقاه أبدا لقاء غريب مرعب
وتعقب الموت أبناءه الذين بقوا بعد الطاعون وأشهرهم
المهاجر من حزب علي وعبد الرحمن من حزب معاوية . فمات
المهاجر في صنفين ومات عبد الرحمن مسموما على ما قيل ،
لأنه رشح للخلافة قبل أن يرشح يزيد بن معاوية لولاية
العهد . فسقاه معاوية السم على يد الطبيب بن أنال
وما هي إلا فترة حتى انقرضت ذرية هذا القائد الكبير
- صاحب الموت والقدر - فورث دورهم بالمدينة أحد أبناء
أخيه

وانتهت حياة خالد رضى الله عنه نهايتها العجيبة ، بين
سنة احدى وعشرين واثنتين وعشرين
والنهاية العجيبة لحياة مثله أن يموت على فراشه - كما
قال - بعد أن شهد نيفا وخمسين زحفا في نجد والحجاز
والعراق والشام ، ولم يبق في جسمه مصح من كثرة الجراح
وليس هذا كل ما في موته من « غير المألوف » أو غير

المنظور ، فانه مات ولما يجاوز الخامسة والخمسين على أرجح تقدير ، وليست هي بالسنة التي تنتهي بها الحياة بغير مرض شديد . فان كان قد ألم به مرض عارض غير مميت في جملة أطواره فلعله قد أتم ما بدأه الحزن على الأبناء ، والفتور من الراحة ، وذلك الاضطراب الذي كان يفزعه في نومه وينتقع منه لونه اذا غضب أو ثار

ولم يوجد في بيته عند موته غير فرسه وغلामه وسلاح وقفه للجهاد في سبيل الله . فلما بلغ ذلك عمر قال : رحم الله أبا سليمان كان على غير ما ظنناه به ونكس مرارا وهو يسترجع كلما رفع رأسه . ثم قال : كان والله سدادا لنحور العدو ميمون النقيبة

وقد كان حزن عمر عليه حزن قريب وحزن مسلم وحزن خليفة . قال لأمه : عزمت عليك ألا تبيتي حتى تسودي يدك من الحصاب

واجتمع بنات عمه يبكين فقبل لعمر : أرسل اليهن فانهن ، فقال : « دعهن يبكين على أبي سليمان ما لم يكن نفع أو لقلقة . على مثل أبي سليمان تبكي البواكي »

ولما سئل عمر أن يعهد بعد موته قال : لو أدركت أبا عبيدة بن الجراح ثم وليته ثم قدمت على ربي فقال لي : لم استخلفته على أمة محمد ؟ قللت : سمعت عبدك وخيلك يقول : لكل أمة أمين وان أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح ، ولو أدركت خالدا ثم وليته ثم قدمت على ربي فقال لي : من استخلفت على أمة محمد ؟ قللت : سمعت عبدك وخيلك يقول : لخالد سيف من سيوف الله سله الله على المشركين ! ولعمرى ان « سيف الله » قد استحق هذه التزكية وهو في الغمد كما استحقها وهو مشهور فليست سنوات العزلة بأخف السنوات وزنا في سيرة خالد بن الوليد

ان الحوادث قد وعظته بها فاتعظ في صبر وإباء . فلم يغلبه لسانه ولم يغلبه هواه ، ولم يتحرك لكيد ولا لشغب ولا للمذمة ولا لوقيعة . ولو شاء بعض ذلك لكان له مطعم فيه ، وهو الرجل الذي طبقت شهرته آفاق المسلمين وغير المسلمين

نعم انه لا فتنة وابن الخطاب حى كما قال ، وان الفتنة انما تخشى « اذا كان الناس بذى بلى » أو فى معرض الفرقة والنزاع وعصيان الأئمة أو انقطاع الامام

ولكن ادراك هذا وحده مفخرة من المفاخر ، وليس كل ادراك كهذا الادراك بالذى يغلب الهوى ويقمع النزوات

فلا جرم يرشح الفاروق خالدا للخلافة كما رشح لها أبا عبيدة ، ولا جرم يعرف سيف الله فى الغمد كما عرفه وهو فى يمين البطل الجسور . فان يكن خالد مخشى المزاحمة على الخلافة فى ظن من الظالمون فليس هو بمخشى عليها وقد وصلت اليه معهودا اليه خالصة من الزحام ، وقد استحقها بعد أكبر مستحقها وريض لها سنوات تجرد فيها من سورة الشباب وبعد ما بينه وبين نشأة الجاهلية ، وقرب ما بينه وبين الله

لقد مات - نصير الموت - مطمئنا الى نهاية حياته لا يكره منها الا أنها انتهت به على فراشه

ولكننا - أبناء آدم - نكره كثيرا ما يكون من حقا أن نتمناه . وما كان خالدا أمنية قد بقيت له فى ميدان الكفاح يتمناها . لقد عرفه الناس حق عرفانه وهو الكريم الشجاع ، ولم يبق له الا أن يعرفوه فى ميدان العزلة وهو الشجاع الصبور . وقد عرفوه على هذه الصنفة فى ميدان حمص - ميدان السلم والتسليم - خير عرفان وأجدره بماضيه العظيم وتاريخه الخالد المقيم

فهرس

صفحة

البادية والحرب	٥
نشأة خالد واسلامه	٢٧
حروب الردة	٨٥
الفتوح	١٢٥
عبريته الحربية ومفتاح شخصيته	١٧٩
نهاية من صنع القدر	٢٠١

كتاب الهلال

سلسلة كتب شهرية قيمة بثمن زهيد

هي خطوة ثقافية كبيرة قامت بها دار الهلال لتيسر القراءة الميعة للجميع .. ففي الخامس من كل شهر يصدر كتاب قيم لأحد كبار الكتاب في الشرق والغرب ، في اخراج انيق وطباعة متقنة ، وبثمن زهيد لا يرهق أحدا من عشاق القراءة والاطلاع .. وقد صدر من هذه السلسلة حتى الآن الكتب الآتية :

الموضوع	المؤلف	الكتاب
تحليل لشخصية النبي محمد صلى الله عليه وسلم	عباس محمود العقاد	معتقيرة محمد
قصة طواف ماجلان حول الارض	ستيغان زفايج	ماجلان : قاهر البحار
الحياة العامة والخاصة للخليفة هرون الرشيد	احمد امين بك	هرون الرشيد
قصة استشهاد الامام الحسين رضي الله عنه	عباس محمود العقاد	أبو الشهداء
الحياة الحربية والسياسية لجنكيز خان	ف . بان	جنكيز خان
قصة خرام نابليون وجوزفين	أوكتاف أوبرى	قلب النسر

الموضوع	المؤلف	الكتاب
قصة حياة أول زعيم شعبي لمصر الحديثة	محمد فريد أبو حديد بك	السيد عمر مكرم
قصة أشهر زعيم سياسي روعي في الشرق	لويس فيشر	غاندي : الثائر القديس
قصة الثورة في حياة الزعيم الخالد سعد زغلول	عباس محمود العقاد	زعيم الثورة : سعد زغلول
لم يصدر بعد	عبد الرحمن الراعي بك	الزعيم : أحمد هراي
قصة زينب بنت الزهراء ودورها في معارك كربلاء	الدكتورة « بنت الشاطئ »	بطلة كربلاء : زينب بنت الزهراء
قصة أخف الطفليين ظلا والطفهم وأظرفهم نادرة	توفيق الحكيم بك	أشعب : أمير الطفليين
قصة ملكة مصر الفاتنة في مصرها الذهبي التليد	السيدة صوفى عبد الله	نفرتي
تفسير بعض سور من القرآن الكريم	الاستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى الرافى	حديث رمضان

ويمكنك الحصول على ما ينقص مجموعتك من هذه الكتب من دار الهلال شارع محمد بك عز العرب (المتديان) بالقاهرة ، وشركة الصحافة المصرية بشوارع النبي دانيال بالاسكندرية ، ومن شركة الصحافة المصرية بميدان المحطة بطنطا ، ومن السيد محمود حلمى صاحب المكتبة المصرية بشوارع المتنبي ببغداد ، ومن شركة فرج الله للطبعوعات بشوارع بيكو طريق المالكى ببيروت ، ومن المكتب العام لتوزيع المطبوعات لصاحبه السيد على نظام ببنية العابد بدمشق ، ومن جميع الكاتبات الشهيرة ، واكتشاك الصحف

وكلاء مجلات دار الهلال

بيروت ولبنان : السيد خليل طعمه - السور - العسيلي .
المدخل الشمالى ص ٠ ب ٥٤٣ بيروت

حلب : الشيخ طاهر النعساني

حماه : السيد سعيد نجار

اللاذقية : السيد نخله سكاف

حماص : السيد عبد السلام السباعي - ص ٠ ب ٤٩

هامة المكرمة : السيد هاشم بن على نحاس - ص ٠ ب ٩٧

السيد مؤيد أحمد المؤيد - مكتبة المؤيد -
البحرين : البحرين والخليج
البحرين : الفارسي

Snr. Jorge Suleiman Yazigi,
Rua Varnhagem 30,
Caixa Postal 3766,
Sao Paulo, Brasil : البرازيل

The Queensway Stores, P.O. Box 400,
Accra, Gold Coast, B.W.A. : ساحل الذهب

Mr. M.S. Mansour, 110, Victoria Street,
P.O. Box 652, Lagos, Nigeria, W.C.A. : نيجيريا

مكتب توزيع المطبوعات العربية : إنجلترا

Arabic Publications Distribution Bureau
15 Queensthorpe Road, London, S.E. 26.

هذا الكتاب

ليس هذا الكتاب من كتب التاريخ التي تروى حياة القواد رواية احصائية لتسجيل الأحداث التي عاصروها ، أو الفتوحات التي قاموا بها سواء اكانوا غزاة مصلحين أم جبابرة فاتحين ، بل هو دراسة فنية لبطل من أبطال الاسلام ، وعلم من اعلام التاريخ ، وعبقري من عباقرة الحرب والسياسة

ولقد كانت حياة خالد بن الوليد عبرة الدنيا ، وكانت عبقريته الحربية والسياسية معجزة الازمان ، حتى لقب بسيف الله المسلول ، لما اوتى من مواهب ليست للكثير من قواد العالم ، ولما هيا الله على يديه من نصر مبين على اكبر دولتين في عصره ، ورفع لواء الاسلام على عروش الاكاسرة ، وقلاء الرومان ، وكان اكبر فاتح في الاسلام ، ومن اعظم

ولم يكن خالد بن الوليد قائد حربي قائد اخلاق . ففي هذه الدراسة القليلة كتاب « عبقرية خالد » كشف دقيق في اخلاق هذا القائد العظيم الذي ثروة نفيسة من عظمة المواهب وعفوية وقدوة صالحة للشباب الطامحين الى حياته احسن الدروس ، واجمل الامثال

Bibliotheca Alexandrina



0399729

